17 روائع الأدب العالمي

صافو

تأليف الكاتب الفرنسي

ألفونس دوديه

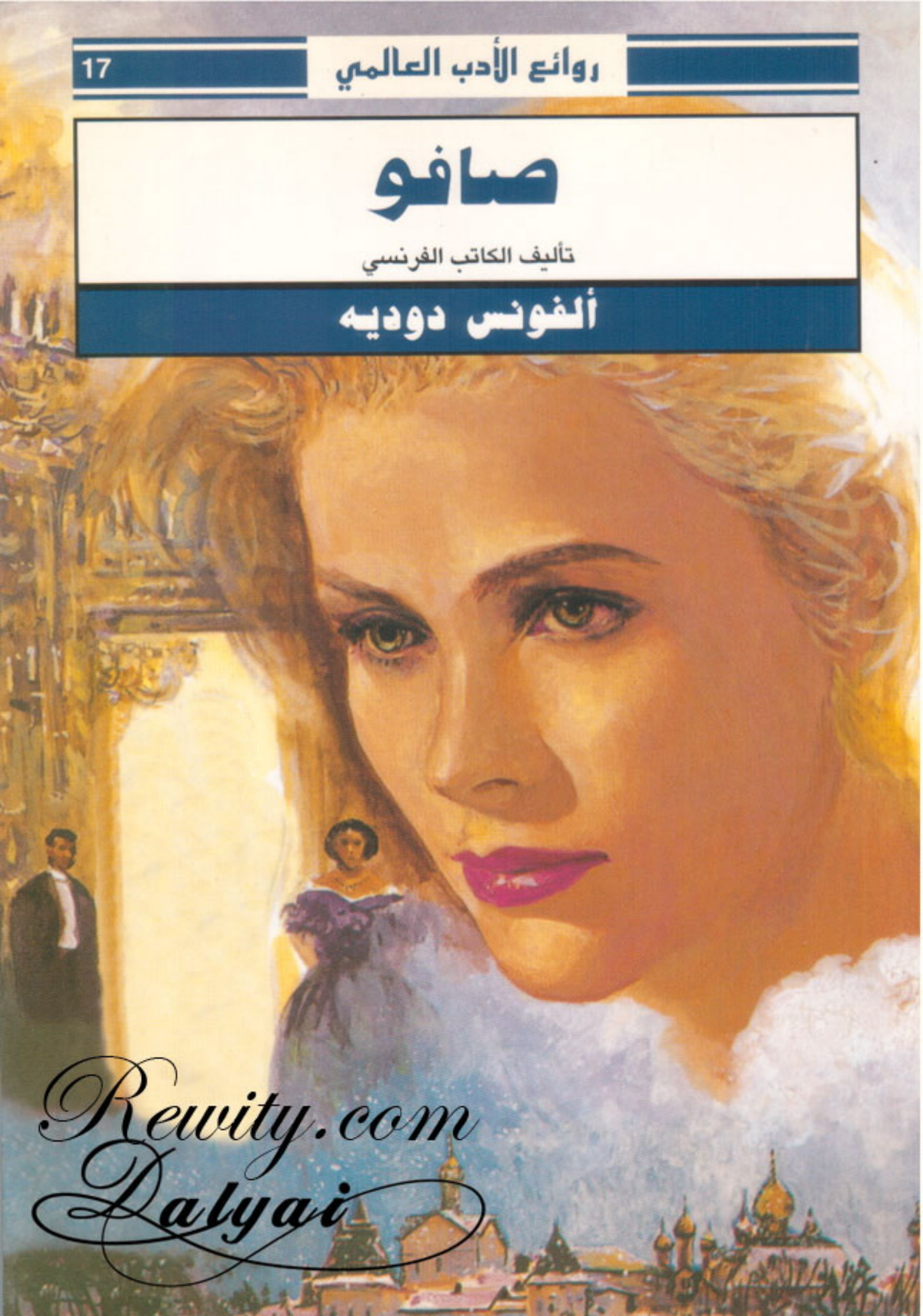

Rewity.com
Dalyai

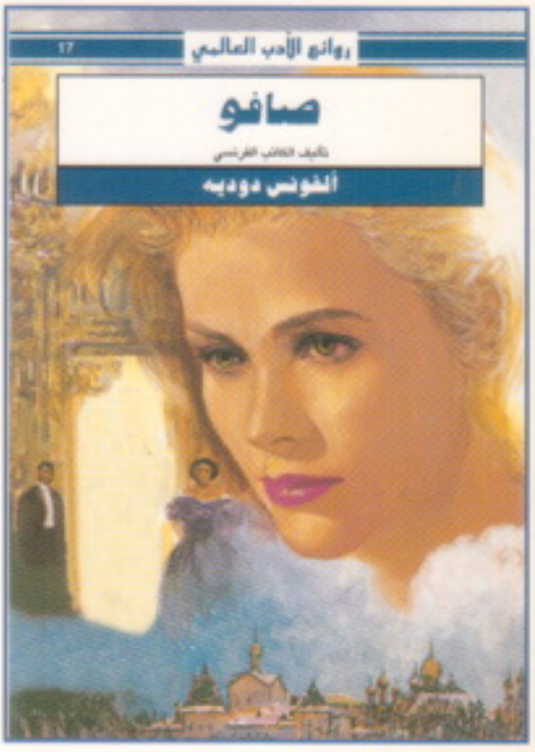

"ألفونس دوديه"

١٨٤٠ - ١٨٩٧

في كل حكاياته وقصصه ورواياته الأخلاقية يختلط فيها: (الواقعية والشعر والعطف والحنان). في ليلة هادئة ولطيفة مثل الليالي التي تترك قشعريرة خفيفة على الجلد، ووسط البساط الناعم والورد الأحمر والضحكات والتنهدات وآلاف الأضواء، كانت الحفلة تتألق.

وراء النباتات والأزهار الطويلة وقف "جون جوسان" يتأمل الراقصين والراقصات.. شقراء: وجه تحوطه هالة من النور مثل قرص الشمس، تائه وسط مجموعات الصور المرسومة والتماثيل المنحوتة الباريسية، بين الموسيقى والعطور والأذرع العارية، كان كل هذا يخيفه أولا، ثم يفتنه، وفجأة تظهر هي بجانبه "سافو" جميلة، غامضة وحساسة، وعندما دخلت بدأ يتبعها، وفعل الحب الباقي...

إن الحب مثل السم الدقيق حلو المذاق حين يدخل الجسد ويتغلغل فيه حتى أعماق الروح..

صافو

صافو

تأليف
ألفونس دوديه

ترجمة
سعيد محمد عبد المنعم

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق – بيروت
تلفون : 00 961 1 803 674 فاكس : 00 961 1 790 223
E-mail : darbachir@terra.net.lb

جميع الحقوق محفوظة

يمنع منعاً باتاً نقل أي قسم أو جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة مسموعة أو مرئية... إلخ
إلاّ بعد الحصول على موافقة خطّية من الناشر.
طبع هذا الكتاب بإذن خاص من شركة دار ميوزيك

الإسم الأصلي للكتاب
SAPHO

إسم المؤلف
Alphonse DAUDET

المقدمة

هذه إحدى روائع الأدب الفرنسي الكلاسيكي المليئة بالخيال والوصف للعواطف الإنسانية والطبيعة والعلاقة بين الرجل والمرأة. وتدور أحداث الرواية حول حياة الغانيات اللاتي يتخذن عشاقا من المشاهير الأغنياء ليعيشوا معهن حياة شبه زوجية مزيفة.

وبطلة الرواية "فاني لوجراند" فتاة من وسط منحط ابنة حوذي سكير تربت على الأرصفة ثم عملت راقصة في الملاهي ثم موديلا للرسامين والنحاتين، وارتبطت بالعديد منهم بعلاقات طويلة انتهت كلها بالقطيعة. وعندما تقدم بها السن وقعت في حب شاب مليح وصغير من عائلة بورجوازية، كانت تعده للعمل في السلك القنصلي خليفة لوالده.

واستمرت العلاقة شبه الزوجية ثماني سنوات، عانى في نهايتها كل من العاشقين الخوف من القطيعة المحتومة خاصة أنه حان الدور على الشاب "جوسلان" لتولي منصب قنصلي في بلاد بعيدة وتعلقت "فاني" الشهيرة باسم "صافي" به، في حين وقع هو في حب شابة عمها طبيب ومن عائلة محترمة وقرر الزواج بها وهجر "فاني" .. الرواية مليئة بالوصف الرائع للعواطف الإنسانية.

شخصيات الرواية

"**فاني لوجراند**" : غانية وموديل للرسامين وراقصة مشهورة باسم "**صافو**" .

- "**جان جومـان دارمانديي**" : شاب من عائلة توارثت وظيفة القنصل العام لفرنسا في مختلف البلاد وكان يدرس ويتدرب لتولي منصب والده وعشيق "**فاني**" .

– "**ديشـيليت**" : ثري من محبي الفن له مشروعات في بلاد الشرق يقضي شهرين كل عام في "باريس" ليقيم حفلات راقصة وتنكرية فاخرة .

- "**لاجورنيري**" : شاعر وعشيق لـ"**فاني**" .

– "**كودال**" : نحات مشهور وعشيق سابق لـ"**فاني**" .

- "**ماشوم**" : خادمة ووصيفة "**فاني**" بعد أن طردها والدها الذي كان عشيقا لها .

الزوجان "**هيتيما وأوليمب**" : جار "**جان**" و"**فاني**" . ويعمل الزوج رساما للأسلحة في لجنة التسليح .

– "**أليس دوريه**" : لاعبة تزحلق على الجليد وعشيقة "**ديشيليت**" وانتحرت عندما هجرها .

الفصل الأول

– هيا انظر إلي .. إنني أحب لون عينيك، ما اسمك؟

– "جان".

– فقط "جان"؟

– "جان جوسان".

– أنا من "ميدي".. لقد سمعت ذلك. ما عمرك؟

– واحد وعشرون عاما.

هل أنت فنان؟

– لا يا سيدتي.

. آه. هذا أحسن..

هذه الأجزاء من العبارات التي لا تكاد تكون مفهومة وسط الصياح والضحكات وألحان الرقص في حفل تنكري. عبارات متبادلة في إحدى ليالي شهر يونيو بين موسيقي جوال وسيدة فلاحة في تحويطة من النخيل وأشجار القوجير المفرعة تكون أساس مرسم "دي ديشيليت". وأمام الاستجواب الملح للمصرية فإن الموسيقي الجوال كان يرد ببراءة سنه الحدث. والاستسلام والخلاص لشخص من أهل جنوب أوروبا الذي ظل وقتا طويلا دون أن يتكلم. كان غريبا عن كل هذا العالم من الرسامين والنحاتين ضائعا منذ أن دخل الحفل بواسطة صديق اصطحبه معه. كان يتململ ويتضجر منذ ساعتين وهو يدور بوجهه الجميل الأشقر الذي لوحته الشمس وأعطته لونا ذهبيا، وشعره في خصلات قصيرة ومتماسكة مثل فرو الخروف الذي صنعت منه سترته وقد ارتفع ضجيج لا يشك فيه على الإطلاق وهمسات حوله.

وكانت أكتاف الراقصين.. تصطدم به فجأة؛ وضحكات طلبة الرسم تسخر من المزمار القربه الذي كان يحمله بطريقة مقلوبة؛ وثياب الجبال الثقيلة التي كانت تضايقه في ليلة الشتاء، وكانت يابانية ذات عينين ضيقتين قد وضعت سكاكين من الصلب تثبت بها ضفيرة شعرها العالية فوق رأسها وهي تدندن بطريقة أزعجته: آه كم هو جميل.. آه كم هو جميل.. ذلك الخوذي! بينما راهبة إسبانيه ترتدي الثياب البيضاء متعلقة في

ذراع زعيم قبيلة الأباش وقدمت له بعنف تحت أنفه باقة الياسمين التي كانت تحملها.

لم يفهم شيئا من تلك المغازلات وهو يعتقد في نفسه أنه مثير للسخرية، ولجأ إلى الظل الرطب للمعرض الزجاجي المحاط بأريكة واسعة تحت الخضرة. وفي الحال جاءت تلك المرأة لتجلس بجواره.

قال في نفسه: هل هي شابة وحسناء؟ إنه لا يعرف ماذا يقول. لقد خرجت من بين الفرو الطويل المثبت على ثوب من الصوف الأزرق ذراعان طويلتان ملفوفتان وناعمتان وعاريتان حتى الكتفين بينما امتلأت أصابع كفيها بالخواتم، وعيناها الواسعتان لونهما رصاصي مفتوحتين على اتساعهما، وقد كبر حجمهما بسبب الزينة الغريبة المصنوعة من الحديد التي تدلت على جبينها مكونة مجموعة منسجمة ومنسقة.

إنها ممثلة لاشك في ذلك لأنه يأتي الكثير منهن عند "**ديشيليت**"، وكانت هذه الفكرة تجعله لا يشعر بالارتياح فإن مثل هذه الشخصية تخيفه كثيرا. كانت تحدثه عن قرب شديد وقد أراحت كوعها على ركبته ومالت برأسها على يدها في رقة خطرة وقد بدا عليها بعض التعب.

تساءل هل هي من "**ميدي**" حقا؟ وشعرها الأشقر مثل القمح.. هذا شيء غير عادي.

وهي تريد أن تعرف منذ متى وهو يقطن في "**باريس**"، وإذا كان هذا الامتحان صعبا للغاية من أجل العمل بالقنصلية، وإذا كان يعرف العديد من الشخصيات دون شك..

ولما كان موجودا في أمسية "**ديشيليت**" بشارع روما بعيدا جدا عن الحي اللاتيني الذي يقطنه.. عندما ذكر اسم الطالب الذي اصطحبه "**لاجورنيري**" وهو قريب للكاتب الذي تعرفه دون شك. فإن تعبير تلك المرأة تغير وتجهم فجأة ولكنه لم ينتبه إلى ذلك وهو في السن الذي تلمع فيها عيناه دون أن تريا شيئا. لقد وعدته "**لاجورنيري**" بأن ابن عمه سيكون موجودا هناك وأنه سيقدمه قائلا إنني أحب جدا أشعاره وأكون سعيدة بمعرفته.

ابتسمت ابتسامة شفقة على صراحته وضغطت على كتفيه وهي تبعد في نفس الوقت الأوراق الخفيفة للبامبو وتنظر إلى الحفل الراقص بحثا عما إذا كانت ستجد وسطه رجلها الكبير.

كان الحفل في تلك اللحظة براقا وكان يسير في تألق مثل حفلات الجنيات الخرافية. وكان المرسم أو بالأحرى القاعة لأن أحدا لم يكن يعمل بها قد امتدت بارتفاع الفندق، وجعلت منها حجرة فسيحة تستقبل بطلائها الفاتح الخفيف الصيفي وستائرها المصنوعة من القش أو الشاش، والبارافانات المطلية باللاكيه وزجاجها متعدد الألوان، وباقات الورد الأصفر التي تزين الدار أعلى مدفأة من عصر النهضة. وكانت الإضاءة المنوعة والغريبة للعديد من المصابيح الصينية والفارسية والمراكشية واليابانية بعضها من الحديد المغطى بشراشيب ومشكلة على شكل باب جامع، والبعض الآخر من الورق ملون بألوان الفاكهة ومطوي على شكل مروحة لها أشكال زهرة أبيس أو الثعابين، وفجأة تنصب أضواء كهربائية ضخمة وسريعة زرقاء محدثة مئات الأضواء الشاحبة وتعطي الوجود مسحة ضوء القمر، وخاصة الأكتاف العارية. وكل هذه المجموعات الخرافية من الأقمشة وريش النعام والأشرطة والتي تكرمشت وسط الرقص والبعض رص على السلم الهولندي الطراز ذي الدرابزين العريض والمؤدي إلى معارض الدور الأول، وقد رأى الشاب من مكانه خلال حزمة من الأغصان المتشابكة الخضراء والأغصان المزدهرة المختلطة بالديكور والمحاط بخداع ضوئي يلقي ذهابا وإيابا الضوء على أكليل الجلايسين الذي يعلو ثوب أميرة وقد ارتدت على رأسها ورقة من شجر الدراسينا وتحيط بوجه طفولي على مقعد من طراز "**بومبادور**" وكان اهتمامه بالعرض الآن قد تضاعف عندما أسعده أن عرف من المصرية الأسماء اللامعة والمعروفة والذين تنكروا في أشكال مختلفة خرافية ومسلية.

وخادم الطلاب الذي يطوح بسوطه القصير كبندول الساعة كان "**جادان**" بينما على بعد قليل منه الجبة البالية لقس ريفي تخفي العجوز "**إيزابي**" وقد طالت قمته عن طريق حذائه ذي الكعب العالي المجدول. وكان الأب "**كوروت**" يبتسم تحت حافة قلنسوته العريضة الضخمة.. وقد أرته أيضا "**توماس كوتير**" في ثياب الكلب البولدج و"**جونت**" في ثياب حارس المساجين و"**شام**" في شكل طائر الجزر.

وبعض الملابس التاريخية والجادة.. "**مورات**" في ثياب من الريش الخاص بالقبائل الهندية وآخر في ثياب الأمير "**أوجين**" وأحدهم في ثياب "**شارل**" الأول يرفعه بعض الرسامين الشبان ويوضحون الفرق ما بين جيلين من الفنانين وكان القدامى جادين باردين

رؤوسهم مثل رؤوس عجائز. اهتمامهم بالمال. والآخرون كانوا مجرد صبية وتلاميذ صاخبين مفلوتي العيار ورغم سنواته الخمس والخمسين والمجد الذي ناله في المعهد فإن المثال "**كاوداد**" كان متنكرا في صورة جندي في سفينة كان عاري الكتفين وصدره مثل "**هرقل**" ولوحة مزج الألوان (**الباليتا**) تصطدم في ساقيه مستخدمها جعبة للسيف وهو يراوغ فارسا من عهد "**شومبير العظيم**" في مواجهة الموسيقار "**بوفان**" في زي مؤذن يعلن الحفل وقد ارتدى عباءته بالمقلوب وهو يقلد رقصة البطن مرددا عبارات بصوت حاد مثلما تفعل كودية الزار.

وقد أحاط الحضور هؤلاء المشاهير بدائرة أراحت الراقصين. وكان في الصف الأول "**ديشيليت**" صاحب الدار وقد تجهم وجهه تحت قلنسوة عالية فارسية وضاقت عيناه الصغيرتان وبرز أنفه كالمنقار وابيضت لحيته وهو سعيد بمرح الآخرين ويتمتع بشكل كبير دون أن يبدو عليه ذلك.

كان المهندس "**ديشيليت**" من وجهاء باريس ومن الفنانين المعروفين منذ عشرة أو اثنى عشر عاما وهو رجل طيب جدا وشديد الثراء مع ولع شديد بالفنون وله ذلك المظهر المتحرر واحتقار للآراء التي كانت تقال له عن الرحلات والعزوبية وكان قد أقام مشروع خط سكة حديد من "**توريس**" إلى طهران. وفي كل عام حتى يرتاح من عشرة أشهر من التعب ومن قضاء الليالي تحت الخيام والانطلاق بالخيل فوق الرمال والأحراش، كان يأتي ليقضي أياما دافئة في ذلك الفندق في شارع "**روما**" المقام بتصميم فني ومؤثث على أن يكون قصرا صيفيا حيث يجمع فيه رجال الفكر والفتيات الحسان وهو يطلب من الحضارة أن تمنحه بضعة أسابيع مركزة مما صنعته تلك الحضارة واستساغه المجتمع المتحضر.

– لقد وصل "**ديشيليت**".

كان هذا هو الخبر الذي يسري بين المراسم فور رؤية رفع الستارة الضخمة من فوق واجهة الفندق الزجاجية كما يرفع الستار على المسرح، وهذا يعني أن الحفل بدأ وأنه سيقدم فيه لمدة شهرين الولائم والموسيقى والرقص والضجيج الذي سيطغى على طنين الحي الصامت من أوروبا الذي كان يتردد عليه المصطافون والسابحون في البحر.

ولـم يكـن "**ديشـيليت**" شخصيا مسؤولا عن العربدة الصاخبة في داره ليل نهار، وكان ذلك الساهر الذي لا يكل ولا يتعب كان يمتع الناس بخيالات يراقبها بعين باردة وشاردة مبتسمة، مثل المخدر بالحشيش ،ولكن بهدوء وفطنة لا مثيل لهما. وهو عندما يكون صديقا حميما يعطي بلا حدود. وكان يكن للنساء احتقار رجال الشرق ومع ذلك كان متسامحا ومؤدبا. وتلك النساء اللاتي يأتين إلى المكان يجذبهن ثروته والوسط الفاخر الخرافي والمرح. لم تنجح واحدة منهن في أن تصبح عشيقته أكثر من ليلة واحدة.

أضافت المصرية التنكر التي كانت تعطي تلك المعلومات إلى "**جوسان**".

– إنه على أية حال رجل طيب.

ثم قطعت حديثها لتصيح:

– ها هو ذا شاعرك!

– أين هو إذن؟

– أمامك في زي عريس القرية.

أطلق الشاب آهة تدل على الاستياء.. شاعره! هذا الرجل الضخم الذي يسيل منه العرق ويلمع متأنقا في سماجة بياقة قميصه المزيفة والصديرية المنقوشة بالزهور. عادت إلى ذاكرة الشاب الصرخات الكبرى في "كتاب الحب" الكتاب الذي لا يقرأه مرة إلا وازدادت ضربات قلبه من الحمى وهمهم بصوت عال:

– حتى تحب الرخام المتكبر لجسدك. أوه يا "**صافو**" لقد وهبت كل دماء عروقي.

استدارت بعنف وقد أصدرت زينتها البربرية الحديدية رنينا عاليا وسألته:

– ما الذي تقوله؟

لقد كانت أبياتا من "**لاجورنيري**" ودهش لأنها لا تعرفها. قالت بلهجة مقتضبة وإن ظلت واقفة، وقد قطبت حاجبيها تراقب الرقص:

– أنا لا أحب هذه الأبيات. تصبح على خير.

ثم اختفت. ظل الموسيقي المتجول المسكين مبهوتا.. تساءل ما الذي جرى لها؟ وما الذي قاله لها؟ أخذ يفكر ولم يعثر على إجابة وكان من الأفضل لو أنه ذهب لينام. التقط مزماره في حزن وعاد إلى الحفل الراقص أقل اضطرابا من رحيل المتنكرة

في زي الفلاحة المصرية والتي اضطرت لاختراق كل هذا الجمهور حتى تصل إلى الباب.

كان إحساسه بغموضها وسط العديد من اللوحات جعله يشعر بمزيد من الخجل. الآن لم يعد هناك من يرقص، وبعض الثنائيات هنا وهناك منهمكون في آخر ألحان الفالس الذي بدأ يخفت ومن بينهم "كاووال" الضخم وهو يدير رأسه وحوله كوفية من التريكو.

وخلال الزجاج الذي يغطي مساحة آخر القاعة وقد فتح مصراعاه على اتساعهما كانت هبات من هواء الصباح المشوبة ببخار أبيض تحرك أوراق النخيل وتطفئ شعلات الشموع.

اشتعلت النيران في سصباح صيني ورقي وانفجرت بقايا الشمع السائح من الشمعدانات في كل القاعة وحولها. وضع الخدم موائد صغيرة مستديرة تشبه تلك التي توضع في شرفات المقاهي، كان الجميع يتناولون عشاءهم هكذا في مجموعات من أربعة أو خمسة أشخاص في بيت "**ديشيليت**"، وكانت المجاملات في تلك اللحظات تجمع بين المدعوين.

صدرت صرخات ونداءات متوحشة آتية من سكان الضاحية ردا على ثرثرة فتيات الشرق.

انتهز "**جوسان**" فرصة الفوضى ليتسلل إلى باب الخروج عندما اعترضه صديقه الطالب وقد التمعت عيناه وغامتا: وقد حمل زجاجة شراب تحت كل ذراع وسأله.

-ولكن أين كنت؟ لقد بحثت عنك في كل مكان.. إن عندي مائدة نساء.. الصغيرة "**باشيليري ديه يوف**" وهي متنكرة في الزي الياباني كما تعرف.. لقد أرسلتني كي أحضرك.. تعال بسرعة.

ثم انطلق وهو يجري.

كان الموسيقي المتجول عطشان، إن سكر الحفل ألم به وحركات الممثلة الصغيرة المائعة التي كانت تلوح له عن بعد.. ولكن كان هناك صوت عاقل ونطيف يهمس بالقرب من أذنه: "لا تذهب إليها". وتلك التي كانت منذ قليل معه كانت موجودة هناك أمامه تسحبه إلى الخارج وتبعها دون تردد. لماذا؟ ليس بسبب جاذبية هذه المرأة. إنه بالكاد نظر

إليها والأخرى التي هناك تناديه، وقد ثبتت سكاكين من الصلب في شعرها وهي تعجبه أكثر.. ولكنه أطاع الإرادة العليا للمرأة التي تغلبت على إرادته واستجاب لعنف الرغبة التي لا تقاوم.. "لاتذهب إليها".

وفجأة وجدا نفسيهما على رصيف الشارع شارع روما. وكانت العربات تنتظر في الصباح المعتم. والكناسون والعمال يذهبون إلى أعمالهم وهم ينظرون إلى تلك الدار الاحتفالية وهي تضج بالصيحات والضحكات؛ ثم ينظرون إلى هذا الثنائي الذي فاض به الحفل وهما متنكران وكأنهما يحتفلان بعيد الثلاثاء السمين في وسط الصيف سألته: هل تذهب إلى بيتك أم إلى بيتي؟ ودون أن يفكر في السبب ظن أن في بيته أفضل وأعطى عنوانه البعيد إلى سائق العربة، وخلال الطريق الذي كان طويلا تبادلا القليل من الكلام. فقط أمسكت بإحدى يديه بين يديها والذي أحس أنهما صغيرتان جدا ومثلجتان ولولا ضغطها البارد على كفه لظن أنها نائمة، وقد أسندت ظهرها على ظهر أريكة العربة بينما تسلل ضوء أزرق على وجهها. توقفا في شارع "جاكوب" أمام فندق الطلبة. كان صعود أربعة طوابق مسافة عالية ومرهقة. قال لها وهو يضحك.

– هل تحبين أن أحملك؟

ولكن كان صوته منخفضا بسبب أن البيت كان نائما. شملته بنظرة رقة مشوبة بالاحتقار نظرة خبرة تعني ببساطة "يالتصغير المسكين"!

وفي الحال تملكته فورة أهل الجنوب واندفاع الشباب ورفعها كانطفلة؛ لأنه كان صلبا وبارز العضلات رغم بشرته الشقراء التي تصلح لفتاة ثم صعد بها الطابق الأول في نفس واحد وهو سعيد بهذا الحمل الذي التفت ذراعاه البيضاوان حول عنقه.

طالت مدة صعود الطابق الثاني، دون شك كانت المرأة قد استسلمت مما زاد من ثقلها، وكان الحديد الذي زينت به ربطة رأسها يدخل شيئا فشيئا داخل لحمه.

وفي الدور الثالث أخذ يلهث ويبطئ مثل حصان البيانو وقد خانته أنفاسه، وهي تهمس في سعادة وقد أرخت رموشها:

– أوه يا صديقي كم هذا رائع.. كم أحس بالسعادة... والدرجات الأخيرة التي صعدها واحدة بعد الأخرى تهيئ له أنه سلم ضخم حيث جدرانه ودرابزينه ونوافذه

الضيقة تدور حوله كاللولب الذي لا نهاية له. لم تعد امرأة التي يحملها وإنما شيء ثقيل ورهيب يخنقه والذي راودته الرغبة باستمرار في أن يتركها تسقط في غضب مخاطرا بأن يحطمها.

عندما وصلا إلى مكان البسطة وقالت وهي تفتح عينيها: أخيرا! وفكر هو أيضا نفس الشيء ولكنه لم يجرؤ على البوح به، كان شاحبا شحوب الموت، ويداه على صدره الذي أوشك على الانفجار.

الفصل الثاني

احتفظ بها يومين، ثم رحلت تاركة انطباعا من الرقة على الفراش الناعم وليس أي معلومات أخرى عنها سوى اسمها وعنوانها وهذه الكلمة "عندما تريدني اتصل بي وسأكون دائما مستعدة.

"**فاني لوجراند**"

٦ شارع لـ"**اركاد**"

وضع البطاقة على المرآة بين الدعوة لآخر حفل راقص لرجال الأعمال الأجانب وبين البرنامج المطبوع للسهرة الصاخبة عند "**ديشيليت**" وهما المرتان الوحيدتان اللتان خرج فيهما إلى الحياة الاجتماعية في العام. وذكرى تلك المرة ظلت معلقة حول المدفأة بذلك العطر الرقيق والذي تبخر بنفس سرعة تبخرها دون أن يشك "**جوسان**"، وهو رجل جاد وعامل في ممارسات باريس، وقد راودته الرغبة في إعادة تلك المغامرة العاطفية في مساء يوم كان الامتحان للوزارة سيقع في نوفمبر، ولم يكن يتبقى أمامه سوى ثلاثة أشهر ليستعد له. وبعدها ستأتي مرحلة من ثلاث أو أربع سنوات في العمل في المكاتب الخاصة بالخدمات القنصلية ثم بعد ذلك سيذهب منها إلى مكان بعيد جدا، وكانت فكرة نفيه هذه لا تفزعه لأن هذا التقليد عند آل "**جوسان دارماندي**" وهي عائلة قديمة من "**أفينيون**" تريد أن يواصل أكبر الأبناء ما كانوا يسمونه المهنة وقد اكتسب الخبرة والسمعة والحماية ممن سبقوه، وبالنسبة لهذا الريفي لم تكن "**باريس**" سوى المرحلة الأولى لمشوار طويل وهو ما كان يمنعه من عقد أي علاقة جادة في الحب أو الصداقة. بعد أسبوع أو اثنين من حفل "**ديشيليت**". وفي المساء الذي كان فيه "**جوسان**" قد أضاء المصباح وأعد كتبه للعمل سمع طرقا خجولا وعندما فتح الباب وجد امرأة في زينة أنيقة راقية وفاتحة. ولم يتعرف عليها إلا عندما رفعت وشاحها عن وجهها وقالت:

– هأنت تراني.. إنها أنا وقد عدت!

ثم فاجأت نظراته القلقة والمتضايقة والتي ألقاها على العمل الذي كان في انتظاره.

– أوه.. هل أزعجك.. أنا أعرف ما هو..

خلعت قبعتها وتناولت كتيبا عن الجولة حول العالم، وجلست ولم تتحرك وقد

انهمكت متظاهرة بالقراءة، ولكن في كل مرة يرفع عينيه نحوها تتلاقى نظراتهما .في الحقيقة كان يقاوم بعنف رغبته في أن يحتويها بين ذراعيه خاصة وهي في ملابسها الباريسية الأنيقة بدلا من ملابس الفلاحة المصرية. رحلت في الصباح في ساعة مبكرة ثم عاودت الرجوع أكثر من مرة في الأسبوع، ودائما ما تدخل بنفس الطريقة ونفس الشحوب ونفس برودة اليدين ورطوبتهما ونفس الصوت الذي يخنقه الانفعال. وكانت تقول له:

– أوه.. أعرف جيدا أنني أضايقك وأتعبك وكان علي أن أكون أكثر كرامة وعزة نفس.. آه لو صدقتني.. في كل صباح أذهب إلى بيتي وأقسم ألا أحضر بعد ذلك ولكن الأمر يتغلب علي في المساء وكأنه نوبة من الجنون.

كان ينظر إليها وهو مبتهج وهو مندهش مما يجده في أعماق تلك المرأة هذا الإلحاح العاشق، وتلك اللاتي عرفهن حتى الآن كن فتيات الحانات والمطاعم، أو في ساحات التزحلق على الجليد وأحيانا ماكن شابات وجميلات إلا أنهن دائما ماكن يتركنه وهو يشعر بالنفور من ضحكاتهن الساذجة وأيديهن كطاهيات متورمة وتفوح منها رائحة مكونات الطعام.

وأحاديثهن والذي كان يضطر إلى فتح النوافذ بعد رحيلهن. وفي إيمانه البريء كان يظن أن كل فتيات المتعة متشابهات ولذلك دهش عندما وجد في "**فاني**" رقة وتحفظ وامرأة حقيقية بما لديها من تفوق على البرجوازيات اللاتي عرفهن في الريف عند أمه. إنها فنانة تجعل الحديث مثيرا وممتعا ثم إنها موسيقية تغني بمصاحبة البيانو بصوت رنان من طبقة الكنتر التو وإن شابه التعب غير متناسق ولكن مدرب، وقدمت بعض الألحان الرومانسية لـ"**شوبان**" و"**شومان**" وأغاني البلد وألحانا شعبية .

كان "**جوسان**" مجنونا بالموسيقى ذلك الفن الكسول والذي يملأ جو المكان الذي يحبه هؤلاء الذين يعيشون في بلده. وكان يتحمس للنغمة في ساعات العمل ويحيطه براحة لذيذة، وموسيقى "**فاني**" كانت تسعده بشكل خاص ودهش أنها لا تعمل على مسرح، وعلم هكذا أنها غنت قصائد. ولكن ليس لمدة طويلة لأنها سرعان ما كانت تتضجر ،ثم إنها لم تدرس شيئا يسمح لها بأن تعمل على المسرح وليست متكبرة ولا كاذبة، فقط هناك سر معين عن حياتها بالخارج... سر احتفظت به حتى في ساعات

العاطفة والذي لم يحاول عشيقها أن يخترقه وهو لا يحس بنفسه غيورا أو فضوليا. وكان يدعها تحضر في الساعة المحـدة دون حتى أن ينظر إلى الساعة ذات البندول وهو لايزال يتجاهل الإحساس بالانتظار.

ومن حين لآخر كان الصيف في ذلك العام جميلا جدا، وقد ذهبا بحثا عن اكتشاف تلك المتع والمباهج في أركان الجوار "**باريس**" والتي كانت تعرف خريطتها بدقة وتفاصيل، وقد اختلطا في انطلاقات عديدة ومضطربة وفي محطات الضواحي وهما يتناولان أحيانا غذاءهما في أي كباريه عند حافة الغابة أو الماء متجنبين بعض الأماكن المعينة المطروقة كثيرا. وفي يوم اقترح عليها الذهاب إلى "**فو دي سيرني**" فردت بأنها لا تريد الذهاب إلى هناك لأن هناك يوجد الكثيرون من الرسامين وعدم الاستلطاف الذي أظهرته نحو الفنانين جعله يتذكر أنها كانت مبادرة حبهما. وعندما سألها ردت:

– إنهم منحرفون ومعقدون يحكون كلهم دائما عن أشياء غير موجودة.. لقد سببوا لي ضررا بليغا.

وقد احتج هو قائلا:

– ولكن الفن جميل ولا مثيل له في تجميل الحياة.

– هل تفهم يا صديقي ما هو جميل؟ أن تكون بسيطا ومستقيما مثلك وأنت في العشرين من عمرك وتعرف كيف تحب.

عشرون عاما! إنه لا يعطيها هي أيضا أكثر من هذه السن وهو يراها حية ومتألقة، وتضحك من كل شيء وتعتبر كل شيء جيدا. وفي أمسية وهما في "**سان كلير**" في وادي "**شيفريز**" وصلا ليلة العيد ولم يعثرا على حجرة وكان الوقت متأخرا ويلزم لهما مكان في الغابة في الليل حتى يلحقا بالقرية التالية، وأخيرا قدموا لهما سريرا من أسرة المخيمات ظل خاليا في طرف مخزن ينام فيه البناؤون فقالت له وهي تضحك:

– هيا بنا إلى هناك.. إن ذلك يذكرني بأيام فاقتي.

لقد عرفت إذن الفقر والعوز. تسللا وهما يتحسسان طريقهما بين بقية الأسرة المشغولة في المخزن الذي تضيئه سهارة في وكر في نهاية القاعة. وظلا طوال الليل يكتمان ضحكاتهما وقبلاتهما وهما يسمعان شخير وتأوهات التعب من رفاقهما.

وعند الفجر انفتحت فتحة صغيرة أسفل البوابة الضخمة وتسللت أشعة الشمس

لتضيء الأسرة الحديدية بينما صاح صوت ناعس آه يا عصابة..! وبعدها اندلعت في المخزن الساكن جلبة مختلفة من التثاؤب والتمطي والسعال الشديد.. باختصار ضجة حجرة استيقظ قاطنوها وخرج الرجال واحدا وراء الآخر دون أن يساورهم شك في أنهم كانوا يجاورون في نومهم فتاة حسناء.

نهضت هي بعدهم وارتدت ثوبها وهي تحاول تسوية شعرها في سرعة ثم قالت:

– ابق في مكانك سأعود.

وعادت بعد فترة قصيرة ومعها حزمة كبيرة من الزهور الحقلية مبللة بالندى وقالت وهي تنشر على السرير ذلك العطر المنعش الذي أنعش الجو حولهما:

– دعنا ننام.

لم يسبق أن بدت في عينيه في مثل جمالها في تلك اللحظة وهي تدخل المخزن ضاحكة في الفجر وشعرها الصغير متطاير ومعها تلك الأعشاب البرية.

وفي مرة أخرى تناولا غداءهما في "**فيل دافريل**" أمام البركة. في صباح خريف يحيط فيه الضباب بالماء الساكن وطرف الغابة أمامهما وهما بمفردهما في حديقة المطعم وأخذا يتناولان السمك. وفجأة سمعا صوتا يخرج من الخميلة التي وضعت بجوارها مائدتهما وكان الصوت قويا وحادا:

– أخبراني يا هذان! متى ستنتهيان من ثرثرتكما، ثم ظهر وجه يشبه وجه الأسد وشارب أحمر للنحات "**كودال**" من الفتحة في جدار الشالية.

– لدي رغبة أن أهبط لأتناول الطعام معكما إنني أتضجر مثل البومه فوق الشجرة.

لم ترد "**فاني**" وقد بدا عليها الضيق الواضح من هذا اللقاء، أما هو على العكس قبل بسرعة يحدوه فضول وفخر أن يكون الفنان العظيم معهما على مائدة واحدة.

كان "**كودال**" فاتنا في مظهره المهمل في حين أن كل شيء كان على مقاسه مضبوط من رباط العنق المصنوع من الكريب الصيني الأبيض ليفتح لون بشرته المغطاة بالتجاعيد والندب حتى السترة الضيقة على مقاسه الذي لايزال فارعا وعضلاته البارزة. بدا له "**كودال**" أكثر كهولة عنه في حفل "**ديشيليت**" التنكري، ولكن الأمر الذي أدهشه هو لهجة الخصوصية والود التي استخدمها مع عشيقته وكان يناديها باسم الشهرة "**فاني**" ويستخدم معها صيغة المخاطب المفرد. قال وهو يجلس ويفرد فوطته على المائدة:

– أنت تعلم أنني أرمل منذ خمسة عشر يوما لقد رحلت "**ماربا**" مع "**موراتور**" وقد أراحني ذلك في البداية، ولكن هذا الصباح عند دخولي مرسمي أحسست بالكسل والتنبلة مثل الجميع ومن المستحيل أن أعمل. ولذلك تركت مجموعتي وأتيت للغداء في الريف.. يالها من أفكار سيئة عندما يكون المرء بمفرده.. أحيانا ما أنوح وأبكي في وكري كم هو رائع الشباب! إن كليكما شاب!

قالت وهي تضحك وكانت ضحكتها لا تدل على حقيقة سنها وإنما على المرأة عندما تُحب وتُحَب:

– أيها المنافق!

همهم "**كودال**" وهو يفحصها وهو يأكل:

– مدهشة.. مدهشة! خبريني إذن يا "**فاني**" هل تتذكرين عشاء هنا... لقد كان ذلك من وقت بعيد. لقد كنا أنا و"**ايزانو**" و"**دي جوا**" وبقية العصابة.. وسقطت في البركة وقد ألبسناك زي الرجال بعباءة حارس الصيد وكان منظرك جميلا جدا.

ردت عليه ببرود ودون أن تكذب لأن هذه المخلوقات تغيرت وهي الآن لا يهمها سوى حبها الحالي وأي ذكرى أخرى لا تهمها.

– أنا لا أذكر شيئا مما تقول.

أما "**كودال**" فكان على العكس. فقد شرح بالتفصيل كشاب قوي عن مغامراته العاطفية ورحلاته في الريف ورقصات الأوبرا ومعاركه وغزواته النسائية، ولكنه عندما انتبه إليهما وجد أنهما لا يصغيان إلى أي كلمة مما قال، وهما مشغولان بتناول حبات العنب يقدمها كل منهما للآخر. نهض وألقى بفوطته وهو يصيح:

– اللعنة على كبر السن.. أحضر الغذاء لي أيها الأب "**لانجلوا**"!

ثم ابتعد حزينا وهو يجر قدميه وكأنه مصاب بمرض مزمن. أخذ العاشقان فترة طويلة وهما يتابعان الجسد الفارع الطول الذي انحنى تحت أوراق الشجر الذهبية اللون همهمت "**فاني**" بلهجة طيبة وشفقة:

– يا للمسكين "**كودال**"!

ولما أحس "**جوسان**" من أن هذه الفتاة التي تعمل موديلا يمكن أن تستمتع من آلام وعذابات "**كودال**" وتفضل على هذا الفنان الكبير. رساما ضئيلا بلا موهبة يدعى

"**موراتير**" لم يكن لديه سوى شبابه. **أخذت تضحك وهي** تردد: برىء وساذج.

وفي مساء ذلك اليوم نام "**جوسان**" في بيت عشيقته التي كانت تزعجه بهذا الموضوع منذ ثلاثة أشهر وتقول له:

– ولكن لماذا لا تريد ذلك؟

– لست أدري.. إن ذلك يضايقني.

– ولكن مادمت أقول لك إنني حرة وبمفردي..

وقد ساعدها تعب رحلة الريف على أن تسحبه إلى شارع "**أركاد**" بالقرب من المحطة وفي الدور الأرضي من منزل بورجوازي المظهر فتحت لهما الباب خادمة عجوز ترتدي قلنسوة فلاحة وقد بدت فظة وخشنة. قالت لها "**فاني**" وهي تقفز لتتعلق برقبتها:

– صباح الخير يا "**ماشوم**".. هل تعرفين هذا هو صديقي.. مليكي.. لقد أحضرته بسرعة أضيئي كل شيء واجعلي البيت جميلا.

ظل "**جان**" بمفرده في صالون صغير له نوافذ منخفضة مغطاة بنفس الحرير الأزرق العادي الذي يكسو الأرائك وبعض الأثاث اللاكيه وعلى الجدران كانت بعض اللوحات لمناظر طبيعية تضفي البهجة على الحجرة وكلها تحمل عبارات الإهداء: إلى "**فاني لوجراند**".. أو إلى عزيزتي "**فاني**". وفوق المدفأة تمثال نصفي من الرخام لـ"**صافو**" من صنع "**كودال**" والذي سبق لـ"**جوسان**" منذ طفولته أن رأى مثله في مكتب عمل والده. وعلى ضوء الشمعة الوحيدة الموضوعة بالقرب من قاعدة التمثال وجد التشابه الشديد بين هذا العمل وعشيقته وهي في شبابها. وكان الوضع مألوفا لديه وعندما وجدته "**فاني**" في حالة تأمل أمام التمثال الرخامي قالت له بلهجة شاردة:

– يوجد به شيء مني.. أليس كذلك؟ إن موديل "**كودال**" تشبهني.

ثم صحبته في الحال إلى حجرتها حيث بدلت "**ماشوم**" الأغطية والمفارش وأشعلت الشمعدانين وكانت حجرة امرأة تستعد داخلها للخروج إلى حفل راقص. قالت ضاحكة:

– إنني أريد أن أتعشى هنا.

لم يسبق لـ"**جان**" أن رأى في حياته أثاثا فاتنا ومثيرا. لقد كان أثاث حجرة أمه وأخواته البنات لا يعطي إيحاء مثل هذا العش... كم هو لذيذ مداعبة ضوء الشمعدان

وانعكاس لهيب المدفأة على مرايا الدواليب، وشعر بالفرق الشديد بين الراحة داخل هذا العش بعد سباقهما وسط الحقول وغبار وطين الطرق الريفية وبين هذا الهدوء والراحة الساحرة.. ولكن الأمر الذي لم يجعله يهضم هذه الراحة الفاتنة باعتباره رجلا ريفيا هو تجهم الخادمة ومزاجها العكر ونظراتها المتشككة التي ثبتتها عليه لدرجة أن "فاني" قالت لها:

– اتركينا الآن يا "ماشوم".. إننا سنخدم أنفسنا بأنفسنا.

ولما صفقت الخادمة الفلاحة الباب وهي تخرج قالت له "فاني":

– لا تعرها أي انتباه إنها حانقة علي لأنني أحبك لهذه الدرجة وهي تقول إنني أهدر حياتي.. إن أهل الريف رجعيون! إن طهيها مثلا أفضل منها.. هيا تذوق فخذ الأرنب هذا.

أخذا يأكلان من طبق واحد وهما ملتصقان ويتحدثان عن ذكرى أول لقاء لهما في دار "ديشيليت" قالت:

– أوه.. أنا عندما رأيتك تدخل أحسست برغبة شديدة فيك.. أردت أن آخذك في الحال حتى لا تستولي عليك الأخريات.. وأنت ماذا ظننت عندما رأيتني؟

لقد أفزعته في البداية ثم أحس بالثقة التامة بها وهي معه، قال لها:

– في الحقيقة لم أسألك قط.. لماذا غضبت؟ أمن أجل بيتين من شعر "لاجورنيري".

تجهمت وقطبت حاجبيها بنفس الطريقة التي فعلتها معه وقتها ثم هزت رأسها وقالت:

– إنها حماقات، دعنا لا نتحدث عنها.. أتعلم أنني أيضا أصبت بالخوف.. لقد أردت أن أفلت بجلدي وأن أتحكم في نفسي ولكن لم أستطع.. ولن أستطيع أبدا.

– أوه.. لن تستطيعي أبدا..!

– سترى!

أحس ببعض الخوف في لهجة التهديد التي قالت بها عبارتها الأخيرة وأراد أن يخلص نفسه ولكن لماذا يفعل؟ إنه يحس بسعادة في دفء تلك الغرفة المثيرة.

وفي الصباح استيقظ فزعا على صوت "ماشوم" وهي تصرخ عند طرف السرير وفي كلام واضح:

- إنه هنا . . ويريد الحديث معك يا "**فاني**" .

- كيف يريد . .؟ أنا لست في بيتي . . لماذا إذن سمحت له بالدخول .

قفزت في غضب ثم هربت من الحجرة شبه عارية وقالت له :

- لا تتحرك يا صديقي . . إنني عائدة .

ولكنه لم ينتظرها ولم يحس بالهدوء إلا عندما نهض من الفراش بدوره وارتدى ملابسه ووضع قدميه في حذائه البوت . جمع ملابسه سمع ضجة جدال رهيب مكتوم في الصالون . سمع صوت رجل متضايق في البداية، ثم ارتفع الصوت تقطعه شهقات بكاء ثم تغير إلى صوت آخر لم يتعرف عليه في الحال . . صوت خشن وقاس ومليء بالكراهية والكلمات المقذعة تشبه شجار فتيات الحانات والمطاعم، لقد انحدرت المرأة التي أحبها لرقتها ورفعتها إلى مستوى تلك الفتيات اللاتي كان يحتقرهن فيما مضى .

دخلت الحجرة وهي تلهث وهي تلف شعرها الأشعث بحركة عنيفة وقالت :

- أليس حيوانا ذلك الرجل الذي يبكي؟

وعندما شاهدته واقفا مرتديا ملابسه صرخت في غضب عارم :

- هل نهضت . . هيا عد إلى النوم في الحال . .

ثم رقت لهجتها . وقالت :

- لا . . لا ترحل . . لا تستطيع أن تذهب هكذا ثم إنني واثقة بأنك لو رحلت لما عدت ثانية .

- ولكن سأفعل . . لماذا؟

- أقسم أنك لست غاضبا وأنك ستأتي ثانية أوه . . إن هذا ما أعرفه عنك!

أقسم بما تريد ولكنه لم يعد للنوم ثانية رغم توسلاتها وتأكيدها أنها في بيتها وحرة في حياتها وأفعالها . وأخيرا بدا أنها استقرت على أن تراه يرحل وصحبته حتى الباب، وقد تخلت عن طباع النمرة بل على العكس كانت تحاول أن تسترضيه . سألته :

- متى إذن؟

كانت تنظر في أعماق عينيه كان سيرد ويكذب دون شك من شدة رغبته أن يكون في الخارج عندما منعته رنة جرس الباب فجأة خرجت "**ماشوم**" من المطبخ ولكن "**فاني**" أشارت إليها بما يعني لا تفتحي وظل الثلاثة في مكانهم بلا حركة ولا كلام .

سمعوا شكوى **مكتومة، لم صوت** حفيف خطاب يدس من عقب الباب وأقدام تهبط ببطء الدرج. **قالت لحبيبها:**

– عندما أقول لك إنني حرة فأنا صادقة .

ثم ناولته الخطاب الذي فتحته.. لقد كان خطاب حب فقيرا وضيعا وجبانا كتب بالقلم الرصاص على عجل على مائدة مقهى وفيه يطلب التعس العفو والرحمة على جنونه في الصباح ومعترفا بأنه ليس له أي حق عليها إلا ما تسمح هي به. ويتوسل إليها متضرعا ألا تنفيه من حياتها بلا عودة واعدا بقبول أي شيء مصمما على ألا يفقدها.. يا إلهي.. كيف يفقدها!

قالت وهي تضحك ضحكة مغتصبة جعلت "**جان**" يعتبرها قاسية القلب:

– هل صدقت؟

لم يكن يعرف بعد أن المرأة التي أحبها لا اهتمام لها سوى حبها وأن كل قواها ونشاطها وعطفها وشفقتها وإخلاصها تذوب كلها لصالح كيان واحد.. رجل واحد..

– أنت تسخرين مني. إن هذا الخطاب رهيب ومثير للأعصاب.. هيا أخبريني لماذا طردته؟

– لم أعد أرغب فيه.. أنا لم أعد أحبه.

– ومع هذا هو حبيبك.. لقد صنع لك الفخامة التي تعيشين فيها والتي عشت فيها دائما.

قالت له بلهجة صريحة:

– يا صديقي.. عندما لم أكن أعرفك كنت أعتبر كل ذلك جيدا بالنسبة لي.. والآن أصبح ذلك إرهاقا وعارا. وقد فاض بي الكيل منه أوه.. إنني أعرف أنك ستقول لي إنك لست جادا وأنك لا تحبني. ولكن هذا هو شاغلي وقضيتي شئت أم أبيت فإنني سأجبرك على أن تحبني.

لم يجب واتفق على موعد في اليوم التالي ثم أفلت بجلده تاركا بعض الدراهم لـ"**ماشوم**" لقد أصبح الأمر بالنسبة له منتهيا الآن. بأي حق يسبب الاضطراب في حياة تلك المرأة وما الذي يمكنه أن يقدمه لها مقابل أن يتسبب في ضياعها؟

كتب لها كل ذلك. في نفس اليوم وبمنتهي الرقة والإخلاص قدر المستطاع ولكن دون

أن يعترف لها بأن علاقتهما ليست سوى نزوة لطيفة... لقد أحس بأنه تخلص من شيء عنيف وغير صحي عندما سمع نشيج وبكاء ذلك العاشق المخدوع.

لقد كان في ذلك الصبي الكبير الذي دفع بعيدا عن "**باريس**" من وسط الريف؛ بعض الخشونة الأبوية والرقة الأموية الذي كان يشبهها وكأنه صورة منها. ويضاف إلى ذلك كحماية له ضد الانغماس في الملذات مثلا في عمه الذي أدت فوضاه وجنونه إلى إفلاس عائلته تقريبا وعرضت اسمه للخطر.

إنه العم "**سيزار**".. وكان يكفي ذكر ذلك الاسم والمأساة العائلية التي تثيرها ذكراه لأن يطلب من "**جان**" التضحيات الرهيبة مثل التضحية بقصة الحب القصيرة التي لم يعطها أي اهتمام. ومع ذلك فقد كان من الصعب قطع تلك العلاقة أكثر مما كان يتصور.

لقد صرفها رسميا ولكنها كانت تعود دون أن يثنيها عن عزمها رفضه أن يراها ولا الباب المغلق. ولا ما كتبته له تقول: "ليس عندي اعتزاز بالنفس وكانت تراقب ساعات تناوله الطعام في المطعم وتنتظره أمام المقهى الذي كان يقرأ فيه جرائده. وعندما يكون في صحبتها كانت تكتفي بأن تتبعه وتراقب اللحظة التي يظل فيها وحيدا. كانت تقول:

– هل تريدني في هذا المساء؟ لا؟ إذن ليكن ذلك في مرة قادمة.

ثم تذهب في رقة تاركة حبيبها مع تأنيب الضمير على قسوته وإذلاله ومن الأكاذيب التي لا يكل من ترديدها في كل مرة:

– إن الأمتحان يقترب.. والوقت ينقصني.. فيما بعد إذا كان ذلك لايزال يناسبها.

ولسوء الحظ مر الامتحان وسقط "**جان**" مريضا بالذبحة الصدرية في دهليز الوزارة إنه لا يعرف أحدا في "**باريس**" فيما عدا بعض الطلبة من مقاطعته والتي أدت علاقته المرهقة بـ"**فاني**" إلى تباعدهم عنه وتفرقه عنهم ثم إنه يلزمه هنا ما هو أكثر من إخلاص عادي، ومنذ المساء الأول من مرضه كانت "**فاني لوجراند**" هي التي استقرت بالقرب من فراشه لا تغادره عشرة أيام وهي ترعاه دون كلل ولا خوف ولا نفور، وكانت متيقظة مثل أخت حارسة وهي تدلله في رقة في ساعات الحمى التي كانت تعود به إلى تصرفات الطفولة وجعلته يسميها بخالته "**ديفون**" وكان يقول شكرا يا خالتي "**ديفون**" عندما

يحس بيدي "**فاني**" على رطوبة جبينه المغطى بالعرق.

– لست "**ديفون**" وإنما أنا.. أنا أسهر عليك. لقد أنقذته من علاج الموظفين ومن إطفاء الأنوار بطريقة مخيفة ومن المشروبات الساخنة التي تعد في حجرة البواب. لقد كان في رعايتها الحانية ولم تكن تنام سوى ساعتين على الأريكة.. أريكة في فندق الحي أريكة مخلخلة الأرجل مثل دكك أقسام الشرطة. سألها ذات يوم:

– ولكن يا عزيزتي "**فاني**" ألن تذهبي أبدا إلى بيتك؟ أنا أحسن الآن.. يجب أن تطمئني "**ماشوم**".

أخذت تضحك. إن "**ماشوم**" تقضي أسعد أوقاتها الآن، لأن البيت أصبح لها بأكمله. لقد باعت كل شيء.. الأثاث والثياب المستعملة ومخزن الألبان أيضا. لم يبق لها سوى الثوب الذي ترتديه وبعض الملابس الداخلية الرقيقة أنقذتها خادمتها، والآن لو طردها صاحب البيت لكان مصيرها الشارع.

الفصل الثالث

– هذه المرة لقد وجدتها.. في شارع "**امستردام**" في مواجهة المحطة. إنها مكونة من ثلاث حجرات فسيحة وشرفة.. وإذا شئت سنذهب لنراها بعد خروجك من الوزارة، إنها عالية في الدور الخامس.. ولكنك ستحملني لقد كان جميلا– ألا تذكر ذلك!

كانا معا في حجرة مؤقتة بفندق وسط مجموعة من الحي الشهير بانحطاط الأخلاق فيه، وحيث الحوائط الفاصلة بين الحجرات تشبه الورق المقوى وتشغلها أسر فقيرة، وقد أصبحت الحياة لا تحتمل ربما كانت هي تتحملها ولكن مع "**جـان**" فالأمر مستحيل. ولكن رقة الحبيب تحولت إلى وحشية وكانت الأسر في الليل تشعره بالضيق والعار وأصابه إحساس من الحزن والنفور وطعم حياة القرد في قفص حديقة الحيوانات، وكان كل ما يحيط به يشوه كل حركات وتعبيرات الحب البشري. وكان الطعم نفسه يضايقه. والوجبة التي كان مضطرا للذهاب لإحضارها مرتين في اليوم من شارع "**سـان ميـشـيل**" من قاعة مزدحمة بالطلبة وتلاميذ الفنون الرسامين والمهندسين المعماريين والذين وإن كانوا لا يعرفونه إلا أنهم كانوا يتعرفون على وجهه من سنة وهو يأكل في هذا المكان.

كان وجهه يحمر وهو يدفع الباب وقد أدار عينيه نحو "**فاني**" ويدخل بضيق عدواني من جميع الطلبة الشباب الذين يصحبون نساءهم. وكان يخشى كذلك أن يلتقي بأحد رؤسائه في الوزارة أو أي شخص من بلدته. ثم هناك المسألة الاقتصادية كانت تقول في كل مرة وهي تمسك فاتورة الحساب وتفحصها:

– كم هي غالية! لو كنا في بيتنا لاستطعت أن أدير المنزل ثلاثة أيام بهذا السعر!

– إيه.. حسنا ولماذا لا نفعل ذلك؟

ثم يبدأون البحث عن مسكن.. كان هذا هو الفخ.. لقد تملك الجميع نفس الرغبة بدافع من غريزة التملك وحب النظافة والعيشة الكريمة والشعور بالبيت والذي زرعه في داخلهما التربية الأسرية ودفء الدار.

لقد استؤجرت شقة شارع "**امستردام**" في الحال. وكانت ساحرة رغم أن حجراتها المرصوصة على خط واحد، وتطل هي والمطبخ والبهو على فناء خلفي رطب تتصاعد إليه

من مدخنة مطعم إنجليزي روائح مساحيق الغسيل والكلور. والحجرة المطلة على الهضبة كانت صاخبة تهتز ليلا ونهارا من مرور الشاحنات الضخمة والأوتوبيسات وصفارات الوصول والقيام وضجيج محطة الغرب، وقد غطى البخار والدخان الأسطح الزجاجية بلون الماء القذر. والفائدة الوحيدة هي معرفة القطار من بدايته حتى "**سان كلود**" و"**فيل دافري**" و"**سان جيرمان**". والمراسي الخضراء على ضفاف نهر السين تقع تقريبا أسفل شرفتهما لأنه كان لديهم شرفة واسعة ومزينة ولا تزال تحتفظ بفخامة السكان القدامى وقد زودت بتندة من الزنك المضلع. لامعة وحزينة تحت زحف أمطار الشتاء، ولكن تصبح رائعة في الصيف لتناول العشاء في الهواء الطلق كشاليه في الجبال.

انشغلا في التأثيث وكان "**جان**" قد قام بنصيبه في مشروع السكن والعمة "**ديفون**" التي كانت المسؤولة عن البيت فقد أرسلت المال اللازم وأعلنت في خطابها في نفس الوقت عن قرب وصول دولاب وكومودينو وكرسي ذي مساند ضخم التقطته من صالة المزادات من أجل الشاب الباريسي ابن أخيها.

وتلك الحجرة التي عاد ورآها في نهاية دهليز القلعة الصغيرة دائما غير مسكونة، ومصاريع نوافذها وأبوابها مغلقة دائما وعليها قضيب والباب مغلق بالترابيس. كان محكوما عليها بحكم وضعها التعرض لرياح الشمال العنيفة والباردة والتي تجعلها تتشقق مثل حجرة الفنار. وقد كوموا بداخلها الأشياء القديمة لكل الأجيال التي تعاقبت على البيت.

آه لو علمت "**ديفون**" إلى أي حد ستصبح راحة غفوة ما بعد الظهر غريبة وفريدة في ذلك المقعد الهزاز. وكم عدد التنورات والبلوزات والبنطلونات ستملأ أدراج الكومودينو! الذي كان على الطراز الإمبراطوري، ولكن تأنيب الضمير عند "**جوسان**" سرعان ما خبا واختفى في هذا الشأن وسط آلاف المسرات وفرحة الاستقرار.

كان من الممتع بعد انتهاء العمل في المكتب أن ينطلقا متشابكي الذراعين في بعض شوارع الضاحية لاختيار حجرة الطعام... البوفيه ومائدة الطعام وستة كراسي أو ستائر من قماش الكريتون المنقوش بالزهور من أجل النافذة والسرير. كان هو يقبل كل شيء بعينين مغمضتين، ولكن "**فاني**" كانت تفحص من أجلهما هما الاثنين، وتجرب المقاعد وتسحب فتحتي توسيع وتضييق المائدة وأظهرت خبرة شديدة في المفاصلة والشراء.

كانت تعرف البيوت التي تبيع أدوات المطبخ كاملة بسعر المصنع والتي تصلح لمنزل صغير. واشترت أربع حلات من الحديد والخامسة من المطلية بالميناء من أجل شراب الشوكولاتة في الصباح، ولم تشتر قط أي آنية من النحاس لما تحتاجه من جهد كبير في تنظيفها، واشترت أربعة أطقم أدوات مائدة معدنية مع كبشة للحساء ودستتين من الأطباق من الفخار الإنجليزي الصلب والمبهج في شكله. أما بالنسبة للأغطية والفوط والبشاكير وأغطية المائدة فقد كانت تعرف تاجرا وكيلا لشركة كبرى للمنسوجات وكان يبيع بالتقسيط المريح ولديه تصفيات وتخفيضات مثيرة. واكتشفت في شارع "**كليشي**" قرصة سرير فاخر شبه جديد ومتسع يمكن أن يسع سبعة أفراد.

وهو أيضا عند عودته من المكتب كان يحاول الحصول على بعض الأشياء ولكنه لم يكن يفهم في الفصال، لا يعرف أن يقول لا ولا أن يعود إلى البيت خالي اليدين. دخل في حانوت روبابيكيا ليشتري مزيتة سبق أن أشارت هي إليها من النوع العتيق، فاشترى بدلا من المزيتة التي بيعت نجفة صالون بدلايات غير ذات فائدة لأنه لا يوجد عنده صالون أصلا. قالت له "**فاني**" تسري عنه:

– سنضعها في الشرفة.

وحدث ولا حرج عن السعادة التي كانت تلفهما وهما يأخذان المقاسات الخاصة بأماكن الأثاث. والصرخات والضحكات المرحة عندما يكتشفان أنهما –رغم القوائم الدقيقة التي أعداها بكل الاحتياجات– نسيا شيئا ما. مثل مطحنة السكر.. هل يمكن أن يخلو بيت من مطحنة السكر؟

ثم تم شراء كل شيء وعلقت الستائر وركبت قبعات المصابيح والأباجورات.. كم كانت رائعة ليلة السكن ومراجعة دقيقة للحجرات الثلاث قبل النوم. وقاما بجولة تفتيشية وراء جولة لا يكفان خلالها عن الضحك.

ثم ذهب إلى الباب ليغلقه فقالت له:

– تأكد من إغلاق الباب جيدا ولنشعر بالأمان في بيتنا.

ثم أصبحت الحياة جديدة ولذيذة. وكان عند مغادرته عمله يعود مسرعا وهو متلهف على الوصول ويرتدي النعل ليجلسا أمام المدفأة. وفي الشارع المعتم كانت حجرتهما المضاءة تظهر براقة ودافئة وبهيجه بالأثاث العتيق "**البروفنسيال**" والتي عثرت

عليه "**فاني**" في أماكن بيع الأشياء المستعملة وكان الدولاب بشكل خاص يعتبر جوهرة من عصر "**لويس**" السادس عشر بمصاريعه المرسومة برسومات تمثل حفلات ريفية ورعاة يرتدون سترات مشجرة ورقصات الجياد على دقات الطبول. كان وجود تلك الأشياء التي كانت مألوفة أمام عينيه وهو طفل تلك الأشياء التي أصبحت قديمة غير متماشية مع الموضة، تذكره ببيت أبيه الذي خصص الديكور الداخلي الجديد بحيث يجعله يحس بلذة الحياة.

ما إن يرن جرس الباب حتى تأتي "**فاني**" وقد اعتنت بزينتها وفتنتها أو كما يقولون بالعامية على "سنجة عشرة" ومع ذلك كانت ترتدي مريلة لأنها كانت تقوم بنفسها بالطهي وتكتفي بخادمة منزل للقيام بالأعمال الكبيرة التي يمكن أن تشوه اليدين.

وكانت ناجحة جدا فهي تعرف عددا لا يحصى من الوصفات من الشمال والجنوب منوعة مثل رصيدها من الأغاني الشعبية وكانت ما إن ينتهي العشاء وتعلق مريلتها خلف باب المطبخ حتى تغني بصوتها الحاد "**الكوتتر التو**" المفعم بالعاطفة.

كان المطر يرن وهو يتساقط فوق زنك السقف، وكان "**جوسان**" يجلس فوق مقعده ذي المساند ويفرد ساقيه نحو النيران وهو ينظر أمامه إلى زجاج المحطة والموظفين وهم منحنون، يكتبون على ضوء عاكسات إضاءة بيضاء ضخمة.

هل كان سعيدا وقد ترك نفسه تهدهده حبيبته؟ لا ولكنه راض بالحب الذي يحيط به والحنان المستمر. كيف استطاع أن يحرم نفسه طويلا هكذا من هذه السعادة، هل كانت حياته لن تكون أكثر نظافة إلا عندما يتنقل من فتاة لأخرى معرضا حياته للخطر؟

لا خطر هناك فيما بعد. وخلال ثلاث سنوات عندما يرحل فإن الانفصال سيتم من تلقاء نفسه ودون هزة. لقد كانت "**فاني**" تعرف ذلك مقدما، وقد تحدثا في ذلك معا وكأنه موت محتم وبعيد ولكن لا مفر منه. ويبقى الحزن العظيم الذي سيتبقى عندما تعلم أسرته أنه لا يعيش بمفرده، وثورة الغضب من والده الرجل المتعصب القاسي والانفعالي.

ولكن كيف يمكن أن يعلموا بذلك؟ إن "**جان**"لا يقابل أحدا في "**باريس**". وأبوه القنصل كما يقولون عنه هناك في بلدته كان محجوزا هناك طوال العام لرعاية المزرعة والأملاك الضخمة فضلا عن معاركه الضاربة مع كرومه. والأم الكسيحة لا تستطيع أن

تقدم أي عمل أو مساعدة معتمدة على العمة "**ديفون**" في إدارة المنزل والعناية بأختيه الصغيرتين التوأم "**مارتا**" و"**ماري**" والذي أدى ميلادهما المفاجئ إلى سحب كل قوى أمهما. أما بالنسبة للعم "**سيزار**" زوج العمة "**ديفون**" فهو طفل كبير لا يمكن أن يترك ليسافر بمفرده.

وكانت "**فاني**" الآن تعرف كل الأسرة عندما كانا يتلقيان خطابا من "**كاستيليه**" والذي كان في ذيله أضافت الأختان التوأم بضعة أسطر بخط عريض، كانت تقرأ الخطاب من فوق كتفه وتشعر بالحنان معه، أما عن هديتها ووجودها فهو لا يعرف شيئا وهو لم يستعلم منها. لقد كان لديه عزة نفس وغرور طبيعي بشبابه فلا يحس بأي غيرة أو قلق. كانت حياته الخاصة ممتلئة وتركها تفيض وهو يفكر بصوت عال وينطلق في سعادته بينما تظل الحبيبة صامتة. وهكذا كانت تمر الأيام والأسابيع في هدوء سعيد، في حين أن أي لحظة تتعكر لظرف من الظروف كانت تجعلهما ينفعلان بشدة ولكنها كانت تعد نوعا من التعبير.

ظنت في نفسها أنها حامل وأعلمته بذلك في سعادة لم يستطع أمامها إلا أن يشاركها فيها. وفي أعماقه أحس بالخوف.. طفل! وهو في هذه السن! ما الذي سيفعله به؟

– هل يجب عليه أن يعترف به؟ ثم أي ضمان له مع مثل هذه المرأة.. ما هي التعقيدات التي ستتسبب في المستقبل؟

فجأة أحس بأن سلسلة القيد أصبحت ثقيلة وباردة ومبرشمة يصعب التخلص منها، وفي الليل لم يعد ينام أكثر منها. وكانا جنبا إلى جنب على السرير الفسيح يحلمان وعيونهما مفتوحة بمسافة آلاف الأميال التي تفصل بينهما.

ولحسن الحظ فإن هذا الإنذار الكاذب بالحمل لم يتجدد واستمرا في طريقهما في الحياة الثقيلة والمغلقة. ثم انتهى الشتاء وعادت الشمس الحقيقية وزاد جمال مسكنهما وازداد اتساعا بالشرفة والتندة المعدنية. وفي المساء كانا يتناولان عشاءهما تحت السماء المصبوغة باللون الأخضر، كان الشارع يرسل هبات ساخنة وكل ضجيج المنازل المجاورة ولكن أقل هبة ريح كانت تجعلهما ينسيان الوقت. وتذكر "**جان**" ليالي مشابهة على ضفاف نهر "**الرون**" وهو يحلم بالقنصليات البعيدة في بلاد حارة جدا وجسر البواخر

وهي ترحل حيث النسيم له أنفاس طويلة تهز ستائر الخيمة.

وعندما كانت تهمس له أحيانا هل تحبني؟ كان يعود من بعيد جدا يرد :

– أوه.. نعم.. إنني أحبك.

وهذا ما كان يجعلهما شبابا لأن في رأسيهما أمورا كثيرة.. وعلى نفس الشرفة المنفصلة عن شرفتهما بواسطة شبكة حديدية مجدولة تتسلق أفرع الزهور والورود ويقيم زوجان يدعيان السيد والسيدة "**هيتيما**" وكانا بدينين حيث كانت قبلاتهما تصدران أصواتا تشبه الصفعات. كانا من الغرابة بحيث إنهما كانا متشابهين تماما في الذوق والحجم والسن وكان من المؤثر الاستماع إلى هذين العاشقين اللذين اقتربا من نهاية مرحلة الشباب يغنيان في ثنائي بصوت منخفض وهما مائلان على درابزين الشرفة أغاني حب قديمة :

"ولكني أسمعها وهي تتنهد في الظل، إنه حلم جميل.. دعني أنام في الظل"

كانا يعجبان "**فاني**" وودت لو تعرفت عليهما بل أحيانا ما كانت الجارة وهي تتبادلان عبر الشبكة الحديدية السوداء ابتسامات امرأتين عاشقتين سعيدتين في الحب.. ولكن الرجلين ظلا جامدين ولم يحاول أي منهما الحديث مع الآخر.

عاد "**جان**" من رصيف "**دورسي**" بعد ظهر أحد الأيام عندما سمع من يناديه عند ناصية شارع "**رويال**" كان نهارا رائعا والأشعة دافئة حيث انتعشت "**باريس**" عند هذا المنحنى من الشارع والذي لا يوجد مثيل له في العالم عند غروب الشمس :

– تعال هنا أيها الشاب الجميل واحتس شيئا ما. إنه يمتع عينيّ أن أتأملك.

كانت ذراعان ضخمتان قد أحاطتا به لشخص جالس تحت تندة مقهى تحتل الرصيف بثلاثة صفوف من الموائد والمقاعد. ترك "**جان**" نفسه وقد أسعده أن يسمع حوله هذا الجمهور من الريفيين والغرباء وذوي السترات المخططة والقبعات المستديرة ويهمسون لبعضهم باسم "**كودال**". كان المثال جالسا على مائدة أمام زجاجة من شراب "**الابسنت**" تناسب طوله العسكري واحمرار وجهه كالضابط وبالقرب منه المهندس "**ديشيليت**" الذي وصل في الليلة السابقة ولايزال كما هو ملوح الوجه وشاحبا وقد تغضن خداه ويرفع عينيه، وأنفه يصدر نهنهة مما يدل على شراهته في تشمم "**باريس**" وما إن جلس الشاب. حتى أشار إليه "**كودال**" في غضب مضحك :

– هل هو مليح هذا الحيوان؟ من يقول إنني كنت في هذه السن وأفعل هذا.. أوه الشباب الشباب!

قال "**ديشيليت**" وهو يحبي بابتسامة من افتتن به صديقه:

– دائما هكذا إذن؟

– يا صديقي.. لا تضحك.. إن كل ما عندي هو أن أتابع الميداليات والصلبان والمعهد والزلزال وأنا مستطيع أن أقدم لك كل ما عندي مقابل شعره هذا وتلك الصبغة التي لونتها الشمس لبشرته.

ثم عاد إلى "**جوسان**" بسرعته المفاجئة:

– و"**صافو**" ماذا فعلت معها؟ لم نعد نراها بعد.

دارت عينا "**جان**" دون أن يفهم فأضاف المثال بنفاد صبر:

– إذن لم تعد معها؟ "**صافو**". هيا... "**فاني لوجراند**". من "**فيل دافري**"..

– أوه.. لقد انتهى ذلك من زمن بعيد. كيف استطاع أن يقول هذه الكذبة؟ هل كان دافعه هو الشعور بالعار وعدم الارتياح لهذا الاسم "**صافو**" الذي أعطوه لعشيقته.. والضيق من الحديث عنها مع رجال آخرين، وربما أيضا بسبب الرغبة في أن يعرف الأمور التي لم تقل عنها له.

سأل "**ديشيليت**" وهو شارد وقد أسكره أن يرى درج كنيسة "**لامادلين**" ودرجاتها مغطاة بالزهور وامتداد الشوارع بين صفين من الزهور.

– غريبة.. "**صافو**"؟ ألازالت تعيش؟

– أنت إذن لا تتذكرها في مقرك في العام الماضي! لقد كانت فاخرة في زيها كفلاحة وفي صباح هذا الخريف حيث وجدتها وهي تتناول الغذاء مع هذا الصبي الجميل في مطعم "**لانجولوا**" ومن يراها يظن أنها عروس في الخامسة من عمرها.

– وما سنها إذن؟ منذ الوقت الذي عرفناها..

رفع "**كودال**" رأسه ليفكر.

– أي سن؟ أي سن؟ كانت في السابعة عشرة عام ١٨٥٣ عندما استخدمت وجهها موديلا للتمثال ونحن الآن في ١٨٧٣... إذن احسبها وفجأة التمعت عيناه:

– آه لو رأيتها من عشرين سنة.. طويلة ورقيقة وفمها المقوس والجبهة العريضة

وذراعاها وكتفاها نحيفتان بعض الشيء، ولكن كل ذلك كان يتمشى مع حماس "**صافو**". والمرأة والعشيقة.. وكل ما في ذلك من متع. إنها قيثارة الحب كما يقول "**لاجورنيري**".

شحب وجه "**جان**" وسأل:

– ومن كان عشيقها ذلك أيضا؟

– "**لاجورنيري**"؟ إنني أعرفه جيدا وعانيت كثيرا منه.. أربعة أعوام ونحن نعيش سويا كزوج وزوجة.. أربع سنوات وأنا أحيطه برعايتي وأرهق نفسي حتى أفي بكل رغباته لقد كان سيدا للغناء والبيانو والفروسية، هل تسألني ماذا أعرف؟ عندما استطعت أن أصقله وأجعله رجلا مهذبا رقيقا وأرستقراطيا وأخرجه من المستنقع الذي التقطته منه في إحدى الليالي أمام صالة رقص "**راجاش**". كان هذا المتباهي بجماله الملمع يأخذها من عندي ويجلسان على مائدة أحد أصدقائي كل أحد.

أصدر صفيرا قويا وكأنه يحاول أن يطرد تلك الذكرى القديمة المليئة بالحقد والحب الذي لايزال يتردد في صوته ثم استطرد أكثر هدوءا:

– ثم إن نذالته لم تنفعه. إن حياتهما الزوجية لمدة ثلاث سنوات كانت جحيما. إن ذلك الشاعر ذا الألحان الداعرة كان جرذا وقاسيا ومجنونا. كان يجب أن تراه وهو يمشط شعره.. وعندما يذهب أحدهم إلى بيتهما تشاهد "**صافو**" وضمادة على عينها ووجهه مليء بخدوش أظافرها. ولكن الجميل هو عندما أراد أن يتركها تعلقت به كدودة العليق، وتبعته وظلت أمام بابه وهي تنتظره حتى ينام. وفي ليلة شتاء قارصة ظلت خمس ساعات أسفل بيت "**لافارسي**" الذي صعد إليه كل أفراد العصابة... شيء يثير الشفقة ولكن الشاعر المجنون ظل كالحجر لا يتزحزح عن موقفه إلى اليوم الذي أراد فيه أن يتخلص منها فأبلغ الشرطة. آه يا سيدي الجميل! وكنهاية نهائية مكافأة لتلك السيدة التي أعطته أسعد ساعات حياتها وشبابها وذكائها وجسدها أفرغ على رأسها مجلدا من الشعر الحاقد المليء بالتأوهات والشكوى وكان أجمل كتبه "**كتاب الحب**".

ثبت "**جان جوسان**" في مكانه كالتمثال وقد شد ظهره واستمع وهو يرتشف بالشفاطة الطويلة مشروبه المثلج الذي قدم له. لابد أنهم صبوا له في المشروب بعض السم الذي جمد الدماء في عروقه. كان يرتجف رغم الجو اللطيف وهو يرى في ذاكرته

ظلالا تأتي وتذهب، اختفت كل الضجة من "**باريس**" .. ولا شيء مما كان يقال عن تلك المائدة. الآن "**ديشيليت**" هو الذي كان يتكلم وهو الذي صب له السم.

– ياله من شيء وحشي تلك القطيعة .

كان صوته الهادئ الساخر قد اتخذ بعض الرقة في التعبير والشفقة التي لا حدود لها.

– لقد عشنا معا سنوات ونمنا معا واختلطت أحلامنا، وقال كل منا للآخر كل شيء ومنحنا بعضنا البعض كل شيء. واعتدنا على أشياء وطرق للحياة والكلام، بل تعود كل منا على ملامح الآخر لقد ارتبطنا من رأسينا إلى أقدامنا ثم فجأة انفصلنا.. تمزقت علاقتنا. كيف فعلوا هم.. من سبقوني..؟ كيف واتتهم الشجاعة؟ أما أنا فلم أستطع قط. نعم خدعت وتلوثت بالسخرية والقاذورات وبكت المرأة وهي تقول لي: "ابق.. إنني لن أذهب أبدا.." ولكني لم أذهب إليها وهكذا عندما أتخذ عشيقة فإن ذلك يكون دائما لليلة واحدة بدون غد.. أما الزواج فهو نهائي وأكثر نظافة.

– لا غد.. لا غد...! أنت تتحدث عن ذلك براحتك.. هناك نساء لا يحتفظ المرء بهن سوى ليلة واحدة.. هذه مثلا..

قال "**ديشيليت**" بابتسامة مسطحة اعتبرها العاشق المسكين كريهة:

– أنا لم أمنحها دقيقة واحدة من الرحمة.

– إذن أنت لست من نوعيتها إلا... إنها فتاة عندما تحب وهي تتشبث. إن لديها روح الزوجة والحياة المنزلية. وفيما عدا ذلك ليس عندها فرصة للاستقرار. لقد عاشت مع "**ديجوا**" كاتب الروايات ومات... ثم انتقلت إلى "**أيزانو**" ولكنه تزوج وبعده جاء "**فلامان**" الحفار على النحاس، وكانت موديلا قديما له لأن لديها الموهبة والجمال. وأنت تعلم بالتأكيد تجربته المرعبة.

سأل "**جوسان**" بصوت مخنوق وهو مستمر في شفط الشراب بالشفاطة وهو يستمع إلى مأساة الحب التي أثارت "**باريس**" منذ بضع سنوات:

– أية مغامرة؟

– لقد كان حفار النحاس فقيرا ومجنونا بتلك المرأة، وخوفا من أن تهجره وحتى يحقق الحياة الرغدة الفاخرة لهذه المرأة فقد زور أوراق البنكنوت. وسرعان ما اكتشف وحبس هو وعشيقته فقد حكم عليه بعشر سنوات، وهي وضعت تحت المراقبة لمدة ستة

أشهر في دير "**سان لازار**" إلا أنهم أثبتوا براءتها بعد ذلك.

ذكر "**كودال**" "**ديشيليت**" الذي تابع القضية كم كانت فاتنة وهي ترتدي قلنسوة دير "**سان لازار**" وهي مخلصة لرجلها حتى النهاية وردها على ذلك العجوز الأحمق رئيس المحكمة والقبلة التي أرسلتها إلى "**فلامان**" وهي وسط حراسها وتصيح "لاتزعج نفسك يا صديقي" .. إن الأيام الخوالي ستعود وسنتبادل الحب مرة ثانية. ومع ذلك فإنه أحس بالنفور من فكرة الزواج من الفتاة.

ومن وقتها انطلقت في العالم الراقي واتخذت عشيقا في كل شهر أو كل أسبوع وليس من بينهم أي فنان.. أوه.. إنها كانت تخاف من الفنانين. وكنت الوحيد على ما أظن التي استمرت في مقابلته. وكانت على فترات متباعدة كانت تأتي لتدخن سيجارة في مرسمي. ثم مضت شهور لم أسمع عنها إلى اليوم الذي وجدتها وهي تتناول الغداء مع هذا الصبي المليح وتطعمه حبات العنب في فمه فقلت في نفسي: ها هي : "**صافو**" العزيزة وقد غمزت سنارتها مرة ثانية.

لم يستطع "**جان**" أن يسمع المزيد. إنه يحس بالموت من كل هذا السم الزعاف الذي ابتلعه. وبعد البرد الذي كان يحسه أصبح يحس الآن بحرارة حامية تحرق صدره وتصعد إلى رأسه الذي أخذ يطن وعلى وشك الانفجار. عبر الرصيف وتعثر في عجلات العربات وصاح فيه الحوذية: ما الذي حدث لهذا المعتوه الأبله!

عند مروره على سوق "**لامادلين**" أزعجته رائحة زيت عباد الشمس وهي الرائحة المفضلة عند عشيقته. سارع في خطواته هربا وغاضبا وممزقا وكان يفكر بصوت عال.

– عشيقتي! نعم إنها رائحة طيبة... "**صافو**" "**صافو**". من يقول إنني عشت هكذا أكثر من عام.

كان يردد الاسم في غضب جامح وهو يتذكر أنه رآها على صفحات الجرائد الصغيرة بين شرذمة أخرى من الفتيات. وفي الجريدة الدورية "**جوتا المانك**" الخاصة بالعلاقات العاطفية: "**صافو**" و"**كورا**" و"**كارو**" و"**فيرين**" و"**جين**" و"**النقمة**".

وبالحروف الخمسة لاسمها اللعين فإن كل حياة تلك المرأة فرت أمام عينيه بسرعة ومرسم "**كودال**" ومشاجراتها مع "**لاجورنيري**" وخيالات الليل أمام الشموع أو فوق الحصير على أرضية الشاعر. ثم هناك ذلك الحفار على النحاس والأوراق المالية المزورة

وجلسات المحاكمة والقبلة التي ألقتها للمزور وهي تقول: "لا تتضايق يا صديقي"! يا صديقي إنه نفس الاسم ونفس المداعبة معه باللعار! آه.. إنه سيمسح عن نفسه كل تلك القاذورات.. ثم هناك دائما رائحة عباد الشمس التي تطارده باستمرار.

وفجأة وجد نفسه يذرع السوق ذهابا وإيابا فاستأنف طريقه جريا ووصل في نفس واحد إلى شارع "**امستردام**" وهو مصمم على طرد تلك المرأة من بيته وأن يلقي بها على الدرج دون تفسير. وهو يبصق عليها بالشتائم. تردد أمام الباب، وأخذ يعيد التفكير ثم خطا بضع خطوات أخرى. كان على وشك أن يصرخ وينشج وأن يسب المنزل بكل الألفاظ السوقية التي تعلمها من على الرصيف في نهاية شارع "**اركاد**".

هل يكتب؟ نعم هذا هو.. من الأفضل أن يكتب ويسوي معها الحساب في أربع كلمات متوحشة. دخل مقهى إنجليزيا مهجورا وكئيبا في ضوء الغاز الذي يشعلونه. وجلس أمام مائدة قذرة بالقرب من الزبونة الوحيدة وهي فتاة لها وجه ميت تلتهم سمك السومون المدخن دون أن تشرب شيئا، طلب مشروبا ولم يلمسه وبدأ خطابا.. ولكن كلمات كثيرة أخذت تندفع في رأسه تريد أن تخرج ولكنه كان يخطها ببطء بالحبر على الورق كيفما اتفق.

مزق بدايتين أو ثلاث ثم خرج دون أن يكتب. عندما اقترب منه فم مملوء متحشرج وسأله في خجل:

– ألن تشرب؟ يمكننا..

أومأ برأسه علامة الإيجاب. اندفعت الفتاة على المشروب وأفرغته في شربة واحدة عنيفة كشفت عن مدى اليأس لتلك التعسة. ولم يكن في جيبها سوى ما يسمح لها بتناول لقمة تسد جوعها دون أن تبتلعها حتى ولو ببعض الجعة. تملكته الشفقة فهدأت من ثورته وأنارت له مدى ما يمكن أن تعيشه المرأة من بؤس. ثم بدأ يحكم على الأمور بطريقة أكثر إنسانية وأن يمنطق تعاسته.

على أية حال "**صافو**" لم تكذب عليه وإذا كان لا يعرف شيئا عن حياتها فإن ذلك يرجع إلى أنه لم يهتم بذلك أبدا. ثم ألا يعلم أن هناك رجالا آخرين كانوا في حياتها قبله؟ وما السبب في أن يحنق عليها... هل لأن تلك الأسماء كانت معروفة؟ وهل جريمة أنها فضلت هؤلاء المشهورين الأغنياء؟

تصاعدت بداخله كبرياء سيئة لا يجوز التصريح بها وهو يرى نفسه يتقاسمها مع كبار الفنانين الذين اعتبروها جميلة.

إنه يحب المرأة والحب شيء مؤكد ولكن أحدا ليس واثقا من السبب خاصة من في سنه وتنقصه الخبرة. بدا وكان وجه "**صافو**" قد كبر وتضخم ومحاطا بإكليل من الجمال عما كانت عليه عندما كانت تغني قصيدة "**لاجورنيري**" وصورتها مثبتة على الرخام والبرنز بواسطة "**كودال**" . ولكن فجأة عاد له غضبه. ترك الدكة التي ساقته تأملاته إلى الجلوس عليها في شارع خارجي. وسط صرخات الأطفال وثرثرة النساء العاملات في مساء شهر يونيو المترب. ثم أخذ يسير وهو يردد :

– يا إلهي! ما هذا النفور الذي أحسه في كل ذلك؟

سار هكذا مرة هادئا وأخرى ثائرا مع تقلب أفكاره وعواطفه المتناقضة.. بدأ الشارع يزداد عتمة ويخلو من المارة وحرارة شديدة تشوب الهواء الساخن ثم تعرف على باب المقابر الكبرى الذي جاء إليها في العام قبل السابق ليحضر وكله شباب الاحتفال بوضع تمثال نصفي للمثال "**كودال**" على قبر "**ديجوا**" روائي الحي اللاتيني! كانت النغمة الغريبة التي اتخذتها تلك الأسماء من ساعتين فقط وكيف بدت له كاذبة وشنيعة حكاية الطالبة الصغيرة وبيتها الصغير ،والآن ها هو يعرف ما وراء ذلك من أحداث مؤسفة التي عرفها عن طريق "**ديشيليت**" وهو الاسم الرهيب الذي أصبح يطلق على زيجات الرصيف.

كانت ظلال الموت في المكان تفزعه. عاد أدراجه وهو يحتك بشواهد القبور كأجنحة الليل يالها من ساعة؟ أحس بأنه محطم وسقط على ساقيه وظل منحنيا يتألم.. هل يرقد.. هل ينام؟ يا إلهي! ثم استيقظ في برود وبلا ثورة غضب ثم سيقول للمرأة:

– هكذا.. لقد عرفت من أنت.. وهي ليست غلطتي ولا غلطتك ولكننا لا نستطيع بعد ذلك أن نعيش معا. فلننفصل..

وحتى يحتمي من مطاردتها سيهب ليقبل أمه وأخواته ويهتز مع رياح نهر "**الرون**" الشمالية الجافة وقد تحرر من الرعب من حلمه السيئ .

كانت قد نامت وقد تعبت من الانتظار ونعست نعاسا عميقا تحت المصباح، وكتاب مفتوح على الفراش بجوارها. عندما اقترب منها لم تستيقظ ووقف بالقرب من سريرها

وأخذ يتأملها في فضول وكأنها امرأة جديدة غريبة وجدها في الفراش.

فاتنة! نعم فاتنة بذراعيها ورقبتها بلون العنبر وليس بها أي بقعة أو ندبة ولكن على جفنيها المحمرين ربما بسبب الرواية التي كانت تقرأها، وربما بسبب الانتظار، وكانت ملامحها مسترخية في راحة وقد بدا واضحا أنها امرأة ترغب أن تكون محبوبة. إن سنها وتاريخها ونزواتها وارتباطاتها ودير "**سان لازار**" والضربات والدموع والرعب والفزع كان واضحا ومنتشرا والدوائر البنفسجية الناتجة عن المتعة والنعاس والتوى فمها في نفور فغير من وضع شفتها السفلى.. إنها مستهلكة ومجهدة مثل فوهة البئر المستخدمة بكثرة حيث يأتي كل المجتمع ليشرب، كما بدأت خيوط التجاعيد تظهر كبر السن.

إن ما كشف عنه النعاس من أسرار وصمت القبور المحيط بكل ذلك كان كبيرا شنيعا مثل ميدان معركة ليلية بكل الرعب الظاهر وما هو متوقع من الحركات الغامضة وسط الظل.

وفجأة اجتاحت الصبي المسكين رغبة عارمة في البكاء.

الفصل الرابع

انتهيا من تناول العشاء والنافذة مفتوحة وأصوات العصافير تحيي هبوط الظلام. لم يكن "**جان**" يتكلم ولكنه كان سيتكلم ودائما عن نفس الشيء القاسي الذي يطارده والذي يعذب به "**فاني**" منذ أن التقى بـ"**كودال**"، وهي عندما رأته منكس العينين وهو يتظاهر بعدم الاكتراث لا يسألها عن الأخبار، خمنت ثم حذرته:

– اسمع.. أعرف ما ستقوله لي. فوفر الأمر علينا من فضلك.. إننا نتعب في النهاية ومادام الأمر مات.. وإنني لا أحب سواك فلا يوجد سواك في العالم.

– إذا كان كل شيء مات كما تقولين.. كل ذلك الماضي.

ثم نظر في عمق عينيها الجميلتين ذات اللون الرمادي المتغير والمرتعش في كل لحظة، ما كان عليك أن تحتفظي بتلك الأشياء التي تذكرك بالماضي.. نعم أعلى هذا الدولاب..

تحول اللون الرمادي في عينيها إلى الأسود:

– هل تعرف إذن؟

كل تلك الرزم من خطابات الحب والصور والسجلات التي أنقذتها من العديد من التلف والتكسير، إذن لابد أنه فردها واطلع عليها.

– وهل على الأقل ستصدقني بعد ذلك؟

وابتسمت ابتسامة غير مصدقة جرت لتحضر الخزانة المصنوعة من الخشب اللاكيه حيث دست الفراء بين أكوام الملابس الداخلية الأمر الذي حير حبيبها بشدة منذ عدة أيام.

– احرق ومزق.. فكلها لك.

ولكنه لم يسارع بإدارة المفتاح الصغير وهو يراقب أشجار الكريز المثمرة، وطيران طائر القلاق المنقوشة على الغطاء الذي نزعه فجأة. كل الأشكال والأوراق والكتابات فوق أوراق ملونة حوافها ذهبية وأوراق نقدية قديمة اصفر لونها، وشخبطة بالقلم الرصاص على ورق بطاقات وبطاقات زيارة كلها في أكوام غير مرتبة مثل درج غير منظم بعد تفتيشه وقلب رأسا على عقب بيد مرتعشة.

– ناولني إياه وسأحرقه أمام عينيك.

كانت تتحدث وهي محمومة وقد تكومت أمام المدفأة وشمعة مضاءة على الأرض بجوارها.

– هيا أعطها لي.

– لا.. انتظري.. أريد أن أقرأ.

– لماذا هل لازلت تريد أن تؤلم نفسك؟

كانت تفكر في عذابه وليس في خشونة نشر أسرارها العاطفية هكذا واعترافات الوسادة لكل هؤلاء الرجال الذين أحبوها، ثم اقتربت وهي لاتزال على ركبتيها وكانت تقرأ في نفس الوقت الذي كان يقرأ هو فيه وهي تختلس النظر إليه.

عشر صفحات موقعة من "**لاجورنيري**" عام ١٨٦١ بخط طويل فيها الشاعر الذي أرسل إلى الجزائر في رحلة رسمية وشعرية للإمبراطور والإمبراطورة يصف لعشيقته وصفا مذهلا للاحتفالات.

كانت الجزائر العاصمة مزدحمة وتعج بالناس تماما مثل بغداد في ألف ليلة وليلة.. لقد تجمعت فيها كل أفريقيا وقد تزاحموا وتكوموا حول المدينة يطرقون أبوابها، حتى توشك أن تتحطم مثل رياح السموم... قوافل من الزنوج والجمال محملة باللادن والخيام من الوبر المغزول، ورائحة المسك البشري تنتشر على طول شاطئ البحر وهم يرقصون طوال الليل حول النيران العالية، والذين يبتعدون في كل صباح بوصول شيوخ الجنوب الذين يشبهون ملوك السحر بعباءاتهم الشرقية وطبولهم الخشنة. والجياد المخصصة هدايا للإمبراطور وقد ارتدى الحرير الموشى بالفضة وهو يهز في كل خطوة الخلاخيل والبرودريه.

كانت عبقرية الشاعر قد جعلت كل تلك الأشياء حية بكلمات لامعة حول الشاطئ وأحجاره اللامعة التي يمكن أن تعتبر جواهر على ورق، في الحقيقة كان بإمكانها أن تكون فخورة تلك المرأة الزاحفة على ركبتيها والتي ألقيت عند أقدامها كل تلك الثروات. أليس من المفروض أن تكون محبوبة مادامت رغم غرابة تلك الاحتفالات لم يفكر الشاعر إلا فيها ويموت شوقا لرؤياها:

– أوه في تلك الليلة كنت معك على الأريكة الكبرى في شارع "**اركاد**" وكنت

مجنونة تصيحين فرحا عندما استيقظت وجدت نفسي ملفوفا في سجادة ففزعت وأنا في الشرفة. وكان صراخ المؤذن يصعد من مئذنة قريبة وهو يدعو ويبتهل وكنت أنت التي أسمعها عندما خرجت من حلمي.

أية قوة شريرة تدفعه إذن لمواصلة القراءة رغم الغيرة الرهيبة التي جعلت شفتيه تبيضان ويديه ترتجفان؟ حاولت "**فاني**" برقة ودلال أن تسترد منه الخطاب من بين يديه؟ ولكنه قرأه حتى النهاية وبعده قرأ خطابا آخر وثالثا وهو يلقي بها بعد قراءتها في احتقار وعدم اكتراث دون أن ينظر إلى اللهب المستعر في المدفأة وأشعار الشاعر الكبير المفعمة بالعاطفة. وأحيانا أمام فيض ذلك الحب المبالغ فيه بسبب حرارة أفريقيا كانت أشعار الشاعر ملوثة أحيانا ببعض الفواحش من القول والذي كان يشعر قارئ "**كتاب الحب**" بالخجل والعار. وأحيانا ما يكون به روحانيات عميقة ومزينة.

يالتعاسات القلب! إنه أمام تلك الصفحات بالذات توقف "**جان**" بصورة خاصة دون أن يدرك الرجفات العصبية التي كانت تتملكه في كل مرة يحرك فيها وجهه. بل كانت لديه الشجاعة ليتأمل بالملاحظات التي ذيلها الشاعر في أسفل الصفحات: لقد أعدت قراءة خطابي وفيه حقا أمور لا بأس بها.. أرجوك أن تحتفظي به جانبا فقد أستخدمه.

قال "**جان**" وهو ينتقل إلى صفحة بنفس الخط فيها يقول رجل الأعمال "**لاجورنيري**" بلهجة مثلجة ترديدا لأغان عربية ما معناه أن هذا إلغاء لحبهما.. لقد استطاع ذلك الشاعر أن يفلت.. لقد كان قويا.

ودون أن يتوقف استمر "**جان**" في تفريغ ذلك المستنقع الذي يتصاعد منه بخار ساخن وغير حي. وحل الليل فوضع الشمعة فوق المائدة وتصفح بعض الأوراق الصغيرة، يدل خطها على مدى ثورة كاتبها التي دفعته إلى كرمشتها وتمزيق ورقتها. لقد كان الوقت الأول من علاقتها مع "**كسودال**" عبارة عن مواعدة ورحلات إلى الريف ثم مشاجرات وتضرعات وتوبيخ ونشيج وسباب وإهانات بألفاظ فاحشة وعرت كل ضعف الفنان الكبير أمام القطيعة والهجر.

التهمت النيران كل ذلك وكانت تصدر هبات من اللهب الأحمر المشوب بالدخان الذي يجمد لحم ودم ودموع رجل الفكر العبقري ولكن ماذا يهم "**فاني**".. كل شيء من أجل العاشق الشاب الذي أخذت تراقبه والذي كان حماسه المحموم يحرقها. عثر على

إحدى الصور موقعة بالريشة باسم "**جافارني**" مع هذا الإهداء "إلى صديقتي "**فاني لوجراند**" . . في خان وملهى "**دامبيير**" في يوم كان ممطرا" .

كان الرأس في الصورة ذكيا ومتألما وعينان غائرتان بهما شيء من المرارة والتحطيم.

– من هذا؟

– إنه "**اندريه دي جوا**" . . لقد احتفظت بها بسبب التوقيع.

قال لها "احتفظي بها فأنت حرة! كان متكدرا وتعسا لدرجة أنها أخذت اللوحة وألقت بها في النيران، بينما غرق هو في الخطابات الخاصة بالروائي، وكانت متابعة مثيرة للأعصاب يرجع تاريخها إلى شواطئ الشتاء ومدن المياه حيث أرسل الكاتب إلى هناك من أجل صحته الميئوس منها جسديا ومعنويا، وكان يرهق جمجمته بحثا عن فكرة بعيدة عن "**باريس**" مختلطة بالمطالبات والفواتير والديون، وبحثا عن أي عمل يسدد منه ديونه وفي تلك الخطابات كان يكرر صرخات الرغبة في جسد تلك المرأة الجميل الذي منعه عنه الأطباء.

همهم "**جان**" في غضب وصراحة:

– ولكن ما الذي كان بهم يجعلهم يصبحون على تلك الحالة بعدك . . . ؟

كان هذا بالنسبة له المعنى الوحيد لتلك الخطابات الغاضبة المعترفة بالفوضى والذعر من ذلك الوجود البراق الذي يحسده عليه الشباب وتحلم به النساء العاطفيات . . نعم . . ما الذي لديهم جميعا؟ وما الذي كانت تجعلهم يتجرعونه؟ إنه يحس بعذاب رهيب لرجل مكروب ويرى أمامه المرأة التي يحبها وقد انهالت عليه سبابا وإهانة ومع ذلك لا يستطيع أن يقرر أن يفرغ ما بداخل الصندوق وهو مغمض العينين.

والآن جاء دور حفار النحاس الذي كان بائسا ومجهولا ولا شهرة له سوى ما ينشر عنه في جريدة المحاكم. كانت خطاباته المعنونة "**مازا**" غير مشرفة وتافهة تنقصها الحنكة وعاطفية مثل الروايات بها لكنه الصدق في العاطفة، واحترام للمرأة، ونكران للذات يميزه عن الآخرين. وهكذا عندما طلب العفو من "**فاني**" عن جريمته في حبه لها أكثر من اللازم وعن يد العدالة في "**باريس**" التي أمسكت بهما بعد الحكم عليه مباشرة كتب من فرحته بأن عرف أن عشيقته برئت وأطلق سراحها لم يكن يشكو من شيء. لقد حظى بجوارها وبفضلها على عامين من السعادة الكاملة والعميقة والتي ذكراها

تكفي لأن تملأ حياته وأن تخفف عنه رعب مصيره وأنهى خطابه بأن طلب منها خدمة.

أنت تعرفين أن لي ابنا في البلد ماتت أمه منذ وقت طويل. ويعيش عند قريبة عجوز في ركن ضائع، بحيث لن يعرف أحد فيه شيئا عن قضيتي. لقد أرسلت إليهما النقود التي تبقت عندي وأخبرتهما أنني راحل إلى مكان بعيد جدا وأنا أعتمد عليك يا حبيبتي العزيزة في أن تستعلمي عن ذلك الصغير التعس وتخبريني عن أخباره.

والدليل على اهتمام "**فاني**" تبع ذلك خطاب شكر وآخر تاريخه قريب لم يمر عليه سوى ستة أشهر. أوه.. كم هو طيب منك أن تحضري.. كم أنت فاتنة وصحتك جيدة أمام رداء السجن الذي أشعر منه بعار كبير.

وقاطع "**جان**" القراءة في ثورة قائلا:

– إذن استمررت في مقابلته؟

– من بعيد لبعيد كنوع من الشفقة.

– حتى منذ أن أصبحنا سويا؟

– نعم.. مرة واحدة في عنبر الزيارة.. لا يمكن رؤية المساجين إلا هناك.

– آه.. أنت فتاة طيبة.

كانت تلك الفكرة –رغم علاقتهما– أن تزور ذلك المزور يضيق بها قلبه كثيرا أكثر من أي شيء. وكان من الكبرياء بحيث أحجم عن التصريح بذلك. ولكن رزمة من الخطابات، والأخيرة، محزومة بشريط أزرق وكتبت بحروف صغيرة مائلة.. بخط نسائي هي التي فجرت غضبه. قال:

– إنني سأبدل عباءتي بعد سباق العربات تعالي إلى مقصورتي.

– لا.. لا.. لا تقرأ هذه!

هجمت عليه وانتزعت الرزمة وألقت بها في النيران دون أن يفهم حتى أولا وهو يراها راكعة أمامه على ركبتيها وقد احمر وجهها وأصبح أرجوانيا بسبب انعكاس لهيب النيران مختلطا بنار العار وهي تعترف:

– لقد كنت صغيرة في السن وكتبتها لـ"**كودال**" المجنون الأكبر.. لقد كنت أفعل ما يريده.

عندئذ فقط فهم وشحب وجهه:

– آه.. نعم... "**صافو**" القيثارة.

ثم دفعها بقدمه وكأنها حيوان غير متحضر:

– اتركيني ولا تلمسيني.. أنت تحطمين قلبي.

ضاعت صرخته وسط صمت الرعد الهادر القريب والممتد وفي نفس الوقت أضاء الحجرة ضوء مبهر.. النار! نهضت مرعوبة وأخذت دورق المياه الموجود على المائدة وصبت فوق كومة من الأوراق التي أمسكت بها النيران ثم صبت إناء الماء ثم الدلو وعندما وجدت نفسها عاجزة والنيران تصاعدت حتى منتصف الحجرة جرت إلى الشرطة وهي تصيح:

– النجدة..! النجدة.. النار.. النار..

وصل آل "**هيتيما**" في الأول يليهم البواب وعساكر الداورية وهم يصيحون:

– انزلا اللافتة واصعدا فوق السطح.. الماء الماء.. لا.. لا تستخدموا الأغطية.

انهارا وهما يراقبان داخل منزلهما وقد تعرض للغزو والماء والقاذورات ثم انتهى الخطر وانطفأت النيران وعندما انقشع الدخان الذي تجمع أسفل البيت اطمأن الجيران وعادوا إلى بيوتهم والعاشقان وسط هذه الفوضى من المياه والهبات والطين والأثاث المقلوب والمحطم، أحسا بالجبن والكراهية ولا قوة لديهما للعودة إلى حجرتهما ولا استئناف الشجار ولا تنظيف الحجرة لقد دخل حياتهما شيء شنيع وضيع. من تلك الخطابات التي احترقت والألفاظ التي حفظها عن ظهر قلب وأخذت تطارد العاشقين، وفي هذا المساء نسيا نفورهما القديم وذهبا ليناما في فندق.

إن تضحية "**فاني**" لا يجب أن تصلح من شيء وتلك الخطابات التي اختفت واحترقت أخذت تطارد ذاكرتهما خاصة العاشق. وهؤلاء العشاق السابقون لعشيقته كانوا تقريبا مشهورين . عاد الموتى إلى الحياة والأحياء تشاهد كل صورهم كلهم على صفحات الجرائد وفي كل مكان والناس تتحدث عنهم أمامه وفي كل مرة يحس بالضيق. رقق الألم من روحه ونظرات عينيه بل إنه سرعان ما وجد لدى "**فاني**" بعض آثار تأثيرها الأول ونفس العبارات والأفكار والعادات لازالت تحتفظ بها. وكانت بعض حركاتها تنتمي إلى المثال وإلى "**ديجوا**" والذي تعلمت منه نهايات العبارات المأثورة والأغاني الشعبية التي سبق أن نشرها وأصبحت مشهورة في كل أرجاء فرنسا. ومن

"**لاجورنيري**" تعلمت لهجته المتعالية والاحتقار وقسوة أحكامه على الأدب الحديث.

لقد قلدت كل ذلك.. ربما كانت أذكى مما بدت له لأول وهلة. ولكن الأمر كان يتعلق بالذكاء لأنها وإن كانت أكبر من سنه بعشرة أعوام إلا أنها استطاعت أن تتماسك مع ماضيها الوضيع ورغم انفجارات الحقد الذي كانت تتفجر بينهما من حين لآخر.

لم تعد روايات "**ديجوا**" تباع وكل النسخ كانت معروضة على الأرصفة بربع فرنك. وذلك المجنون "**كودال**" كان عنيدا في حبه وهو في تلك السن المتقدمة لقد قالت له:

– إنه لم تبق لديه أسنان في فمه.. لقد راقبته من ذلك الغداء في "**فيل دافري**" إنه يأكل مثل الماعز على مقدمة فمه.. لقد انتهت موهبته، إن آخر اشعاره لم تكن على المستوى.

وعندما كان "**جان**" يتناول بالكلام أحد منافسيه كانت "**فاني**" تبذل جهدا رهيبا لتسعده. وكان يمكن سماع ذلك الفتى الجاهل بالفن والحياة وكل شيء وتلك الفتاة المتصنعة والتي احتكت ببعض أفكار هؤلاء الفنانين المشهورين وقد أخذت تحكم عليهم في تعال وتحكم على أعمالهم أكاديميا.

ولكن العدو اللدود لـ"**جوسان**" كان "**فلامان**" حفار النحاس الذي منه عرف فقط أنه كان مليحا جدا وأشقر مثله وأنها كانت تقول له "صديقي" وأنها كانت تذهب لتراه في خفية وعندما كان يهاجمه مثل الآخرين وهو يناديه بـ"**المجرم العاطفي**" أو "**المسجون الجميل**" كانت "**فاني**" تدير رأسها دون أن تقول شيئا وفي الحال كان يتهم عشيقته بأنها لازالت تحتفظ بالتسامح نحو ذلك المجرم وكان عليها أن تشرح ذلك برقة ولكن بحزم.

– أنت تعلم جيدا أنني لم أعد أحبه يا "**جان**" مادمت أحبك.. لن أذهب بعد الآن إلى هناك ولن أرد على خطاباته ولكنك لن تضطرني لأن أقول سوءا على هذا الرجل الذي عشقني لدرجة الجنون وحتى الجريمة.

وبهذه اللهجة الصريحة وهي أحسن ما فيها كان "**جان**" لا يعترض ولكنه كان يتعذب من الحقد والغيرة، يزيد من حدتها القلق الذي كان يقوده أحيانا إلى شارع "**امستردام**" فجأة وفي وسط النهار. وهو يقول في نفسه: ربما ذهبت لتقابله.

كان دائما ما يجدها ربة بيت بلا نشاط في مسكنهما الصغير مثل المرأة الشرقية أو

أمام البيانو وهي تعطي درسا للصبي جارهما ابن السيدة "**هيتيما**" .. لقد ارتبطوا جميعا منذ ليلة الحريق مع هؤلاء الناس الطيبين والذين يعيشون دائما في تيار الهواء وقد فتحوا الأبواب والنوافذ .

وكان الزوج يعمل رساما في متحف الأسلحة كان يحضر العمل معه إلى البيت، وفي مساء كل سبت طوال نهار الأحد كانوا يرونه منكفئا على مائدة كبيرة وهو يعرق ويلهث ويهز أكمامه ليحرك الهواء وذقنه وصل حتى عينيه . وبالقرب منه كانت زوجته البدينة في ثوب هفهاف وإن لم تكن تفعل شيئا .

قامت الصداقة الحميمة بينهم في الصباح حوالي العاشرة تصيح "**هيليما**" بصوتها القوي أمام البيت هل أنتما موجودان يا "**جوسان**"؟ مكتب كل منهما يوجد بجوار الآخر ويسيران إلى عملهما معا . ورغم أن رسام المتحف كان أثقل في الجسم وأكثر سوقية وأقل في الدرجة الاجتماعية من رفيقه إلا أن الرسام كان قليل الكلام وكان يهمهم، وكانت لحيته دخلت فمه بدلا من خديه، ولكن كان من الواضح أنه رجل شجاع وطيب . وكان الاضطراب الأخلاقي لدى "**جان**" في حاجة إلى التعامل مع مثله . وكان متمسكا به بسبب أن عشيقته تعيش في وحدة مليئة بالذكريات المؤسفة أكثر خطورة ربما من العلاقات التي تخلت عنها بمحض إرادتها ووجد في السيدة "**هيتيما**" المشغولة بلا انقطاع برجلها والشراهة المذهلة التي تظهرها حتى تجعله يتناول عشاءه، ولكن عندما توطدت الصداقة لدرجة تبادل الدعوات ساوره بعض الشك . لابد أن هذين الزوجين يظنان أنهما متزوجان وضميره يرفض الكذب وكلف "**فاني**" بإخبار جارتها حتى لا يكون هناك سوء فهم . وقد جعلها ذلك تضحك كثيرا : يا للطفل السكير . . لا يوجد سواك يهتم بمثل تلك السذاجات . . . ولكنهما لم يصدقا قط أنهما متزوجان وأن ذلك لن يهمهما في شيء . آه لو علمت من أين التقط زوجته . . قال كل ما فعلته أنا هو الذهاب إلى حي "**سان جان**" المجاور . إنه لم يتزوجها إلا لتكون له بمفرده وترى أن الماضي لا يضايقه .

لم يعد للموضوع بعد ذلك . . هذه الأم الطيبة ذات العينين الصريحتين وضحكة الطفل وملامحها المشدودة وذات العادات الريفية والتي بالنسبة لها لم تكن قصص الحب شيئا عاطفيا ولا حتى الكلام المنمق له أي أهمية وهو . . الرجل . . الزوج هادئ جدا

وواثق تماما بحياته العاطفية. كان "**جان**" ينظر إليه وهو يسير بجواره وغليونه بين أسنانه وهو ينفث بعض الدخان بينما هو نفسه يفكر دائما والغضب المكتوم يلتهمه.

كانت "**فاني**" تقول له دائما في الساعة التي يتصارحان فيها بكل شيء: "إن ذلك سيمر بك يا صديقي" وكانت تهدئ من نفسه في رقة وسحر وفتنة مثلما حدث في أول يوم ولكن مع شيء منسي أو غفلا عنه لا يستطيع "**جان**" أن يحدده.

لم تعد تحرم نفسها من التدخين الآن وهي تملك بين أصابعها السيجارة الشهيرة وتضعها في كل مكان من الأثاث التي تعيد إليها ذكريات الصعلكة. وكانت في أحاديثها تنشر الفضائح التي لقيتها مع الرجال في حياتها وخلاعة النساء. وحتى عيناها تحولتا إلى تعبيرات ثقيلة وقحة وضحكات فاجرة.

وتحول الود في علاقتهما الحميمة وتغير، أولا كانت متحفظة مع شباب حبيبها الذي كانت تحترم إيحاءاته الأولى وكانت المرأة لا تجد غضاضة بعد أن رأت التأثير على ذلك الطفل من ماضيها كامرأة منحرفة الذي اكتشفه فجأة وحمى الرغبة التي أشعلتها عنده. وإطالة مداعباتها له وإثارة خياله، كل ذلك تركته الآن ولم تعد تمنحه ما كانت تمنحه "**صافو**" في عز مجدها العاطفي.

التحفظ والتحشم.. ما فائدته؟ إن الرجال كلهم سواسية يثورون على الخطيئة والفساد وهذا الصغير مثلهم. أن تجذبهم بالطعم الذي يحبونه هي الطريقة الفضلى للاحتفاظ بهم والذي تعرفه أن ما حرم منه "**جان**" من متع سرعان ما ينتقل إلى غيرها إذا ما نالها.

الفصل الخامس

في حجرتها وبجوار صورة جميلة لـ"**فاني**" للرسام "**جيمس تيسو**" وهي من بقايا مجد وروعة الفتاة، يوجد منظر طبيعي للجنوب بالأبيض والأسود التقطها في الشمس أحد المصورين الفوتوغرافيين الريفيين بطريقة سوقية. وأحد جانبي الصورة الصخرية تتسلقها كروم العنب محاطة بقطع من الحجارة، ثم في أعلاها خلف خط من أشجار الصنوبر ضد رياح الشمال مجاورة لغابة صغيرة من أشجار البلوط والصنوبر ذات الانعكاسات البراقة والبيت الأبيض نصف مزرعة ونصف قصر، وله فناء فسيح والسقف على النظام الإيطالي، وأبواب مرسوم عليها شعار المزرعة والجدران حمراء بالقرميد الريفي، وعشش الطاووس وزريبة الماشية ومجموعة السقائف السوداء المفتوحة على المحاريث والنوارج. وخرائب الأطلال القديمة وبرج ضخم يخترق سماء بلا سحاب ويشرف على الكل مع بعض الأسقف والناقوس الروماني للقصر الجديد للباباوات حيث سكن آل "**جوسان**" طوال الوقت.

كانت "**كاستليت**" عبارة عن ضيعة مغلقة غنية بكرمها الشهير مثل كروم "**لانيرد**" و"**ايرميتاج**" وقد انتقلت من الجد إلى الأب إلى الابن بهذا التقليد العائلي بإرسال الابن الأكبر إلى القنصلية. ولسوء الحظ كانت الطبيعة كثيرا ما تكون ضد هذه المشاريع إذا لم يكن هناك أبدا مخلوق قادر على إدارة الضيعة أو إدارة أي شيء كان فإنه "**سيزار جوسان**" والذي وقعت على عاتقه تلك المسؤولية من أربع وعشرين سنة.

كان إباحيا مطاردا للنساء الفلاحات، كان "**سيزار**" أو بالأحرى "**فينان**" التافة والأبله السيئ وهو يمثل الفرد الغريب الذي يظهر أحيانا وسط العائلات المحترمة والذي يعتبر صمام التنفيس.

وخلال بضع سنوات من التهاون والإهمال والتبذير والإسراف الساذج والمراهقات الكارثة جفت الموارد وقلت المخازن وكانت المحصولات تباع مقدما ثم في يوم في ليلة الحجز النهائي قلد "**فينان**" إمضاء شقيقه ووقع ثلاثة عقود مع قنصلية "**شنغهاي**" وهو مقتنع أنه قبل السداد سيجد المال لينقذ به نفسه ولكن المطالبات وصلت تباعا بالأخ الأكبر مع خطاب شديد اللهجة يعلن الإفلاس والتزوير. وقد سارع القنصل إلى

"**شاتونيف**" وعالج هذا الموقف الميؤوس منه بمساعدة مدخراته ودوطة زوجته واكتشف عدم كفاءة "**فينان**" تخلى عن المهنة التي كانت مفتوحة أمامه بطريقة لامعة وعاد ليعمل في زراعة العنب.

لقد كان ذلك الرجل "**جوسان**" حقيقيا وهو تقليدي حتى النخاع وعنيف وهادئ بطريقة البراكين الخامدة والتي تحتفظ بالتهديد بالفوران، وبفضله ازدهرت "**كاستيليت**" وكبرت في الأراضي حتى نهر "**الرون**". ولما كانت الفرص الإنسانية تأتي دائما بالصحبة فإن الصغير "**جان**" ظهر في الضيعة. وخلال هذا الوقت كان "**فينان**" تائها في البيت وقد نزعت سلطاته بسبب غلطته، لا يكاد يجرؤ على رفع عينيه نحو شقيقه والذي كان يغرقه باحتقاره. لم يكن يتنفس إلا في الحقول والصيد للطيور والسمك، ينهك نفسه وحزنه في أعمال لا قيمة لها. وهو يجمع المحار ويعد عصا فاخرة من خشب السرو أو الورد ويتناول غداءه بمفرده في الخارج المكون من سمك الزنجور طويل البوز والذي يطهوه على أغصان الزيتون الجافة، وفي المساء عندما يعود للعشاء على مائدة الأخ لم يكن ينطق بكلمة رغم ابتسامة التسامح من زوجة أخيه المشفقة على المخلوق التعس، وكانت تزوده ببعض مصروفات الجيب سرا يعطيها لها أخوه الذي كان قاسيا مع "**فينان**" ليس على حماقاته الماضية وإنما التي يمكن أن يظل يرتكبها. وفي الحقيقة تمت معالجة الحماقة الكبرى وتعرضت كرامة وكبرياء "**جوسان**" الأكبر إلى محنة. كانت تأتي للخياطة ثلاثة مرات في الأسبوع إلى "**كاستيليت**" فتاة صغيرة ابنة صياد وكانت جميلة اسمها "**ديفون أبرييه**" ولدت في حقل الصفصاف على ضفة "**الرون**" وكانت فارعة الطول لدنة الجسد كغصن البان.. كانت في جمالها قد أحيت ذكريات مغامرات "**سيزار**" السابقة في قصر "**شاتونيف**" و"**كورتيزون**" و"**فاكيرا**" وبين أنقاضها.

وهذه الذكرى التاريخية كانت مؤثرة في حب "**سيزار**" ذي الروح البسيطة التي لا تعرف المثالية. ولما كان ضخم الجثة طويل الجسد فقد كان يتلهف على النساء البدينات وقد انبهر بالفتاة من أول مرة... وكان ينتظرها آملا في حفلة يوم الأحد حيث يقدم للفريسة هدية ثم كان اللقاء الأول وسط الحقول ثم الهجوم المباشر بعد ذلك.. هذا ما كان يفعله مع القرويات. أما "**ديفون**" فلم تكن تعرف الرقص وأحضرت الهدية التي هي عبارة عن صيد سمين إلى المطبخ وكانت صلبة مثل شجرة البلوط لا تلين فقد

أرسلت للمغازل العجوز عشر خطوات للخلف بواسطة سن المقص الصلب. وجعلته يجن حبا لدرجة أنه فكر في الزواج بها وصارح زوجة أخيه بذلك. وكانت تعرف "**ديفون**" منذ صغرها وتعرف أنها جادة ورقيقة ورأت في أعماق قلبها أن هذا الزواج غير المتكافئ يمكن أن يكون خلاصا لـ"**فينان**" ولكن كبرياء زوجها القنصل عارض وتمرد على فكرة أن يتزوج أحد أفراد عائلة "**جوسان دارماندي**" من فلاحة وقال إنه لو تزوج "**سيزار**" منها فإنه لن يراه مرة ثانية وكان عند كلمته.

عندما تزوج "**سيزار**" غادر "**كاستيليت**" وذهب ليعيش على ضفاف "**الرون**" عند أقارب زوجته على راتب صغير كان يرسله له شقيقه والتي كانت تحمله زوجته المتسامحة. وكان الصغير "**جان**" يصحب أمه في تلك الزيارات وهو مسحور بكوخ آل "**أبرييه**". وكان "**جان**" وهو صغير يستمتع بتلك الرحلات إلى ضفاف النهر والنزهة في القوارب ومن هنا كان حبه للبحر الذي لم يكن قد رآه من قبل.

وقد دام نفي العم "**سيزار**" سنتين أو ثلاث وربما لم يكن لينتهي بأي حدث عائلي لولا ميلاد طفلتين توأم "**مارنا**" و"**ماري**" وسقطت الأم المتسامحة زوجة القنصل مريضة بعد تلك الولادة المزدوجة وقد سمح لـ"**سيزار**" والزوجة بالحضور إلى "**كاستيليت**" للزيارة وتمت المصالحة بين الشقيقين وسكن الزوجان في "**كاستيليت**". ولما كانت الأنيميا الحادة التي لا شفاء منها تعقدت بعد ذلك بسرعة الروماتيزم مما أقعد الأم المسكينة. وجدت "**ديفون**" نفسها مسؤولة عن إدارة المنزل ورعاية إطعام الطفلتين والموظفين الكثيرين وأن تذهب لمقابلة "**جان**" مرتين في الأسبوع في مدرسة "**افينيون**" فضلا عن رعايتها للمريضة التي كانت تطلبها في كل ساعة.

كانت امرأة منظمة رغم كونها في الأصل فلاحة. وكان القنصل يعتمد عليها في كل مصروفات البيت التي ثقلت بسبب الأعباء الجديدة والمتزايدة والإيرادات المتناقصة عاما بعد عام بسبب إصابة الكروم بقمل الفاكهة. وقد أصيب كل السهل ولكن الضيعة المحاطة بالأسوار كانت تقاوم وهو ما كان يشغل القنصل: أن ينقذ التحويطة بواسطة الأبحاث والتجارب العلمية.

وكانت "**ديفون أبربيه**" لازالت متمسكة بتسريحة شعرها ومريلة العمال وتقف في تواضع عند حد كونها خادمة ووصيفة للسيدة ربة البيت. جنبت البيت أي ضيق في

سنوات الأزمة وظلت تحيط المريضة بنفس الرعاية المكلفة وربت الصغيرتين بالقرب من أمهما إلى أن أصبحتا آنستين وترسل مصاريف "**جان**" بانتظام أولا إلى المدرسة ثم إلى "أيكس" حيث كان يدرس الحقوق وأخيرا إلى "**باريس**" التي ذهب إليها لينهي دراسته.

بأي معجزات وذكاء ويقظة استطاعت أن تفعل ذلك.. هذا مالم يكن يعرفه أحد حتى "**ديفون**" نفسها. ولكن في كل مرة كان فيها "**جان**" يفكر في "**كاستيليت**" ويرفع نظره إلى الصورة ذات الظلال الباهتة فإن أول وجه يبدو في مخيلته وأول اسم ينطقه كان "**ديفون**" الفلاحة ذات القلب الكبير ومع ذلك منذ بضعة أيام بعد أن عرف عشيقته تجنب أن ينطق ذلك الاسم المحترم أمامها هو ولا اسم أمه أو أختيه بل إن الصورة الفوتوغرافية كانت تضايقه كثيرا أن يشاهدها وهي ليست في وضع غير ملائم فوق سرير "**صافو**".

وفي يوم عند عودته للعشاء دهش عندما رأى ثلاثة أطقم عشاء بدلا من اثنين والأكثر من ذلك أنه وجد "**فاني**" تلعب الورق مع رجل ضئيل لم يعرفه في البداية ولكنه عندما استدار أظهر له عينيه الصافيتين مثل عيني ماعز مجنون وأنف ضخم بارز وسط وجه ملوح وملغد والجمجمة صلعاء ولحية العم "**سيزار**" المميزة والذي رد على صرخة ابن أخيه دون أن يترك ورق اللعب.

– هكذا ترى أنني لم أشعر بالضجر أنني ألاعب ابنة أخي.

ابنة أخيه؟ و"**جان**" الذي كان يخفي بعناية علاقته عن كل الناس. إن هذه الألفة لم تعجبه والأمور التي يوحي إليها "**سيزار**" بصوت منخفض بينما كانت "**فاني**" مشغولة بإعداد العشاء.

– مبروك يا صغير.. إن عينيها وذراعيها قطعة ملكية.

وازداد الأمر سوءا عندما جلسوا أمام المائدة وأخذ "**فينان**" يتكلم دون تحفظ عن شؤون "**كاستيليت**" وما دعاه إلى الحضور إلى "**باريس**".

كانت الحجة للرحلة هي النقود التي يتحصل عليها وهي ثمانية آلاف فرنك كان قد أقرضها في يوم ما لصديقه "**كوربباس**" والذي لم يتوقع قط أن يلقاه عندما وصله خطاب من كاتب العدل أعلنه به بموت "**كوريباس**" يالرحمة السماء! والدفع المعد فورا للثمانية آلاف فرنك. ولكن الهدف الحقيقي هو مسألة صحة أمه.. يا للمسكين! فمنذ

فترة هي تنسى كل شيء حتى أسماء الصغيرتين وفي المساء الماضي خرج والدك من حجرتها فسألت "**ديفون**" من يكون ذلك السيد الطيب الذي يحضر لزيارتها باستمرار. ولم يلحظ أحد بعد ذلك سوى عمتك "**ديفون**" ولم تحدثني في ذلك إلا لكي أذهب لاستشارة "**بوشبرو**" حول حالة المرأة المسكينة والتي عالجها فيما مضى .

سألت "**فاني**" في صوت جاد وآمر:

– هل لديكم مجانين سابقون في عائلتكم؟

قال "**فينان**" وهو يضيف بابتسامة ماكرة وقد ظهرت غمازتا خديه:

– لا على الإطلاق.. ولكن جنوني لا يزعج النساء ولم تكن هناك حاجة لأن يحبسوني.

راقبها "**جان**" في عصبية. كان إلى جانب الحزن الذي سببه له الخبر المؤسف يوجد شعور بعدم الارتياح وهو يسمع تلك المرأة تتحدث عن أمه وعن عجز السن الحرجة بلغة متحررة وبخبرة امرأة مجربة وهي تدخن سيجارتها، والآخر يتحدث بلا تحفظ منطلقا في سرد الأسرار الخاصة للعائلة.

– آه.. وكروم العنب! اللعنة على كروم العنب وتلك المزرعة المحاطة بالأسوار لن تستمر زمنا طويلا.. لقد التهمت نصف العناقيد تقريبا ويحافظون على البقية بمعجزة، وهم يعنون بكل عنقود وكل حبة عنب وكأنها أطفال مرضى بواسطة عقاقير تكلف غاليا. والرهيب في الأمر هو أن القنصل يعاند ويكابر ويقرر أن يزرع من جديد كروما تأكله الديدان وبدلا من أن يترك الكروم إلى أشجار الزيتون وأعشاب الشمر.. لقد أصبحت تلك الأرض الطيبة مغطاة ببقع مثل الأبرص والمصاب بالحصبة.

ولحسن الحظ أن "**سيزار**" موجود هناك وله بعض الهكتارات على ضفاف "**الرون**" والذي يعنى بها عن طريق الغمر بالمياه هو اكتشاف رائع وعملي وأعطاه محصولا من العنب بصورة مشجعة والذي أسماه القنصل في احتقار أنه نبيذ الضفادع. ولكن "**فينان**" عاند هو أيضا وكابر وبالثمانية آلاف فرنك التي يحصلها من "**كوربباس**" سيشتري "**بيبوليت**".

– اعلم يا صغيري.. أول جزيرة على "**الرون**". ابتلعها آل "**أيرييه**" ولكن هذه.. بيني وبينك.. لا يجب ألا يعرف عنها شيئا من أهل "**كاستيليت**".

سألته "**فاني**" وهي تبتسم:

– ولا حتى "**ديفون**" يا عمي؟

دمعت عينا "**فينان**" عند ذكر اسم زوجته:

– أوه.. "**ديفـــون**"! أنا لا أعمل شيئا أبدا بدونها إنها تثق بأفكاري من قبل، ثم سيسعدها أن ينجح "**سيزارها**" المسكين في إعادة ثروة "**كاستيليت**" بعد أن أوصلها إلى ما يشبه الإفلاس.

ارتجـــف "**جـــان**". هل سيقوم بالاعتراف بحكايته المزرية عن التزوير؟ ولكن الرجل الريفي أمام عاطفته الجياشة نحو "**ديفون**" أخذ يتحدث عنها وعن السعادة التي منحتها له.

– خذي يا ابنة أخي لابد أنك تعرفينها باعتبارها امرأة مثلك.

ثم ناولها صورة في حجم كارت بوستال أخرجها من محفظة نقوده والتي لا تغادرها أبدا كانت "**فاني**" تتصور من لهجة "**جان**" وهو يتحدث عن "**ديفون**" أنها من تلك القرويات ولكنها ظلت مبهورة أمام جمال وجهها ذي الملامح النقية وقد زادها وقارا شعرها الأبيض وجسدها الفارع واللذان لامرأة في الثانية والثلاثين من عمرها. قالت وهي تزم شفتيها وبلكنة غريبة:

– إنها جميلة جدا في الحقيقة.

قال العم الذي أمسك الصورة:

– وهي رائعة البنية.

ثم انتقلوا إلى الشرفة. بعد يوم حار تحت التندة الزنك في الشرفة إلا أن الحرارة هبطت بينما رذاذ المطر ينعش الجو وهو يرن في رقة على الأسقف ويتساقط على الرصيف.

كانت "**باريس**" تحت هذا الوابل من المطر وخطوط المشاة والعربات وكل هذا الضجيج المتصاعد كان يضايق رجل الريف ويملأ رأسه الفارغ وتجعله يهزه وكأنه يتذكر الماضي والشباب وإقامته لثلاثة أشهر من ثلاثين عاما عند صديقه "**كورببـاس**".

– ياله من حفل عرس يا أطفالي.. وياله من تجاوز للحدود.. ثم دخولهما إلى "**برادو**" في ليلة الصوم الكبير و"**كورببـاس**" في ملهى "**شيكارو**" وعشيقته "**لامورنا**"

وهي متنكرة في زي بائعة أغاني وهذا التنكر حمل لها الحظ حيث أصبحت من المشهورات في مقهى "**كونسير**" .. وهو نفسه -العم "**سيزار**" سحب فتاة داعرة صغيرة من حي يدعى "**بيليكيل**" . ثم أخذ يضحك ملء فمه وهو يدندن ألحانا راقصة وهو يمسك "**فاني**" ابنة أخيه المزعومة من وسطها. وفي منتصف الليل عندما تركهما ليذهب إلى فندق "**كوجا**" وهو الوحيد الذي يعرفه في "**باريس**" كان يغني بأعلى صوته على الدرج وهو يرسل القبلات إلى ابنة أخيه والتي كانت تضيء السلم وتقول له:

- خذ بالك من الدرج حتى لا تسقط، ما إن رحل حتى ظلت "**فاني**" تحتفظ بتقطيبة انشغال على جبينها ثم ذهبت بسرعة إلى دورة المياه ومن خلال الباب الذي ظل مواربا في حين نام "**جان**" قالت له بصوت يبدو عليه عدم الاكتراث:

- خبرني إذن.. إنها جميلة عمتك... إن هذا لم يعد يدهشني أنك كنت تتحدث عنها كثيرا..

احتج وهو يشعر بكل مهانة.. "**ديفون**"! إنها أمه الثانية والتي كانت وهو صغير ترعاه وتلبسه ملابسه وأنقذته من مرض مميت.. لا.. إطلاقا.. لم يكن في الإمكان أن يراوده هذا الإغراء الشائن المقزز. استأنف الصوت المزعج للمرأة التي وضعت مشابك الشعر بين أسنانها:

- اذهب إذن.. اذهب إذن. إنك لن تستطيع أن تجعلني أصدق أنها مع هاتين العينين والجسد المخروطي هذا الذي يتحدث عنه ذلك الأحمق أن "**ديفون**" استطاعت أن تظل بلا رغبة بجوار رجل أشقر مليح بشرته مثل الفتاة مثلك؟

كانت تقول ذلك عن اقتناع وهي مؤمنة بأن كل جنسها من النساء ينساق وراء نزواته، ويخضع لأول رغبة. أما هو فقد دافع عن نفسه ولكنه كان مضطربا وهو يسأل ذكرياته ويتساءل عم إذا كان قد حدث أن مجرد مداعبة بريئة يمكن أن تنبهه إلى خطر جسيم. وأيا كان ما اكتشفه فإن صراحة عاطفته لازالت عرضة للشك. قالت له:

- انظر إلى تسريحة شعرها الفلاحي!

كانت قد وضعت مشبكا أبيض بين فرقي شعرها الطويل وهي تقلد تماما طاقية راهبات "**شاتونيف**" ثم سألته:

- هل أشبه "**ديفون**"؟

– أوه.. لا.. لا على الإطلاق. إنها لا تشبه إلا نفسها وقد ارتدت قلنسوتها الصغيرة التي تذكره بقلنسوة سجن "**سان لازار**" والتي جعلتها جميلة كما يقولون وهي ترسل للمزور قبلة وداع وسط المحكمة وتقول:

– "لا تنزعج يا صديقي.. إن الأيام الجميلة ستعود".

وقد سببت له تلك الذكرى ألما شديدا لدرجة أنه ما إن نامت عشيقته حتى أطفأ النور حتى لا يراها بعد ذلك.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وصل العم وقد رفع عصاه عاليا وهو يصيح:

– أوهيه! يا أولاد ،بنفس اللهجة التي كان يستخدمها "**كوربباس**" عندما يحضر ليجده بين أحضان "**بيليكيل**". لقد بدا أكثر إثارة عنه في الليلة الماضية. لا شك أن فندق "**كوجا**" والثمانية آلاف فرنك داخل محفظة نقوده وأن هذه النقود وإن كانت من أجل ضيعة "**بيبوليت**" إلا أنه كان من حقه أن يصرف بعضها من أجل تقديم عشاء لابنة أخيه المزعومة، علق ابن الأخ الذي لا يستطيع أن يتخلف عن وزارته يومين متعاقبين.

– وماذا عن "**بوشيرو**"؟

لقد اقتنع بأنه يمكن تناول الغداء في الشانزليزيه وأن يذهب الرجلان بعد ذلك إلى الاستشارية.

لم يكن هذا ما حلم به "**فينان**".. الوصول إلى "**سان كلور**" في سيارة فاخرة مليئة بالشراب. لكن الوجبة كانت ساحرة على أية حال على شُرفة المطعم المظلل بالتندات وأشجار الأكاسيا بالقرب من مقهى آخر كان يتردد به ألحان عذبة. كان "**سيزار**" شديد الثرثرة مجاملا للغاية وقد أخرج كل ما لديه من مواهب ليبهر المرأة الباريسية، كان يمزح مع الجارسونات ويهنئ كبير الخدم على صلصته الفاخرة وكانت "**فاني**" تضحك باندفاع حيواني ومصطنع الأمر الذي آلم "**جوسان**" والذي ضايقه أكثر تلك العلاقة الحميمة التي نشأت ما بين العم وعشيقته أمام عينيه، ومن يراهما يقول إنهما صديقان من عشرين سنة. أصبح "**فينان**" عاطفيا بعد احتساء الشراب والحلوى وهو يتحدث عن "**كاستيليت**" وعن "**ديفون**" وأيضا عن الصغير "**جان جوسان**". كان سعيدا لأن يجده معها وهي امرأة جادة ستمنعه من ارتكاب حماقات ومن أخلاق الشاب الغامضة بعض الشيء، أعطاه نصائح وكأنه عريس وهو يربت ذراعه ولسانه ثقيل وعيناه مبللتان

بالدموع.

ثم اتجه إلى بيت "**بوشيرو**". وقضى ساعتين من الانتظار في الدور الأرضي من قصر "**فـــاندوم**" في تلك الصالونات الواسعة مرتفعة الجدران باردة الجو مزدحمة بجمهور صامت وقلق، وكان الجحيم الذي مرًا به من دائرة إلى أخرى على التوالي ومن الانتقال من حجرة إلى أخرى حتى مكتب العالم الشهير.

وكان "**بوشيرو**" بذاكرته الموهوبة قد تذكر في الحال السيدة "**جوسان**" التي حضرت في استشارة عند بداية مرضها. وقد حكى له "**سيزار**" كل مراحل المرض المختلفة ثم قرأ الروشتات القديمة ثم في الحال طمأن الرجلين حول الحوادث العقلية التي حدثت على أثر استخدام بعض الأدوية. وظل بلا حركة وقد انخفض حاجباه الكثيفين على عينيه الحادتين الصغيرتين وهو يكتب خطابا طويلا لزميله في "**افـــينون**" والعم وابن الأخ يستمعان –وهما يكتمان أنفاسهما– إلى صرير القلم الحبر فجأة بدت لهما قوة الطبيب في العصر الحديث والقس والمؤمن الأكبر بدا لهما متغيرا بلا جدال.

خرج "**سيزار**" من هناك جادا وباردا وقال:

– سأعود إلى الفندق لأحزم حقيبتي. إن جو "**باريس**" سيئ بالنسبة لي. هل تعتقد ذلك يا صغيري.. لو بقيت هنا لارتكبت حماقات. سأستقل قطار السابعة هذا المساء.. وأرجوك أن تقدم اعتذاري لابنة أخي.

امتنع "**جـان**" عن الإمساك به ومنعه عن الرحيل وقد أفزعه تصرفاته الصبيانية وخفة أعماله.

وفي اليوم التالي عندما استيقظ سعد عندما علم أنه عاد تحت سيطرة "**ديفون**" ولكن عندما رآه يظهر مرة ثانية ووجهه محطم وملابسه غير مرتبة صاح:

– يا إلهي! ما الذي حدث يا عمي؟

انهار العم على مقعد ذي مساند واعترف بأنه قابل أحد أصدقائه من أيام "**كربباس**" ثم دعاه على عشاء غالي الثمن ولعب الورق وضاعت الثمانية آلاف فرنك طوال الليل. لم يعد معه مليم واحد. كيف يعود إلى هناك؟ ثم شراء ضيعة "**بيبوليت**".. ثم فجأة أصابه نوع من الهذيان، وضع يديه على عينيه وسد أذنيه وأخذ يصرخ وينشج وأخذ رجل الريف يعرض كل خطاياه التي ارتكبها طوال حياته. إنه العار والتعاسة لعائلته وأن

مخلوقات مثله في العائلات من حق أهله أن يلقوا بهم إلى الذئاب. ولولا كرم أخيه فأين كان من الممكن أن يعيش الآن؟ في المنفى أو السجن مع اللصوص والمزورين. قال "**جوسان**" في تعاسة وهو يحاول أن يمنعه من مواصلة نواحه:

– يا عمي... يا عمي!

ولكن الآخر تعمد أن يكون أعمى وأصم، كان يتلذذ من ذلك المشهد العلني لجريمته وهو يحكيها بأدق تفاصيلها بينما "**فاني**" تنظر إليه بشفقة مقرونة بالإعجاب. إنه إنسان عاطفي انفعالي هذا الشخص على الأقل. إنه يُشعل كل شيء وهذا ما تحبه في الرجال وقد تأثرت وهي في ثوب فتاة طيبة وأخذت تبحث عن وسيلة تساعده بها. ولكن أي وسيلة؟ إنها لم تقابل أي شخص منذ عام.. و"**جان**" ليس له أي صلات.. وفجأة خطر على بالها اسم.. "**ديشيليت**"! لابد أنه في "**باريس**" في هذا الوقت وهو فتى طيب جدا. قال لها "**جان**":

– لكني بالكاد (بصعوبة) أعرفه:

– سأذهب أنا..

– كيف .. هل تريدين ذلك؟

– ولم لا؟

تشابكت الأعين وتفاهمت. لقد كان "**ديشيليت**" نفسه أحد عشاقها. عشيق ليلة واحدة لا تكاد تتذكرها. ولكن هو لا ينسى شيئا. إنهن جميعا مرصوصات في عقله. قالت وهي متضايقة بعض الشيء:

– إذا كان هذا يضايقك.

في حين أن "**سيزار**" أثناء هذا الحوار القصير قد كف عن العويل والبكاء صار أكثر قلقا وأدار نحوهما عينيه في ضراعة يائسة جعلت "**جان**" يستقر رأيه على ذهاب المرأة.

– وهل هو بعيد ذلك الـ"**ديشيليت**"؟

– ولكن لا.. إنه في شارع روما على بعد خطوتين.

كان "**جان**" يرد في ثورة غضب ووجد أن "**فاني**" أخذت وقتا طويلا في العودة. حاول أن يهدئ نفسه بالحكمة التي يتبعها المهندس "**ديشيليت**" لا غد للحب وبالطريقة الاحتقارية التي تحدث بها عن "**صافو**" كواحدة من نساء ماضيه الداعر.

ولكن عزة نفسه كعاشق ثارت وتمنى قريبا أن يعتبرها "**ديشـيليت**" لازالت فـاتنة ومرغوبة. آه! هذا العجوز المخبول "**سيزار**" الذي نكأ كل جراحه.

أخيرا عادت "**فاني**" مشرقة الوجه.

– لقد تم الأمر ومعي النقود.

أمام الثمانية آلاف فرنك المفرودة أمام العم أخذ يبكي من الفرح وأراد أن يكتب إيصالا ويحدد الفوائد وتاريخ السداد.

– مستحيل يا عمي! أنا لم أذكر اسمك.. لقد أقرضني أنا هذه النقود وأنت مدين لي بها للمدى الذي يعجبك.

رد "**سيزار**" وهو يكاد يطير فرحا من العرفان بالجميل.

– إن خدمات مثل هذه لا تدفع إلا بالصداقة الخاصة بابنتي والتي لا حدود لها.

وفي محطة القطار التي صحبه إليها "**جوسـان**" ليتأكد هذه المرة من رحيله كرر والدموع في عينيه:

– يالها من امرأة.. يالها من كنز.. لابد أن تجعلها سعيدة... هل فهمت؟

ظل "**جان**" غاضبا جدا من تلك المغامرة وهو يحس بأن قيده أصبح ثقيلا خاصة وأنه كان يحاول دائما ألا يخلط ما بين حبه وعائلته. والآن ها هو "**سيزار**" قد أخبر حبيبته بأعماله ومزارعه وأعطاها أخبارا عن "**كاستيليت**" وها هي "**فاني**" تنتقد عناد القنصل في مسألة كروم العنب وتتحدث عن صحة أمه وتضايقه بنصائحها التي لا مكان لها. لم تلمح قط إلى الخدمة التي قدمتها مثلا وإلى مغامرة "**فينان**" ولا إلى الفساد الذي أحدثه في بيت "**دار ماندي**" والذي نشره العم أمامها. مرة واحدة استخدمت فيها سلاح الرفض والاعتراض في هذه الظروف.

كانا عائدين من المسرح وقد استقلا السيارة تحت المطر من موقف الشارع. وكانت الجياد والسائق من النوع الذي لا يسير إلا بعد منتصف الليل وقد استغرقوا وقتا طويلا للانطلاق في الطريق وكان الرجل نعسان والجواد يهز بوزه وبينما هما ينتظران تحت غطاء العربة كان الحوذي العجوز يضبط خيوط سوطه واقترب في هدوء من باب العربة وحبل اللجام بين أسنانه وقال لـ"**فاني**" بصوت متقطع تفوح منه رائحة الشراب:

– مساء الخير.. كيف تسير الأمور معك؟

– غريبة.. إنه أنت؟

ارتجفت رجفة قليلة سرعان ما تغلبت عليها وقالت بصوت منخفض لحبيبها:

– إنه أبي..

أبوها! ذلك المارد والذي يرتدي ذلك القفطان الأسود الطويل الرث مثل الذي يرتديه أحبار اليهود وقد اتسخ من الطين وله أزرار معدنية بعضها منزوع وقد بدا وجهه منتفخا تحت مصابيح الغاز في الشارع وتفوح منه رائحة الخمر الرديئة. ومن هنا فهم أسباب تصرفات "**فاني**" السوقية وتاريخها المشين وعينيها الواسعتين المرهقتين. لم يهتم الحوذي بالرجل الذي يصحب ابنته وكأنه لم يره وأعطى الأب "**لوجراند**" أخبارا عن العائلة.. إن العجوز في "**نيكر**" منذ خمسة عشر يوما وهي تغزل قطنا من النوع الرديء. اذهبي لمقابلتها في أحد أيام الخميس فإن ذلك سيشجعها. أما أنا فلحسن الحظ العربة متينة والسوط على خير حال ولكن للأسف فإن العمل ليس مزدهرا.. لو احتجت إلى حوذي ممتاز لمدة شهر فإن هذا سيسعدني لا.. لا بأس.. حسنا إلى اللقاء.

تصافحا بالأيدى بطريقة مرتخية وانطلقت العربة همهمت "**فاني**":

– ما رأيك؟

وفي الحال بدأت تتحدث عن عائلتها طويلا وهو ما تعمدت من قبل تجاهله.

– إن ما حدث لي قبيح جدا ووضيع جدا. لكننا يعرف كل منا الآخر أفضل الآن لم يعد هناك ما نخفيه عن بعضنا.

لقد ولدت في "**مولان أوزانجليه**" في الضواحي من هذا الأب وهو تنين قديم كان يعمل في خدمة عربات "**باريس**" في منطقة "**شايتون**" وأمها خادمة ملهى.. إنها لم تعرف أمها التي ماتت وهي تضعها، فقط أصحاب الملهى وكانوا اشخاصا طيبين وأجبروا الأب على الاعتراف بالبنت ودفع أجر المرضعة. ولم يجرؤ على الرفض. لأنه كان مدينا بالكثير لأصحاب البيت. وعندما بلغت "**فاني**" الرابعة من عمرها نقلها على عربته، تصحبه مثل الكلب وقد قيدت أعلى تحت مقعد القيادة وهي سعيدة بأن تجوب هكذا الطرق وأن تشاهد أنوار المصابيح تجري بجوارها وهي تشم رائحة الحيوانات فتنام في الظلام في مكانها، وهي تسمع رنين أجراس الحي ولكن الأب "**لوجراند**" سرعان ما مل القيام بدور الأب. ورغم القليل الذي تكلفه فإنه كان عليه أن يطعمها ويكسوها. ثم

ضايقته عندما تزوج من أرملة رجل كان يعمل سباخا للخضراوات، وقد أحست "**فاني**" تماما بأن أباها يريد أن يتخلص منها. وكانت تلك فكرته الراسخة كسكير.. التخلص من الطفلة بالقوة لولا أن الأرملة نفسها وهي الأم "**ماشوم**" شملتها بحمايتها. قالت "**فاني**":

– في الحقيقة أنت تعرفها "**ماشوم**"!

– كيف.. تلك الخادمة التي رأيتها عندك.

– لقد كانت زوجة أبي.. لقد كانت طيبة معي جدا عندما كنت صغيرة.. وبعد أن التهم أبي كل ما كانت تمتلكه وأوسعها ضربا أجبرها على خدمة عاهرة كان يعيش معها.

آه يا للمسكينة "**ماشوم**". إنها تعرف كم يكلف الرجل المليح! أيه.. حسنا.. عندما تركتني رغم كل ما استطعت أن أقوله لها جرت لتتصالح معه، والآن ها هي وقد انتهى بها الأمر الآن إلى أن ذهبت إلى الملجأ.

كانت تتحدث عن نذالة والدها دون وعي وكأنها تتحدث عن شخص غريب دون أن تشعر بالعار ولا التقزز. وكان "**جان**" يحس بالرعب وهي تتحدث عن ذلك الأب وتلك الأم وهو يقرنهما بوجه القنصل الحاد ووجه أمه الملائكي ثم فهمت فجأة ماذا يعني صمت حبيبها وتمرده على ذلك الفساد الاجتماعي الذي رآه حولها وما قد يصيبه من القرب منها. قالت "**فاني**" بلهجة فلسفية:

– على أية حال فإن مثل هذا يحدث في كل العائلات ولسنا مسؤولين عنه.. أنا لدي أبي "**لوجراند**" وأنت عندك عمك "**سيزار**".

الفصل السادس

طفلي العزيز الغالي أكتب إليك وأنا أرتجف من الإعصار الذي سيحول حياتنا. إن التوأمتين اختفتا.. رحلتا عن "**كاستيليت**" ليوم كامل وليلة وصباح اليوم التالي

إنه في يوم الأحد ساعة تناول الغداء عندما اكتشفنا غياب الصغيرتين -لقد زينتهما من أجل قداس الثامنة حيث كان على القنصل أن يصحبهما وبعد ذلك كنت مشغولة وأنا محجوزة مع الأم التي زادت عصبيتها عن المعتاد، وكأنها تحس بالنحس الذي يطوف حولنا وأنت تعلم أنها أصيبت بذلك دائما منذ مرضها وهو توقع ما سيحدث. وكلما قلت حركة جسدها زاد عمل عقلها.

ولحسن الحظ أن أمك كانت في غرفتها وها نحن جميعا في البهو في انتظار الصغيرتين، لقد نادينا عليهما من التحويطة، وأخذ الراعي يصفر لهما بصفارته العالية التي يجمع بها الغنم، ثم "**سيزار**" من ناحية وأنا من ناحية "**وروزالين**" ترمح في كل "**كاستيليت**" وفي كل مرة نلتقي فيها تقول إيه حسنا؟ لا شيء، وفي النهاية لم يجرؤ أحد على السؤال. وقد ذهبنا والقلوب مضطربة إلى الآبار أسفل نوافذ مخزن الغلال.. ياله من نهار! وكان علي أن أصعد في كل لحظة بالقرب من الأم والابتسام في هدوء وأشرح أسباب غياب الصغيرتين وادعيت أنني أرسلتهما لقضاء يوم الأحد عند عمتهما "**دي فالا موريس**". ،بدا أنها صدقتني ولكن في وقت متأخر من المساء وأنا أسهر عليها وأنا أراقب من خلف زجاج النافذة الأنوار التي تجرى في السهل وعلى "**الرون**" بحثا عن الطفلتين فسمعتها تبكي على السرير وعندما سألتها ردت:

– إنني أبكي على شيء تخفونه عني ولكني توقعته على أية حال..

كان صوتها يشبه صوت فتاة صغيرة استردت قوة المعاناة ودون أن تحدثنا أكثر من ذلك؛ لأننا ظللنا معا نقلق في حزننا كل على حدة، وأخيرا يا بني العزيز وحتى لا أطيل في تلك الحكاية المؤلمة ففي صباح الاثنين عادت إلينا الصغيرتان بواسطة عمال يشغلهم عمك في الجزيرة. والذين وجدوهما فوق كومة من قسم الكروم وهما شاحبتان من البرد والجوع بعد تلك الليلة في الهواء الطلق ووسط الماء. وهذا ما حكتاه ببراءة قلبيهما. منذ وقت طويل. كانت الفكرة تعذبهما من أن تفعلا ما فعلتاه سيدتيهما "**مارتا**" و"**ماري**"

واللتين قرأنا حكايتهما وهي الذهاب في سفينة بلا أشرعة ولا مجاديف ولا تموين من أي نوع لينشرا الإنجيل عند أول شاطئ تدفعها إليه الريح من الله. ولذلك يوم الأحد بعد القداس حلا قاربا من مرساه وقد ركعتا على ركبتيهما أسفل القارب مثل القديسات بينما سحبهما التيار وجرفهما وذهبتا في هدوء لتغوصا وسط جذور ضيعة "**بيبوليت**" رغم شدة تيار حياة الموسم وهبات الريح والتيارات التحتية. نعم إن الإلة الكريم حفظهما وهو الذي أعادهما، تلك الجميلتين وقد عاقبهما بحرمانهما من متع يوم الأحد. لم يجد أحد لديه القوة لتوبيخهما وإنما تلقيان أذرعا مفتوحة وقبلات رنانة، وقد ظللنا جميعا مرضى الخوف الذي أصابنا والأمر المذهل أكثر هو أمك التي لم نقص عليها أي شيء أحست كما تقول بالموت يمر على "**كاستيليت**" وكانت هادئة ومرحة للغاية عن المعتاد وإن احتفظت بحزن لا يمكن أن يشفيه أي شيء آخر، رغم أن والدك وأنا وكل الناس حولها في حنان. وإذا ما قلت لك يا "**جان**" يا بني إنه أنت بالذات هو من تقلق عليه وتشعر باللهفة إليه. إنها لا تجرؤ على البوح به أمام الأب الذي كان يريد أن ندعك إلى عملك ولكنك لم تحضر بعد الامتحان كما وعدت. وأرجو أن تقدم لنا مفاجأة سارة بحضورك في أعياد الكريسماس حتى تستعيد مريضتنا ابتسامتها الطيبة. آه لو علمت عندما لا يكون عندنا هؤلاء العجائز ونفقدهم كم نندم على أننا لم نمنحهم ما يستحقونه من اهتمام ووقت.

وقف "**جان**" بالقرب من النافذة التي يتسلل منها نهار كسول من الشتاء وسط الضباب وهو يقرأ الخطاب وهو يستمتع بالذكريات الغالية للحنان والشمس الدافئة.

– ما هذا.. دعني أرى..

كانت "**فاني**" قد استيقظت أمام الشعاع النافذ من الستارة وهي لاتزال تعاني النعاس ومدت يدها بطريقة آلية نحو باقة زهور الميريلاند التي لازالت على الكومودينو تردد وهو يعلم مدى غيرة عشيقته التي تخنقه والتي يثيرها مجرد ذكر اسم "**ديفون**" ولكن كيف يمكن أن يخفي الخطاب الذي تعرف شكله والمكان المرسل منه؟

أولا هروب الفتاتين التوأم الذي أثاره بعض الشيء بينما ذراعاها ورقبتها العارية وقد أسندت كوعها على الوسادة وسط شلال شعرها الأسود. أخذت تقرأ وهي تدير سيجارة بين أصابعها، ولكن في النهاية توترت أعصابها إلى درجة الغضب فكرمشت الخطاب

وألقت به وسط الحجرة.

– إنني ألعن كل هذه النساء القديسات.. كل هذه الدعوات من أجل أن ترحل.. إن ابن شقيق زوجها مشتاقة له كثيرا.

أراد أن يمنعها من نطق الكلام المقذع، لم يسبق لها أن تمادت في صفاقتها أمامه وقد تجاوزت الحدود في ثورة غضبها. وكل لغة السوقة والحضيض التي تعلمتها في صغرها كأية شخص لا قيمة له أفلتت من بين شفتيها..

ولكن ليس من الحكمة أن يعترض. فقد حكى "**سيزار**" كل شيء. وليس من المعقول أن يقطع علاقته بها حتى لا يتيح لها الفرصة أن تتهمه بأنه سيندفع إلى "**ديفون**" ذات الجسد المخروطي الرائع. قالت له وهي ممددة في كراهية على السرير وقد تغضن وجهها وتضخمت ملامحها وأصبحت مثل حيوان مفترس على وشك الهجوم:

– أولا أنت تعلم أنك لو رحلت سأكتب إليها عن حبك لها.. –وسأحذرها. ولكن–.

وتذكر "**جوسان**" أنه رآها في تلك الحالة مرة في شارع "**أركاد**" ولكن الأمر الآن أصبح ضده هو ذلك الحقد والكراهية الغاضبة، الأمر الذي أعطاه رغبة شديدة أن يقفز على عشيقته ويضربها ولكنه خاف من نفسه وهرب إلى مكتبه وهو يشعر بالمهانة من تلك الحياة التي صنعها لنفسه بنفسه. لقد علمه هذا كيف يستسلم لمثل هذه المرأة! يالللفضائح ويا للرعب! بالنسبة لأمه ولأخته وكل الناس ما هذا.. هل ليس من حقه أن يذهب ليرى ذويه. ولكن أي سجن حبس نفسه فيه؟ وكل حكاية علاقتهما بدت له.. وتذكر ذراعي الفلاحة المصرية وقد عقدتا حول عنقه مساء الحفل الراقص وقد أصبحتا قابضتين عليه في طغيان وقوة. وقاحة أصدقائها وعائلتها والآن قرر قراره. وفي نفس المساء مهما كلفه الأمر سيرحل إلى "**كاستيليت**".

أنجز بعض الأعمال مقدما وحصل على إجازة من الوزارة وعاد إلى بيته مبكرا عن المعتاد وهو يتوقع مشهدا رهيبا واستعد لكل شيء حتى القطيعة. ولكن تحية الصباح الحلوة التي استقبلته بها "**فاني**" فور دخوله ورأى عينيها وخديها مبللة بالدموع لم تترك له سوى شجاعة الإرادة فقال وقد مد جسده:

– أنا راحل هذا المساء..

– الحق معك يا صديقي.. اذهب لترى أمك وانس أنني كنت شريرة فأنا أحبك جدا وهذا هو جنوني.

وطوال ماتبقى من النهار أخذت تعد له حقيبة سفره بكل دلال وقد عادت إلى دلال الأيام الأولى وتصرفت تلك التصرفات المهذبة أملا في الاحتفاظ به ولكنها لم تسأله مرة واحدة. "ابق" وعندما في الدقيقة الأخيرة ضاع كل أمل أمام استعداداته الأخيرة احتكت به واحتضنت حبيبها وهي تحاول أن تحتفظ به لأطول وقت ممكن وأن تعوضه مقدما عن مدة غيابه قالت له:

– خبرني يا "**جان**" ألا تريد حبا؟

*****

أوه.. يا لسكرة الصباح.. وهو يستيقظ في حجرة طفولته والقلب لايزال حارا من العناق العائلي وفرحة وصوله ومقابلة نفس المكان وتحت ناموسية سريره الضيق ويسمع صيحات الطاووس في عشه وأن يرى تلك الأشعة الحامية البيضاء الجميلة التي تتسلل من الستائر وهذا الأفق الممتد من تكعيبات الكروم بلا نهاية والزيتون وأشجار السرو والبلوط والتي تنتهي عند حدود نهر "**الرون**" تحت سماء عميقة صافية ونسيم الصبح القوي المنعش.

قارن "**جان**" هذا الاستيقاظ مع ما يحدث هنا تحت سماء مغبرة مثل حبه وأحس بأنه سعيد وحر.. هبط.. كان البيت الأبيض من سطوع الشمس لايزال نائما وكل مصاريع نوافذه مغلقة وكان سعيدا بلحظة الوحدة ليحاسب نفسه ويندم وسط هذه النقاهة الأخلاقية الذي أحس أنها بدأت تغزوه.

خطا بضع خطوات فوق الشرفة ثم اتخذ طريقه في ممر صاعد إلى الحديقة أو ما يسمونه متنزها وهي عبارة عن غابة من أشجار الصنوبر والسرو موجودة بمحض الصدفة إلى جانب "**كاستيليت**" تقطعها طرق جبلية غير مستوية وزلجة بسبب أشواك الصنوبر الجافة. كان كلبه العجوز "**ميراكل**" قد خرج وهو يعرج من وكره وتبعه في صمت في أعقابه. كم قاما بهذه النزهة الصباحية مرات لا عدد لها. وعند مدخل الكروم حيث كان سياج أشجار السرو العالية قد حنت قممها الرفيعة تردد الكلب.. كان يعرف أن

الأرض مغطاة بطبقة سميكة من الرمال كنوع جديد من علاج قمل العنب جربه القنصل مما سيجعل من الصعب على أقدام الكلب الضعيفة الواهنة السير عليها، تماما كما كان من الصعب عليه صعود درجات الشرفة ومع ذلك شجعه فرحه بعودة سيده وكان يصدر عند كل عقبة أو صعوبة يقابلها عواء شاكيا أو يقف عاجزا عند حفرة لا يستطيع صعودها. لم يكن "**جان**" ينظر إليه. عناقيد العنب الحمراء من نوع جديد الذي أخذ يشرحه له والده وقتا طويلا ليلة الأمس. وقد بدت جذوره لامعة فوق الرمال في شكل منتظم براق.. أخيرا سيكافأ الرجل العجوز العنيد على صبره المؤلم، إن بستان كروم "**كاستيليت**" سيعود إلى الحياة في الوقت الذي ماتت فيه كل بساتين "**ميرت**" و"**ابرميتاج**" وكل حقول الكروم الضخمة في الجنوب.

فجأة رأى الشعر الأبيض القصير واقفا أمامه. كانت "**ديفون**" وهي أول من استيقظت في البيت وفي يدها مقص شجر صغير، وشيء آخر ألقت به، وكانت بشرتها الخشنة عادة قد التمعت بحمرة شديدة.

– أوه.. هذا أنت يا "**جان**".. لقد أفزعتني لقد ظننتك أباك.

ثم استردت جأشها وقبلته وسألته :

– هل نمت جيدا؟

– جيدا جدا يا عمتي ولكن لماذا تخشين هكذا وجود أبي؟

– لماذا؟

التقطت عقلة العنب التي ألقت بها بعد أن انتزعتها وقالت له:

– لابد أن القنصل قد أخبرك أنه سينجح هذه المرة.. ولكن ها هي الحشرة تأملها!

رأى "**جان**" قملة صغيرة صفراء مغروسة في الخشب وهي التي أهلكت مقاطعات بأكملها وهي من سخرية الطبيعة، وفي هذا الصباح الرائع تحت الشمس الحامية تعيش هذه المخربة الدقيقة الحجم التي يصعب رؤيتها بالعين المجردة. لا شيء يقتلها أو يبيدها. أكملت "**ديفون**":

– إنها المقدمة وخلال ثلاثة أشهر ستلتهم كل البستان وسيبدأ والدك من جديد لأنه وضع كبرياءه في تحد لها وسيزرع نباتات جديدة وعلاجا جديدا إلى اليوم..

وبحركة يائسة أنهت عبارتها. فقال:

– هل حقا نحن هكذا؟

– أوه.. أنت تعرف القنصل.. إنه لا يقول شيئا على الإطلاق وتمر علي الشهور متشابهة ولكني أراه دائما مشغول الذهن. إنه يسرع إلى "**أفينون**" و"**أورانج**" وهناك يبحث عن المال . سأل الشاب في قلق:

– وماذا عن عمليات غمر "**سيزار**" الكروم بالماء؟ حمدا لله فإن الأمور هناك تسير سيرا حسنا وقد حصلوا من هناك على خمسين قطعة من عناقيد العنب في آخر محصول، وهذا العام ستنتج الضعف. وأمام هذا النجاح تنازل القنصل لأخيه عن كل كروم السهل التي أصبحت هشيما وخشبا جافا مثل مقابر القرية. وهي الآن مغمورة بالمياه لمدة ثلاثة شهور، وكانت فخورة بعمل رجلها "**فينان**" . أشارت المرأة الريفية لـ"**جان**" إلى مكان مرتفع حيث يوجد مخازن كبرى ومساحات خالية وأكوام الكرنب التي تشبه أكوام الملح في الملاحات.

– خلال عامين هذه الخرابة ستنتج وفي سنتين أيضا مزرعة "**لابيبوليت**" وكذلك جزيرة "**لاموت**" التي اشتراها عمك دون أن يقول. إذن سنصبح أغنياء ولكن يجب الوقوف عند هذا الحد على الجميع أن يبذل كل جهده وكل تضحياته.

كانت تتحدث بمرح عن التضحية كامرأة لم يعد يدهشها شيء وبسهولة جعلت فكرة مفاجئة تخترق عقل "**جان**" ورد عليها بنفس لهجتها المرحة:

– إننا سنصحو يا "**ديفون**" .

وفي نفس اليوم كتب إلى "**فاني**" بأن والديه لن يستطيعا الاستمرار في إرسال معاشه الشهري وأن دخله سيقتصر على ما يحصل عليه من مهامه في الوزارة وأنه وسط هذه الظروف فإن حياة اثنين معا تصبح مستحيلة. كان هذا انفصال وقطع علاقة قبل موعدها بثلاث أو أربع سنوات وهو الموعد المتوقع لرحيله بعيدا عن البلاد ولكنه كان يعتمد على أن عشيقته ستتقبل الأسباب الخطيرة وأنها ستشفق عليه وعلى آلامه وتساعده في إتمام واجباته المؤلمة.

هل كان هذا تضحية فعلا؟ أليست بالعكس خلاصا وانتهاء من وجود كان بالنسبة له ممقوتا وغير صحي خاصة منذ أن عاد إلى الطبيعة والأسرة وإلى العواطف البسيطة والشرعية؟ لقد كتب خطابه دون صراع أو عذاب. وكان يحسب حساب رد غاضب

مليء بالتهديدات والتجاوزات، واعتمد على القلوب الطيبة التي تحيط به خاصة قلب أبيه الرجل المستقيم والصالح الأمين وابتسامات صادقة لشقيقتيه التوأم، وعلى الآفاق الكبرى ذات الجو الصحي وسط الجبال، وتلك السماء العالية وذلك النهر السريع. لأنه عندما فكر في عاطفته وكل الموبقات التي ارتكبها بسببها يتصور أنه نجا من حمى قاسية.

مرت خمسة أو ستة أيام في صمت على الضربة الكبرى. وكان "**جان**" يذهب ويأتي إلى مكتب البريد ويعود خاوي اليدين وهو مضطرب بشكل غريب ما الذي تفعله؟ ما الذي قررته وعلى أية حال لماذا لم ترد عليه؟ إنه لم يعد يفكر إلا في ذلك. وفي الليل كان الجميع ينامون في "**كاستيليت**" مع صوت هبوب الرياح عبر الدهاليز الطويلة وكان ينام هو و"**سيزار**" في حجرة الأخير. قال العم:

– إنها في حالة وصول..

فكانت حالة قلقه تتضاعف وأنه كان عليه أن يضع مع الخطاب نقودا سدادا لأقساط لمدة ستة أشهر أو عام من الدين الذي عليه مع الفائدة. ولكن كيف يمكنه أن يدفع تلك النقود؟ كيف يمكن أن يشرح ذلك لـ"**ديفون**"؟ كان يرتجف لمجرد التفكير في ذلك. كان العم يشعر بالغم لما سببه من ضيق لابن أخيه وكانت الليلة قد أوشكت على الانتهاء عندما قال له في حزن:

– هيا تصبح على خير.. على أية حال فإن ما فعلته أمر طيب.

وأخيرا وصل الخطاب المنتظر ومن السطور الأولى:

– رجلي العزيز.. أنا لم أكتب لك قبل ذلك لأنني متمسكة بأن أثبت لك العكس وليس بالكلمات إلى أي حد أحبك وأفهمك..

توقف "**جان**" عند ذلك وهو مندهش كرجل يسمع سيمفونية موسيقية بدلا من فاصل من الردح والشتائم كان يخشاه. قلب بسرعة آخر صفحة حيث قرأ فيها:

– ابق حتى موت كلبك الذي يحبك ويمكنك أن تكافح مع من يستطيع أن يداعبك في حنان.. إنها إذا لم تتلق خطابه! ولكن عندما أعاد قراءة خطابها سطرا سطرا والدموع في عينيه فإن الخطاب الأخير يعد ردا فيه تقول "**فاني**" إنها كانت تنتظر من زمن بعيد هذا الخبر السيء وأن حالة "**كاستيليت**" الميؤوس منها ستؤدي إلى الفراق الذي لا مفر

منه. لقد بدأت في الحال في البحث عن وظيفة حتى لا تظل عبئا عليه وعثرت على إدارة لفندق مؤثث في شارع "**بوادي بولوني**" لحساب سيدة ثرية جدا مقابل مائة فرنك في الشهر مع وجبات مجانية وإقامة مع إجازة يوم الأحد.

– هل فهمت يا رجلي.. يوم كامل في الأسبوع لنتبادل فيه الحب. لأنك لازلت تريد ذلك أليس كذلك؟ وستكافئني على المجهود الكبير الذي سأبذله في العمل لأول مرة في حياتي. وتلك العبودية ليل نهار التي أقبلها بكل امتهان لا يمكنك أن تتصوره والذي سيكون ثقيلا على جنوني بالاستقلال. ولكني أشعر برضاء كامل وغير عادي من حبي لك والعذاب بحبك. أنا مدينة لك بالكثير ولقد جعلتني أفهم أشياء كثيرة صادقة وطيبة لم يسبق لأحد أن حدثني عنها. آه لو كنا التقينا قبل ذلك بزمن بعيد! ولكنك كنت لاتزال تحبو في الوقت الذي كنت أنتقل فيه بين أحضان الرجال، والذي لم يستطع أي واحد منهم قط أن يجعلني أوافق على الاستمرار معه وقتا طويلا. والآن لتعد في الوقت الذي يناسبك فالشقة خالية وقد جمعت كل متعلقاتي وكانت هذه أصعب مهمة وهي أن أفرغ الأدراج والذكريات. إنك لن تجد سوى صورتي التي لن تكلفك شيئا. آه يا صديقي.. يا صديقي! أخيرا إذا لم تحتفظ لي بأيام الأحد وبمكاني بين ذراعيك.. مكاني هل فهمت..؟

وأحس بأنه تنبعث من الورقة الناعمة مداعبات وملامسات عاطفية وكأنها ملموسة. تساءل العم "**سيزار**" في خجل.

– إنها لم تذكر الكمبيالات الخاصة بي.

– إنها سترسلها لك عندما تصبح غنيا لترد قيمتها.

أطلق العم زفرة ارتياح. وقد انتفخت أوداجه من الرضا وبجدية قال بلهجة أهل الجنوب:

– هل تحب أن أخبرك.. أن تلك المرأة هناك إنها قديسة.

ثم انتقل إلى مجموعة أخرى من الأفكار بالسرعة وعدم المنطق وضعف الذاكرة التي تميزه.

– ويالها من عاطفة... يا طفلي.. وكم هي من نار إن فمي يجف تماما كما يحدث عندما كان "**كورباس**" يقرأ لي مراسلات "**لامورنا**" له.

ولمرة أخرى كان على "**جان**" أن يتحمل أول رحلة إلى "**باريس**" إلى فندق "**كوجا**" في "**بليكيل**" ولكنه لم يسمع وهو مستند بكوعه على النافذة المفتوحة وسط الليل الدامس إلا صوت الديوك التي انخدعت في ضوء القمر فحسبته الفجر.

كان هكذا ممتنا لها لأنها وجدت هذه الوسيلة لإنهاء العلاقة أو ما يشبه القطيعة حيث تتعود على العمل الصعب جدا على طبيعتها المتمردة. وبلهجة أبوية لرجل عجوز كتب لها في اليوم التالي ليشجعها على ثورتها الإصلاحية ويتساءل عن نوع الفندق الذي تديره وعن الناس الذين يرتادونه لأنه كان لا يثق بتسامحها وسهولة أن تقول بثقة: ماذا تريد؟ هكذا الأمر.. ورسالة برسالة رسمت له "**فاني**" باستسلام الفتاة الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة صورة للفندق على أنه بيت عائلة حقيقي يسكنه الأغراب. وفي الدور الأول عائلة من "**بيروفيا**" مكونة من أب وأم وأطفال وخدم عديدين وفي الطابق الثاني روسيون وهولاندي ثري تاجر مرجان. وغرف الدور الثالث تأوي اثنين من مروضي الخيول وإنجليزيا أنيقا على آخر شياكة وثنائيين مثيرين للاهتمام، الآنسة "**مينا فوجل**" عازفة قيثارة من "**شتوتجارت**" وأخيها "**ليو**" المسلول المسكين والذي اضطر لقطع دراساته للعزف على الكلارينيت في "**كونسرفاتوار باري**" والذي حضرت أخته الكبرى لرعايته ولا مصدر للإعاشة لديهما سوى الاشتراك في العزف في بعض الحفلات لرفع أجر الفندق والإعاشة.. كل ما يمكن أن يكون شريفا لأقصى درجة يا صديقي العزيز كما ترى. أنا نفسي يعتبروني أرملة ويبدون نحوي كل أنواع الرعاية والاهتمام وأنا لم أعان في البداية أكثر مما عانيته فيما مضى.. لابد أن تكون امرأتك محترمة وعندما أقول امرأتك افهمني جيدا. اعلم أنك سترحل في يوم ما وأنني سأفقدك، ولكن بعد ذلك لن يكون هناك غيرك وساظل للأبد ملكك، وأحتفظ بطعم مداعباتك واللحظات السعيدة التي أيقظتها بداخلي. أليس غريبا هذا الذي أقوله: "**صافو**" صالحة نعم امرأة فاضلة عندما لا تكون موجودا، ولكن بالنسبة لك سأحتفظ بأنك محبوبي وأنني أهذي وأحترق لأنني أعشقك..

فجأة تملك "**جان**" حزن مزعج كبير. إن عودته إلى صورة الطفل المعجزة بعد مزحة الوصول وبعد مديح المرأة وحنانها كان لايزال يعاني مطاردة حياة الترحال والندم على القطيع الكسول الذي كان عليه أن يقوده. لم يعد لصباح شتاء الريف نفس الحبور

الخفيف ولا جاذبية مطاردة القندس على طول المراعي. لقد وجد "**جـان**" الرياح قـوية والماء قذرا والنزهات وسط الكروم المغمورة بالماء مملة وعلى وتيرة واحدة خاصة مع العم الذي يشرح طريقته في زراعة العنب وخلافه.

وكانت القرية التي كان يراها في أيام صباه وهو يجري في مرح صبياني، والأكواخ القديمة بعضها مهجور، كلها الآن تفوح منها رائحة الموت والهجران كقرية إيطالية.. وعندما كان يهب إلى مكتب البريد كان عليه أن يتحمل وهو واقف على أحجار تصعد منها نار جهنم.. ثرثرة كل هؤلاء العجائز الذين انطلقوا في أحاديثهم كالرياح المستمرة وأذرعهم موضوعة في جوارب من التريكو، والنساء العجائز ذوات الذقون داخل شدادات صفراء وطواق ضيقة وعيون صغيرة لامعة. وهو يسمع دائما نفس الشكاوى والولولة حول موت بساتين الكروم التي ستفلس هذه البلاد الجميلة. وأحيانا حتى يتجنبهم كان يأتي عن طريق الحواري من فوق الهضبة الممتدة بطول الجدران القديمة لقصر البابوات وهي حوار مهجورة مزدحمة بالأنقاض والقاذورات والأعشاب الضخمة البرية.

ووقتها كان يقابل القس. "**مـالاسـاني**" العائد من إلقاء موعظته وهو يسير عائدا بخطوات ثائرة وقد ارتدى قلنسوته بالعكس، وقد رفع قفطانه بيديه بسبب الأعشاب والطين. وقف القس يصرخ ضد قسوة الفلاحين وعدم إيمانهم وفضائح المجلس البلدي. وكان يلقي بلعناته على الحقول والحيوانات والناس والكفرة الذين لم يعودوا يذهبون إلى القداس والذين يدفنون موتاهم دون المراسم الدينية ويعالجون أنفسهم بالروحانيات حتى يوفروا ثمن القس والطبيب .

– نعم يا سيدي.. إنها الروحانيات! إلى هذا الحد وصل.. فلاحونا.. في مقاطعتنا وأنت وهم هل تريدون الكروم ألا تمرض؟

كان "**جـان**" معه خطاب "**فـاني**" مفتوحا وقد دسه في جيبه، أخذ ينصت ونظراته شاردة وهو يهرب قدر المستطاع من عظة القس وعاد إلى "**كـاستيليت**" ليحتمي داخل فجوة صخرة تحميه من الرياح التي كانت تهب حوله وركز ضوء الشمس على الخطاب. كان قد اختار أكثر الأماكن المهجورة وأكثرها برية وقد غزتها جذور الكروم وأشجار البلوط ودفن نفسه فيها حتى يقرأ الخطاب. وبعد قليل من تشمم الرائحة الطيبة المنبعثة

من الخطاب ومداعبة الكلمات والصور التي أثارها انتابته نوبة عاطفية زادت من سرعة نبضه وأصابه هوس جعل النهر والصخور والأشجار وكل شيء يختفي من أمامه، وأصبح الآن يتصور أنهما في حجرتهما أمام محطة القطار ذات الأسطح الرمادية فريسة للمداعبات المجنونة التي غرقا فيها حتى الجنون.

فجأة سمع خطوات في الطريق الجبلي وضحكات صافية: إنه هناك! ثم ظهرت أختاه الصغيرتان بسيقانهما الرفيعة يقودهما الكلب العجوز "**ميراكل**" وهو فخور لأنه اقتفى آثار سيده وهو يحرك ذيله في انتصار. ولكن "**جان**" ركله ركلة ألقت به بعيدا ورفض أن يلعب معهما لعبة الاستغماية ومع ذلك هو يحبهما تلك التوأمتين اللتين كانتا يهمسان حبا بالأخ الذي كان بعيدا عنهما، وكانت إحداهما سمراء طويلة وشعرها مجعد وهي التي خطرت على بالها فكرة الملجأ مدفوعة بكتابات القس "**مالاساتي**" وهي "**ماري**" ذات الشكل المصري، وقد سحبت توأمها الشقراء الصغيرة "**مارتا**" وهي مرتخية بعض الشيء ورقيقة تشبه أمها وأخيها.

ولكن يا له من ضيق مزعج في الوقت الذي كان يجتر فيه ذكرياته وجد أن تلك الصغيرتين تتمسحان به وتشتمان عطر الخطاب فقال لهما:

– لا.. يجب أن أعود إلى العمل.

ثم عاد إلى البيت وقرر أن يحبس نفسه في حجرته عندما سمع صوت أبيه يناديه وهو يمر على الحجرة.

– هل هذا أنت يا "**جان**"؟ اسمع إذن! لقد أثارت جرائد الصباح موضوعات معكرة للمزاج لذلك الرجل المكتئب بطبعه وقد احتفظ من الشرق بعادات التبجيل الصامت يقطعها بعض الذكريات عندما كان قنصلا في "**هونج كونج**".. وبينما "**جان**" يستمع إلى أبيه وهو يناقش جرائد الصباح كان ينظر إلى المدفأة، إلى صورة "**صافو**" للرسام "**كودال**" وذراعاها على ركبتيها وقيثارتها بجوارها، إنها لوحة من البرنز اشتراها من عشرين عاما أثناء عملية تجميل "**كاستيليت**" وكانت اللوحات البرنزية التي تثير نفوره في فترينات "**باريس**" تعطيه الآن بمفردها عاطفة عشق ورغبة في أن يقول لها:

– "**صافو**" لك وأنت لـ"**صافو**" وكان اسم "**صافو**" يردد على وتيرة واحدة مع هزات بندول الساعة القديمة. واسمها الذي يجده في كل الكتب بهذه المكتبة الريفية وتلك

الذكرى التي تضطهده لعشيقته وتتبعه حتى حجرة أمه حيث تقوم "**ديفون**" بالعناية بتمشيط شعر المريضة، وترفع شعرها الأبيض الجميل من فوق ذلك الوجه الذي ظل وقورا ووورديا رغم العذاب المنوع والمستديم. قالت الأم ورقبتها عارية وتسريحة شعرها الصغيرة وقد شمرت كميها حتى الكوعين من أجل تلك التسريحة التي ذكرته عمته بمرات مختلفة من الاستيقاظ واستحضرت له ذكرى عشيقته وهي تقفز من فوق السرير وحولها سحابة من دخان السجائر. قالت السيدة "**جوسان**" في حزن :

– آه.. ها هو ابني "**جان**". أن ابننا لم يعد كما كان يا أختي الغالية. ما الذي به؟ وأخذتا تبحثان سويا. وأخذت "**ديفون**" تعمل فكرها العبقري وودت لو سألت الشاب ولكن يبدو أنه يتهرب منها الآن ويتجنب أن ينفرد بها .

وفي إحدى المرات راقبته وفاجأته في مخبئه أثناء حمى خطاباته وأحلامه السيئة. نهض وعيناه معتمتان. أمسكت به ومنعته من الهروب ثم جلست بالقرب منه فوق الحجر الساخن .

– إذن أنت لم تعد تحبني؟ أنا لم أعد "**ديفون**" التي كنت تقول لها كل متاعبك؟

تلعثم وقد اضطرب من الطريقة الحانية وأشاح بعينيه بعيدا حتى لا تعثر فيهما على شيء يمكن أن تقرأه مثل نداء الحب وصرخات الضياع وهذيان الحب عن بعد :

– ولكن لم يحدث شيء.. أنت بالنسبة لي كما كنت .

همهمت "**ديفون**" في دلال وكأنها تداعب طفلا :

– ما الذي بك؟.. لماذا أنت حزين؟ إنه مثل صغيرها وسيظل هكذا بالنسبة لها وهو في سن العاشرة في سن الرجال الصغار المتحررين، أما هو فكان يحترق بقراءاته وقد تحمس أمام سحر هذا الجسد المبهر والمزعج. وذلك الفم الطازج الذي يمتلئ بالدماء التي أحيتها طراوة الجو والذي كان يعاكس الشعر ويجعله يتطاير فوق الجبين في رجفات رقيقة تشبه الموضة الباريسية. ثم دروس "**صافو**".. كل النساء سواسية أمام الرجل لا يكون في رؤسهن سوى فكرة واحدة.. الأمر الذي اعتبر ابتسامة الفلاحة السعيدة مثيرة، وكذلك حركتها وهي تمسك به لاستجوابه في رقة.

فجأة أحس بتصاعد الدوار لإغراء سيئ والجهد الذي بذله حتى يقاوم هزة ارتجافة عصبية. فزعت "**ديفون**" وهي تراه شاحبا لهذه الدرجة وأسنانه تصطك ببعضها. قالت

في نفسها.. يا للمسكين إنه مصاب بالحمى وبحركة حنان طبيعية وعفوية خلعت الوشاح الذي كانت ترتديه حول وسطها ولفته حول رقبته ولكنها فجأة أخذت على غرة وأحست بأنه أحاطها بذراعيه وأحرقتها رغبة مجنونة على رقبتها وكتفيها وكل اللحم العاري الذي كان يلمع تحت ضوء الشمس. لم تجد وقتا لأن تصرخ ولا أن تدافع عن نفسها وربما لم تجد العاطفة التي تتقبل ما حدث. أخذ يقول في نفسه "أنا مجنون.. أنا مجنون" وهرب وهو يجري فوق جرف الصخور التي أخذت تتدحرج تحت أقدامه.

وفي وقت الغداء أعلن "**جان**" أنه سيرحل في نفس المساء بناء على استدعاء وزاري وانطلقت صيحات التضرع:

– ترحل هكذا بسرعة! أنت بالكاد وصلت ولكنه لم يعد يستطيع أن يظل معهم بعد الآن، مادام وسط كل الحنان والمحبة تسلل فساد "**صافو**" وتسميمها لعواطفه وأفكاره. ثم ألم يقدم لهم أكبر تضحية وهو يتخلى عن حياته المزدوجة معها؟ إن القطيعة النهائية ستأتي فيما بعد وسيعود ليحب دون شعور بالعار ولا الضيق وأن يعانق كل هؤلاء الناس الطيبين.

كان الوقت ليلا والبيت في سبات عميق والأنوار مطفأة عندما عاد "**سيزار**" ليصحب ابن أخيه إلى محطة قطار "**أفينون**"، وقد أعطى الدريس للحصان بعد فحص السماء، وأخذت عيناه تتطلعان إلى إسراع الزمن وإلى الناس الذين يعيشون على الأرض. كان سيعود عندما رأى هيئة بيضاء فوق دكة في الشرفة.

– هل هذه أنت يا "**ديفون**"؟

كانت مشغولة طوال النهار ومنفصلة عن زوجها الذي تعشقه "فينان" كان عندها موعد في المساء للثرثرة والحديث والقيام بنزهة سويا، هل كان المشهد القصير بينها وبين "**جـــان**" الذي فهم منه أنها لا ترغب التفكير فيه ولا تريده أصلا. أم أن العاطفة التي اجتاحتها وهي ترى أمه تبكي طوال النهار؟ كان صوتها متغيرا وأحس بقلق غريب عند تلك الشخصية الهادئة النفس بطريقة غير عادية والتي تعرف ما هو الواجب.

– هل علمت شيئا؟ لماذا تركتنا هكذا فجأة؟ إنها لا تصدق حكاية الوزارة وهي تشك أكثر في أن اتصالات سيئة هي التي تنزع الابن من بين عائلته. الأخطار عديدة وقاتلة في لقاءات "**باريس**" الضائعة.

أما "**سيزار**" الذي لم يكن يعرف شيئا يخفيه عنها، اعترف أنه في الحقيقة امرأة في حياة "**جان**" ولكنها مخلوقة طيبة عاجزة عن انحراف أحد من عائلته وتحدث عن مدى إخلاصها وعن الخطابات المؤثرة التي كتبتها وهي تمدح بشكل خاص قرارها الشجاع الذي اتخذته للعمل وإن بدا هذا أمرا طبيعيا بالنسبة للفلاحة والتي قالت:

– بالتأكيد لابد من العمل لتعيش.

قال "**سيزار**":

– ليست النساء من هذا الصنف.

– إذن هي لا شيء على الإطلاق تلك التي يعيش معها "**جان**". وهل ذهبت إلى هناك؟

– أقسم لك يا "**ديفون**".. منذ أن عرفته لا يوجد امرأة مثلها في حشمتها وأمانتها لقد أصلحها الحب.

ولكنها كانت كلمات طويلة وعميقة لا تفهمها "**ديفون**" بالنسبة لها تلك السيدة من تلك الزمرة التي تسميها النساء الفاسدات ومجرد فكرة "**جان**" فريسة لمخلوقة مثلها كانت تشعرها بالمهانة.. ماذا لو شك القنصل في ذلك؟

حاول "**سيزار**" أن يهددها محاولا بكل حركات وجهه وتقطيباته أن يقنعها أن شابا في مثل سن "**جان**".. لا يمكن أن ينجو من الحب.

وردت عليه بلهجة حانية:

– وما رأيك فيما لو تزوج؟

– في الحقيقة لم يعودا معا بعد.. هكذا الأمر دائما..

ردت عليه بلهجة قاسية:

– اسمع يا "**سيزار**".. أنت تعلم ماذا يقولون عندنا: إن سوء الحظ يستمر دائما أطول ممن يسببه. وإذا كان الأمر حقا كما تقول وإذا كان "**جان**" قد انتزع تلك المرأة من الوحل فربما هو أيضا تلوث أثناء تلك العملية الحزينة. من الممكن أنه حولها إلى الأفضل والأشرف ولكن من يدري إذا كان السوء الذي بداخلها قد أفسد ابننا حتى القلب!

عادا إلى الشرفة. الليل ثقيل ولزج على كل الوادي الصامت حيث لا يعيش سوى الضوء الزاحف من القمر والنهر متلاطم الأمواج والبريق الذي يشبه شرائح الفضة. كانا

يستنشقان الهدوء والبعاد عن كل شيء والراحة الكبرى في نعاس بلا أحلام.

فجأة تقدم القطار سائرا بجوار نهر "**الـرون**" وقد تحشرج صوته وسط دخانه. قالت "**ديفون**" :

– أوه.. إنها "**باريس**".

أشارت بأصبعها نحو العدو الذي يحمله الريف بكل ثورات غضبه.

– هذه "**باريس**"! هذا ما نعطيه لها وهذا ما تعيده إلينا.

الفصل السابع

كان الجو باردا ضبابيا بعد ظهر يوم قاتما في الرابعة، حتى في ذلك الميدان الفسيح بـ"**الشانزليزيه**" حيث كانت العربات تسارع بأصوات مزعجة تصم الآذان. وبالكاد استطاع "**جان**" أن يقرأ داخل حديقة صغيرة كانت بوابتها مفتوحة تلك الكلمات بأحرف ذهبية والعالية فوق كوخ "شقق للإيجار.. بنسيون عائلي" بينما ركنت سيارة مكشوفة بجوار الرصيف.

دفع "**جان**" باب المكتب ورآها في الحال تلك التي كان يبحث عنها جالسة في ضوء النافذة وهي تتصفح كتابا ضخما للحسابات في مواجهة امرأة أخرى أنيقة وضخمة وفي يدها منديل وحقيبة صغيرة للنقود.

– ماذا تريد يا سيدي؟

عرفته "**فاني**" ونهضت وهي مأخوذة ثم مرت أمام السيدة وقالت بصوت منخفض:

– إنه الصغير.

فحصت المرأة الأخرى "**جوسان**" من رأسه لقدميه بتعال دون أن يبدو عليها الضيق وهي تقول :

– تبادلا القبلات يا ابناي.. أنا لن أنظر إليكما .

ثم جلست مكان "**فاني**" وأخذت تراجع الأرقام، تشابكت أيديهما وتهامسا كلمات حمقاء :

– كيف الحال؟ لا بأس وشكرا.. إذن أنت رحلت مساء أمس؟

ولكن تنوع لهجتهما أعطت العبارات معاني مختلفة وحقيقية وعندما جلسا على الأريكة تمالكا نفسيهما قليلا. قالت له "**فاني**" بصوت منخفض :

– ألم تتعرف على رئيستي؟ ومع ذلك سبق لك أن رأيتها.. في الحفل الراقص في قصر "**ديشيليت**" في زي عروس إسبانية.. كانت عجوزا بعض الشيء.

– إذن هي؟

– "**روزاريو سان شيز**" زوجة "**بوتيه**" كانت "**روزاريو**" أو "**روزا**" اسمها مكتوب على كل مرايا المطاعم الليلية ومحاطة ببعض الطقوس. كانت في الحقيقة "سيدة

العربات" القديمة في مضمار السباق الشهير في عالم الزفاف بالفسوق الوقح، ولسانها السليط وامرأة مطلوبة جدا من رجال الدائرة، والذين كانت تقودهم بالجياد . كانت إسبانية من "**دوران**" كانت فاتنة أكثر منها جميلة ولاتزال عيناها تجتذبان بعض التأثير بسوادهما اللامع، وقد تعدت الخمسين من عمرها وتتميز بوجه مسطح قاس وبشرتها مشدودة وصفراء مثل ليمون بلدها. وكانت على صلة حميمة جدا مع "**فاني**" لسنوات طويلة، وكانت وصيفتها في علاقاتها المشبوهة ،وكان مجرد اسمها يرعب العاشق الصغير .فهمت "**فاني**" أسباب ارتجاف ذراعه وحاولت الاعتذار. لمن تتوجه طلبا لعمل؟ لقد كانت محرجة جدا. أولا "**روزا**" الآن هادئة وثرية جدا تعيش في فندقها في ميدان "**فيليه**" أو فيلتها في "**دانيان**" وتستقبل بعض أصدقائها القدامى ولكن لها عشيقا واحدا هو الموسيقار سألها "**جان**" :

– هل هو "**بوتيه**" دائما؟ لقد ظننت أنه متزوج.

– نعم متزوج ولديه أطفال. ويبدو أيضا أن زوجته جميلة. ومع هذا لم يمنعه ذلك من العودة إلى القديمة ولو رأيت كيف تتحدث هي إليه وكيف تعامله. إنه ملحوس فعلا.

شدت على يديه في تأنيب رقيق. قطعت السيدة قراءتها في تلك اللحظة وأخذت حقيبة يدها وقالت في لهجة المديرة الآمرة:

– ولكن لتظلا إذن هادئين.. هيا.. أعطيني بسرعة قليلا من السكر من أجل "**بيشيتو**".

نهضت "**فاني**" وأحضرت السكر الذي قربته من فم المخلوق المثير للضحك وهي تلاطفه بكلمات طفولية وقالت لحبيبها:

– انظر إلى هذا الحيوان الصغير الجميل.

وأشارت إليه إلى نوع من سحلية الليزار الضخمة محاط بالقطن المندوف وشكله مسخ بلا أسنان وقد لفت رأسه بقلنسوة من الدانتيلا وملفوف بالدانتيلا حول جسده المجعد. لقد كان هدية مرسلة لـ"**روزا**" من الجزائر وكانت تحميه من برد شتاء "**باريس**" وحرارة الصيف. لقد كانت تحبه أكثر من أي رجل وأضاف "**جان**" إلى مجموعة حماقات "**فاني**" المكانة العالية التي تحتفظ بها لهذا الحيوان المقزز في نفسها.

أغلقت السيدة الكتاب واستعدت للرحيل:

ـ لا بأس بالنسبة لنصف الشهر فقط أرجوك أن تنتبهي إلى الشموع.

ألقت نظرة صاحبة المكان حول الصالون الصغير المرتب والمزود بالأثاث المكسو بالقطيفة ثم نفضت بعض الغبار عن شراشيب بعض المقاعد ثم قالت للشابين بعين فاهمة:

ـ هل تعرفان يا صغيريَّ.. لا داعي للحماقات إن البيت محترم جدا.

ثم لحقت بسيارتها التي كانت بانتظارها في الخارج عند الباب، ثم رحلت هي في جولتها بالغابة قالت "**فاني**" له:

ـ هل تعتقد أن هذا الأمر يهد الحيل.. إنه على عاتقي مرتين في الأسبوع سواء معها هي أو مع أمها. إن الأم لازالت رهيبة ومزعجة.. يجب أن أحبك اذهب ولتنتظرني في ذلك الكوخ. أخيرا هانت .. لقد أصابني رعب شديد.

ثم احتضنته وهي واقفة لمدة طويلة جدا وهي تحاول التأكد أنه لايزال لها كلمة ولكن الناس تذهب وتجيء في الدهليز ويجب ألا يحسا بالأمان. وعندما أحضرا المصباح جلست عند مكانها المعتاد وبين يديها كتاب صغير أما هو فقد كان قريبا منها وكأنه في زيارة.

ـ هل تغيرت؟ ألازلت أشبه نفسي بعض الشيء؟

كانت تبتسم وهي تريه أشغال الكروشيه الصغيرة في طيش فتاة صغيرة لا خبرة لها، لقد كانت دائما ما تكره كل أعمال الإبرة هذه وقراءة كتاب أو العزف على البيانو أو تناول سيجارة أو أن تشمر أكمامها من أجل إعداد وصفة طعام. إنها لا تجد ما يشغلها أبدا سوى ذلك. ولكن هنا ماذا تفعل؟ إنها لا تستطيع أن تفكر في بيانو القاعة طوال النهار حيث كانت مضطرة لأن تلازم المكتب الصغير. وماذا عن الروايات؟ إنها تعرف حكايات أخرى تختلف عما تقصه تلك الروايات. وبسبب غياب السيجارة الممنوع تدخينها اضطرت للانشغال بتلك القطعة من الدانتيلا حتى تشغل أصابعها مما يدعها حرة التفكير وهي تفهم في تلك الساعة اهتمام النساء بتلك الأعمال التافهة التي طالما احتقرتها فيما مضى.

وبينما تمسك هي بالخيط بطريقة خرقاء كان "**جان**" يتاملها وهي مسترخية تماما في

ثوبها البسيط ذي الياقة الصغيرة المستقيمة وشعرها الناعم المسطح على جمجمتها المستديرة، غريبة الشكل ومظهرها البريء للغاية ورزانتها البادية.

أما في الخارج وسط ديكور فاخر يجري باستمرار قطار الفتيات على آخر موضة وهن يهبطن على "**باريس**" وشوارعها الصاخبة وميادينها المرحة، ولا يبدو على "**فاني**" أي ندم على تلك الخطيئة المنتشرة والمنتصرة التي كان من الممكن لها أن تأخذ مكانها بينها، والتي احتقرتها من أجله بشرط: أن يوافق على أن يقابلها من حين لآخر. لقد قبلت في سعادة حياة العبودية بل وجدت فيها بعض الجوانب المسلية.

وكان كل النزلاء يعشقونها. والنساء غريبات محرومات من الذوق يستشرنها من أجل مشترياتهن لأدوات التجميل. وكانت تعطي دروسا للغناء لأكبر الفتيات البيروفيان وتعطيهن كتبا ليقرأنها. وكانت تستشير السادة الرجال الذين كانوا يعاملونها بمختلف درجات التقدير والاحترام والحشمة وخاصة واحدا منهم هولنديا في الدور الثاني:

– إنه يجلس حيث تجلس أنت الآن ويظل في تأملاته حتى أقول له: "**كوبير**" أنت تضايقني وعندها يرد علي: حسنا ثم يرحل.. وهو الذي أعطاني هذا البروش من المرجان.. أتعرف أنه يساوي مائة فرنك وقد قبلته من أجل أن أحقق السلام.

دخل جرسون وأحضر صينية محملة وضعها على حافة المكتب وأرجع للخلف طبقا أخضر. أشارت إلى طبقين من الطعام الدسم وقالت:

– إنني هنا أتناول طعامي بمفردي قبل ساعة من إعداد مائدة طعام الفندق. إن المديرة ليس لها الحق إلا في طبقين من الحساء.. هل تعتبر كلبة هذه المرأة "**روزا ريو**"؟ وغير ذلك فإني أحب أن آكل هنا أفضل فلست في حاجة إلى الكلام وأعيد قراءة خطاباتك التي لا تفارقني. قطعت كلامها مرة ثانية لتفرد مفرشا وفوطا وفي كل لحظة يزعجونها.. بأمر لابد أن تصدره ودولاب لابد من فتحه وطلب لابد من الوفاء به. فهم "**جان**" أنه سيضايقها لو بقي أكثر من ذلك. ثم رصوا غذاءها وكان مثيرا للشفقة، تلك سلطانية الحساء الصغيرة جدا والتي امتلأت لنصفها وتصاعد منها البخار مما أوحى لكليهما بفكرة واحدة: نفس الندم على لقاءاتهما السابقة وجها لوجه. همهمت بصوت منخفض وهي تتخلص منه:

– إلى اللقاء يوم الأحد.. إلى اللقاء يوم الأحد ولما لم يكن من الممكن أن يتبادلا

القبلات بسبب هيئة الخدمة ووجود النزلاء الذين بدأوا يهبطون من حجراتهم، فقد أمسكت بيده وألصقتها بقلبها طويلا.

وطوال المساء والليل كان يفكر فيها ويعاني لعبوديته المذلة أمام تلك الحيزبون وسحلية "**الليزارد**". ثم في ذلك الهولندي كان يزعجه هو الآخر وهكذا حتى يوم الأحد الذي لم يعشه في الحقيقة شبه القطيعة هذه التي يجب أن تعد دون صدمة أو هزة نهاية العلاقة. كانا يتكاتبان يوميا تقريبا مذكرات صغيرة تعد بمثابة مسحة حنان تهدئ من لهفة العاشقين. وأحيانا عند خروجه من الوزارة يثرثر معها قليلا أثناء ساعة أشغال الإبرة. لقد قالت في الفندق وهي تتحدث عنه:

– إنه أحد أقاربي وتحت هذا الستار الغامض وعدم تحديد مدى تلك القرابة استطاع أحيانا الحضور أحيانا ليقضي المساء في الفندق على بعد ألف متر من "**باريس**". كان يعرف الأسرة "**البيروفية**" وما بها من آنسات لا حصر لعددهن. وقد ارتدين ملابس زاهية الألوان وقد اصطففن حول الصالون. وكان يستمع إلى "**قيثارة**" الآنسة "**مينا فوجل**" ورأى شقيقها العليل المصدور وهو يتابع بهزات رأسه لحن الموسيقى ويلعب بأصابعه على آلة كلارينيت وهمية. ثم تعرف على هولاندي "**فاني**" وهو برميل ضخم وأصلع من النوع الشنيع والذي جاب كل البحار والمحيطات في العالم وعندما يسأل عن بعض المعلومات عن استراليا التي قضى بها شهرا كان يرد وهو يدير عينيه في جفنيهما: صوري كم عدد البطاطس في "**ملبورن**"؟ وكان دائما ما يدهش من تلك الحقيقة الوحيدة حول البطاطس في كل البلاد التي ذهب إليها!

وكانت "**فاني**" هي روح تلك الاجتماعات تثرثر وتغني وتلعب دور الباريسية العالمة ببواطن الأمور ومن نساء المجتمع الراقي. وما بقي عندها من الحياة البوهيمية، وفتاة موديلات المراسم كانت سرعان ما تختفي أمام تصرفاتها ومعلوماتها الغزيرة، وكانت تذهلهم بصلاتها بتلك الشخصيات الشهيرة في الفن أو الأدب وتعطي معلومات كالأميرات الروسيات حول طرق كتابة الروايات العاطفية وعن عدد أقداح القهوة التي تبتلعها كل ليلة، والرقم الصحيح والمذهل الذي دفعه ناشرو رواية "**ساندرينيت**" وهو العمل الأدبي الجبار الذي حقق لهم الثراء. وكان نجاح عشيقة "**جان**" يجعله فخورا جدا حتى إنه أنساه غيرته وود طواعية أن يشهد على كلامها لو حاول أحدهم أن يشكك

فيه.

وفي الوقت الذي كان يعجب بها في ذلك الصالون المزدحم المضاء بالأباجورات وحيث يقدم فيه الشاي مع ألحان الفتيات الشابات كانت تعطيهن نصائح الأخت الكبرى إلا إنه كانت لديه صورة أخرى فريدة عندما تصل يوم الأحد صباحا مبتلة يتساقط منها مياه المطر وقبل أن تقترب من النار التي أشعلها خصيصا من أجلها. كانت تخلع ملابسها بسرعة وتستبدلها بأخرى جافة ثم تندس وسط الفراش.

وكانت الساعات تمر وتتثاقل ولا يتركان السرير حتى المساء ولا شك يمسك بهما هناك سوى ذلك. لامتعة ولا أشخاص يقابلونهما ولا حتى "**هيتيما**" عشيقة أبيها التي قررت أن تعيش في الريف كنوع من الاقتصاد. وكان الإفطار يعد بجوارهما وهما يستمعان وهما منهمكان إلى همهمات "**باريس**" صباح الأحد وصفير القطارات وعجلات العربات الخنطور المحملة بالناس والبضائع على أرضية الطريق وتساقط المطر على الأسطح المغطاة بالزنك وعلى التندة المعدنية في الشرفة وعبر الوقت دون إحساس به حتى وقت الغسق.

وكان مصباح الغاز المضاء أمامهما يتسلل منه شعاع شاحب على الطلاء.. لابد من النهوض لابد من عودة "**فاني**" لعملها في السابعة مساء وسط ضوء الحجرة الشاحب فإن كل متاعبهما وما يثقل قلبيهما عاد أكثر ثقلا وقسوة خاصة هي وهي ترتدي حذاءها طويل الرقبة الذي لا يزال رطبا من السير على القدمين. وكذلك جونلتها وثوب المديرة والزي الرسمي الأسود للنساء الفقيرات والذي ضخم من حزنها أمور حبيبة إلى قلبها تحيط بها مثل الأثاث ودورة المياه الصغيرة أيام السعادة. نزعت نفسها وصاحت:

– هيا بنا!

وحتى يظلا معا أطول وقت ممكن صحبها "**جان**" وقطعا وهما متلاصقين شارع "**الشانزليزيه**" حيث صفيه من المصابيح وقوس النصر في نهايته بعيدا عن الظل في حين نجمات قلائل ترتفع في عنان السماء. وعند ناصية شارع "**بيرجوليز**" قريبا جدا من البنسيون رفعت خمارها ليتبادلا قبلة أخيرة وتركته مبهوتا ويشعر في قرارة نفسه بالنفور الذي عاد إليه وجعله يشعر بالكراهية الشديدة من الفقر والبؤس وهو حانق على قاطني "**كاستيليت**" الذين فرضوا عليه هذه التضحية.

إن عليه أن يستمر في تلك الحياة ثلاثة أو أربعة أشهر.. ذلك الوجود الذي أصبح لا يحتمل. وقد اضطر "**جـــان**" إلى اختصار زياراته إلى الفندق بسبب ثرثرة الخدم وأصبحت "**فاني**" شيئا فشيئا متضايقة من بخل الأم والبنت "**سان شيز**". كانت تفكر في صمت في استعادة حياتهما الأسرية السابقة وأحست بأن حبيبها كان على وشك أن يفقد قواه هو أيضا ولكنها كانت تريد منه أن يكون البادئ بالكلام.

في يوم أحد من شهر أبريل وصلت "**فاني**" مستعدة أكثر من المعتاد وقد ارتدت قبعة مستديرة وثوبا ربيعيا بسيطا للغاية.. لم يكونا غاليي الثمن ولكنهما منسجمان تماما على جسدها وصاحت:

– انهض بسرعة فسنتناول الغداء في الريف.

– في الريف؟

– نعم في "**اينيان**" عند "**روزا**". إنها تدعونا نحن الاثنين.

قال لا في البداية ولكنها ألحت لأن "**روزا**" لن تسامحها أبدا.. إنها لا تقبل الرفض أبدا. ويجب عليه الموافقة من أجلها فقد تحملت مافيه الكفاية على ما أظن.

وعلى شاطئ بحيرة "**اينيان**" أمام نجيل فسيح منحدر حتى ميناء صغير حيث تتهادى على سطح مياهه قوارب وجندولات وهناك شاليه ضخم مؤثث بفخامة ومزين مزخرف حيث الشقق وجدرانه المجلدة بالمرايا تعكس بريق الماء ولألأة بحيرة يرتجف سطحها بالخضرة وزهور النرجس والزهور المائية.

كـــان آل "**روزا ريـــو**" أمام المائدة عندما وصلا. كانا قد ضلا الطريق بسبب علامة خاطئة وأضاعا ساعة كاملة حول البحيرة وفي حوار بين جدران عالية من الحدائق. واكتفى "**جـان**" باللقاء البارد لصاحبة البيت الغاضبة من انتظارهما ومن مظهر صوتها الغالب عليه الاحتقار وهي تقدمه لعجائز الكوخ: من بينهن ثلاث لايزلن يحتفظن بأناقة نساء المجتمع الداعر وثلاث عربات عتيقة تعد من مفاخر الإمبراطورية، الثاني أسماؤها إما لشاعر كبير أو قائد حربي منتصر: "**ويلكى كوب**" و"**سمبريز**" و"**كلارا ديفو**".

كانت النساء أنيقات لا جدال في ذلك ودائمات الأناقة ويتمشين مع آخر صيحات الموضة بألوان الربيع وقد أحيطت فتحات الصدور بالحرير الشيفون الشفاف بلون الأحذية ذات الرقبة ولكن جمالهن أصبح باليا تحت كتل الماكياج أما العجوز "**ديفـو**" فكانت

معتمة بعينيها بلا رموش وميتة العينين وقد تهدلت شفتها السفلى وهي تتحسس حول طبقها بحثا عن شوكتها وعن كوبها.. إنها "**لاديفو**" البدينة التي يبج الدم من خديها وتحت قدميها وضعت قربة من الماء الساخن وتمد فوق المفرش أصابع فقيرة مهشمة ومكرمشة وقد انتشرت في أصابعها خواتم لامعة من الصعب إدخالها وإخراجها وهناك "**كوب**" النحيفة المعصعصة ذات طول مرتفع يجعل من رأسها شبه الأصلع ما يجعلها مثل المهرج المريض وقد غطتها ببباروكة صفراء وكانت هذه المرأة قد أفلست ومسها الشيطان وذهبت لتجرب حظها لآخر مرة في "**مونت كارلو**" وعادت منها بلا مليم واحد وقد أغضبها لدرجة الثورة حب لمشرف على مائدة القمار مليح الوجه الذي لم يعد يرغبها. وقد استقبلتها "**روزا**" وأطعمتها وجعلت منها علامة فخر.

كل تلك النساء يعرفن "**فاني**" وحيينها تحية فيها نوع من الحماية: كيف حالك يا صغيرتنا! والحقيقة أنها بثوبها الذي يساوي المتر من قماشه ثلاثة فرنكات وبدون أي حلي سوى البروش المرجان الأحمر هدية "**كويبر**" كانت تبدو مثل المجندة بين كل هؤلاء من نجوم البحيرة الساطعة واللاتي يغطين أنفسهن بأناقة الوسط الفاخر. هناك أيضا الأم "**بيلار**" أو كما تسمي نفسها "**لوشنج**" في لهجتها **الفرانكواسبانيولي**" وهي عجوز شمطاء مشدودة البشرة ولديها مكر متوحش وملامح تثير النفور وقد حلقت شعرها مثل الصبية وشعرها أبيض على الأذنين وثوبها من الساتان القديم الأسود ياقة كبيرة زرقاء. قالت "**روزا**" وهي تنهي تقديمها لرفاقها وهي تشير إلى "**جوسان**" نحو منشفة من التيل الوردي حيث كانت بضع قطرات تتساقط من السقف على المفرش. قالت "**روزا**":

– ثم هناك السيد "**بيتشيتو**"!

ثم قال شاب – بلهجة مرحة مصطنعة وله شاربان مبرومان لامعان وقد ارتدى ثيابا لائقة ومضبوطة بل كان متصلبا بعض الشيء داخل سترته الفاتحة اللون والعالية الياقة.

– حسنا. ألن يقدمني أحد إذن؟

قالت النساء وهن يضحكن:

– هذا صحيح..

قالت صاحبة البيت في إهمال:

– ها صحيح.. إنه "**تاتاف**".

كـان "**تـاتـاف**" هـو "**بوتيـه**" العالم الموسيقي والمؤلف المطلوب بعد مسرحيته "**كـلاوديا**" و"**سـافـونا رول**"، و"**جـان**" الذي كان يراه مصادفة من حين لآخر عند "**ديشـيليت**"، دهش وهو يرى في ذلك الموسيقي الكبير مظاهر ضآلة في العبقرية وبدا وقد ارتدى قناعا صلبا من الخشب متناسق التقاطيع، وعيناه باهتتان وهو يكن عاطفة مجنونة لا علاج لها، والتي جعلته يتعلق من سنوات طويلة بهذه الحيزبون الشمطاء التي جعلته يترك زوجته وأطفاله ليبقى بلا قيمة في ذلك البيت حيث يبتلع جزءا كبيرا من ثروته وأرباحه من المسرح وحيث يعاملونه أسوأ من معاملة الخدم ويجب ملاحظة المظهر المتمادي لـ"**روزا**" فور أن يبدأ في قص إحدى الحكايات وملاحظة أي لهجة احتقار التي بها تلزمه الصمت وتؤيدها أمها "**بيلار**" منتهزة الفرصة بلهجة اقتناع:

– اتركنا في سلام يا بني!

وقد جلس "**جان**" بجواره.. بجوار تلك المرأة "**بيلار**" وعجوزاتها اللاتي يزمن وهن يمضغن الطعام مثل الحيوانات، وتلك النظرة المتسائلة الموجهة مما جعل الشاب يتعرض للعذاب، زاد من ضيقه لهجة صاحبة البيت وهي تمزح مع "**فاني**" حول الليالي الموسيقية التي تقام في الفندق وكيف أن الأقاويل من المساكين المضطرين لسماعها وهم يرثون لحال امرأة مجتمع مثل "**روزا**" التي دفعت في هذه التعاسة وقد علقت في أذنيها قرطا لا يقل ثمنه عن عشرة آلاف فرنك بدت وكأنها تحسد صديقتها على استعادة شبابها وجمالها الذي ينقصها وعن طريق ذلك الشاب المليح ولم تكن "**فـاني**" تغضب بل كانت على العكس تمتع كل من على المائدة وتشيع البهجة بين النزلاء وخاصة "**البيروفي**" الذي كان يعترف لها وهو يدير عينيه في محجريهما عن رغبة في التعرف على عشيقة فاتنة ثم تسمع صوت الهولندي الضخم يلهث خلف مقعدها متسائلا:

– هل تعرفين كم عدد البطاطس في "**باتافيا**".

لم يضحك "**جوسان**" قط لا هو ولا "**بيلار**" المشغولة بمراقبة فضيات ابنتها. أو تندفع بحركة مفاجئة وهي تحملق إلى المفرش أمامها في ذبابة أو على كم جارها وهي تداعبها قائلة "كلي يا ألما.. كلي يا قلبي!" أحيانا ما يتكرر المشهد مما يدفع إلى نفاد صبر ابنتها خاصة وأنها عصبية بشكل خاص في هذا الصباح:

– لا تنهضي إذن كل دقيقة فإن ذلك مرهق.

وكانت الأم ترد بصوتها الذي يزن طنينا:

– أنت تبتلعين أي شيء.. فلماذا لا تريدين إذن من ذبابتي ألا تأكل؟

– اتركي المائدة أو اصمتي.. أنت تزعجيني!

ثارت العجوز واهتاجت وأخذت المرأتان تتبادلان السباب باللغة الإسبانية وقد خلطا الشيطان مع الجحيم مثل بنات الشوارع.

راقبهما "**جان**" وهو مرعوب بينما المتآمرات والمتآمرون الآخرون المعتادون على تلك المشاهد العالية استمروا في الأكل في هدوء. تدخل "**دي بوتيه**" فقط مراعاة للرجل الغريب:

– هيا.. دعونا لا نتشاجر إذن!

لكن "**روزا**" الثائرة استدارت نحوه وصاحت:

– فيم تتدخل أنت؟ هل هذه هي أخلاقك! ألست حرة في أن أتكلم؟ هيا اذهب وقابل زوجتك بعض الوقت.. لقد فاض بي الكيل من عينيك؛ العاشقتين اللتين تشبهان البومة والشعرات الثلاث التي بقيت على رأسك.

ابتسم "**دي بوتيه**" وقد شحب وجهه وهمهم من بين شاربه الكث.

– ويجب علي أن أعيش مع كل هذا!

صرخت "**روزا**" وقد مالت بكل جسدها إلى الأمام:

– هذا أفضل.. واعلم أن الباب مفتوح فهيا افلت بجلدك.. هيا.

أخذت العينان المعتمتان تتضرعان:

– هيا يا "**روزا**"!

ثم عادت الأم "**بيلار**" إلى الطعام وقالت:

– أسعدني بسكاتك يا صبي.

وانفجر الآخرون في الضحك من الطريقة التي قالت بها العجوز عبارتها حتى "**روزا**" وحتى "**دي بوتيه**" نفسه الذي قبل عشيقته التي كانت لاتزال تزمجر وحتى يستطيع الحصول على رحمتها أمسك بأحد شاربيه وناوله برقة لـ"**بيتشيتو**" وهكذا كان "**دي بوتيه**" المؤلف الموسيقي المجيد وفخر المدرسة الفرنسية! كيف أمكن لهذه المرأة أن تأسره؟ وما نوع السحر الشرير للمرأة التي جعلتها الخطيئة أكثر كبرا في السن؟ وما تلك السوقية

الصادرة من تلك الأم التي ضاعفت من العار كل ذلك جعله يتخيل عشيقته بعد عشرين عاما وقد تحولت مثل القربة المنفوخة!

قدمت القهوة على ضفاف البحيرة داخل كهف صخري كسي بالداخل بالحرير فاتح اللون يعكس حركة المياه المجاورة وهو أحد الأوكار للتقبيل اخترعها أساطير القرن الثامن عشر ويوجد في السقف زجاج يعكس حركة العشاق القدامى المنتشرين حول الدكك الفسيحة. وكان خدا "**روزا**" ملتهبين تحت مواد الزينة وقد مدت ذراعيها بالعكس مع موسيقارها العاشق وتقول:

– أوه يا صغيري "**تاتاف**".. يا "**تاتافي**"!

ولكن موجة الحنان الحار تلك سرعان ما تبخرت عندما خطرت على بال إحدى تلك السيدات فكرة النزهة فارسلت "**دي بوتيه**" لإعداد القارب وانفجرت معركة جديدة عندما اعترض "**دي بوتيه**" على صلاحية القارب "**ديزيريه**" لوجود تفريعة من المياه.. عندئذ تدخلت "**فاني**" لإنهاء المعركة:

– "**جان**" سيذهب معك يا "**دي بواتيه**".

جلس الرجلان وجها لوجه كل منهما على طرفي القارب وقد باعدا ما بين ساقيهما وأخذا يفرغانه من الماء بكل نشاط دون كلام أو تبادل النظرات وكأنهما منومان مغناطيسيا من حركة تفريغ المياه بالدلوين في رتابة. سأله الموسيقي فجأة:

– هل تعرف "**فاني**" من زمن بعيد؟

رد عليه "**جوسان**" وهو مندهش:

– من سنتين تقريبا.

– سنتان فقط! إذن ربما ما رأيته اليوم قد يفيدك كثيرا. أما أنا فها هي عشرون عاما وأنا أعيش مع "**روزا**".. عشرون عاما منذ جئت من إيطاليا بعد ثلاث سنوات من حصولي على جائزة "**روما**" وقد دخلت مضمار السباق في مساء ورأيتها واقفة في عربتها الصغيرة عند ناصية الحلبة، وعندما وصلت إلى مستواي وقد رفعت سوطها في الهواء وقلنسوتها المبرشمة بالمعدن وهي مندفعة وحول وسطها حزام من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة.. آه لو علمت وقتها..

ثم عاد إلى تفريغ القارب، وقص كيف أنهم في بيته ضحكوا في البداية من تلك

العلاقة ثم تحول الأمر إلى شيء جاد، وكم من مجهودات وتضحيات قدمها أقاربه وعائلته من أجل قطع تلك العلاقة. وقد رحلت الفتاة مرتين أو ثلاث مقابل المال ولكنه كان يلحق بها دائما. لقد قالت له أمه "لتحاول الترحال" وحاول الترحال ثم عاد ليستردها. وعندئذ زوجوه فتاة جميلة وغنية دفعت مهرا ودوطة مع وعد بإنشاء معهد باسمه في ليلة الزفاف.. وبعد ثلاثة أشهر هجر البيت الجديد من أجل القديمة. آه أيها الشاب آه!

كان يعرض حياته بصوت جاف دون أن تتحرك عضلة في قناع وجهه وكان متصلبا، بينما قوارب تمر حاملة الطلبة والفتيات وقد ضجت بالغناء والضحكات الشابة.

أما داخل الكشك الكهفي فقد عملت العجائز على دفع عملية القطيعة ما بين "**جان**" و"**فاني**".

– إنه مليح وشاب صغيرك هذا، ولكنه لا يملك مليما واحدا... إلى أين سيقودكما هذا؟

– لا يهم مادام يحبني.

رفعت "**روزا**" كتفيها وقالت:

– دعوها إذن.. إنها ستفقد أيضا ذلك الهولندي الذي يعشقها كما سبق أن رأيتها تفسد كل تلك الأعمال الرائعة، وبعد حكايتها مع "**فلامان**" حاولت مع ذلك أن تكون عملية ولكن ها هي مجنونة كعادتها دائما.

تدخلت الإنجليزية النحيفة ذات الرأس البهلواني بلكنتها الرهيبة التي حققت بها نجاحا طويلا:

– طيب أن تحبي من أجل الحب يا صغيرتي إنه شيء طيب جدا ولكن اعلمي أنه يجب أيضا أن تحبي النقود.. أنا الآن لو كنت غنية باستمرار هل كان مدير مائدة القمار حبيبي سيقول عني إنني دميمة؟

اجتاحتها نوبة من الغضب مما رفع صوتها لدرجة الجدية:

– ومع ذلك كان الأمر رهيبا جدا. أن تكوني مشهورة جدا في عالم الشهرة مثل الآثار أو أهم الشوارع.. معروفة لدرجة أن مجرد أن تقولي لأي حوذي تافه اسم "**رويلكي كوب**" إلا ويعرف العنوان في الحال. وأن يكون لدي تحت قدميّ أمراء وملوك

حتى لو بصقت لقالوا : كم هذا جميل! وهانذا الآن أجد ذلك التافه لا يريدني بحجة دمامتي وليس لدي ما يكفي لأن أدفع له ثمن ليلة حب واحدة.

صاح "**بوتيه**" :

– سيداتي إن القارب أصبح معدا.

كان "**جان**" هو الذي يمسك بالمجدافين وقد انحنى ظهره وهو يشعر بالعار والأسف لأن يجد نفسه عرضة لمن يشاهده وهو يؤدي بعض المهام الوضيعة في هذا القارب الشنيع. ولحسن الحظ كانت في مواجهته "**فـاني**" التي أنعشت قلبه وعينيه وقد جلست في الخلفية بالقرب من العمود الذي يمسك به "**دي بوتيـــه**" .. ولم يسـبق له أن بدت ابتسامتها في مثل هذه النضارة من قبل قالت "**ديفو**" التي أرضى الربيع بعض تجمدها :

– غني لنا بعض الشيء أيتها الصغيرة.

بـدأت "**فـاني**" بصوتها العميق والمعبر افتتاحية "**كـلاوديا**" والتي حركت مشاعر مؤلفها الموسيقي وذكرته بأولى نجاحاته. وكان الجو في تلك الساعة لذيذا ومن شرفة مجاورة صاح شاغلوها :

– "حسنا".

فجأة غضبت "**روزا**" وقاطعت المغنية التي كان انسجام صوتها مع اللحن قد ضايقها فصاحت في حبيبها :

– هيـا يا من أنت هناك! عندما تنتهين من الصراخ في الوجوه.. هل تظنين أنك تسلينا بلحن دفن الموتى.. فهـذا يكفي.. أولا : الوقت متـأخر وثانيـا : يجب عـودة "**فاني**" إلى الملهى!

وبحركة غاضبة أشارت إلى أقرب مرسى وقالت لحبيبها :

– أنزلهما هنا فسيكونان قريبين من المحطة.

كانت طريقة وحشية لصرفهما ولكن سيدة العربات القديمة عودت عالمها على تلك السلوكيات ولا يجرؤ أحد على الاعتراض.

قـفز الثنائي إلى الشـاطئ مع بعض كلمـات الاعـتذار البـاردة من الشـاب وأوامـر إلى "**فـاني**" بصوت هامس ابتعد القارب محملا بالصياح وبسلسلة من الشجارات انتهت بانفجار مهين من الضحك حمله إلى العاشقين سطح الماء. قالت "**فـاني**" وقد اكفـهر

وجهها غضبا:

– هل تسمع.. هل تسمع؟ إنهم يسخرون منا!

وقد تركزت كل الإهانات والحط من قيمته طوال النهار تركزت في تلك اللحظة في تلك الإهانة الأخيرة أخذت تعد الإهانات وهما عائدان إلى المحطة واعترفت حتى بأشياء طالما أخفتها.. إن "روزا" لا تسعى إلا إلى إبعادها عنه وتسهيل الفرص لخداعه وخيانته:

– لقد فعلت كل شيء حتى أتخذ ذلك الهولندي عشيقا لي... والأدهى من ذلك أنهن جميعا تكتلن معها.. أنا أحبك كثيرا.. هل فهمت وهذا يضايقها لمخالفته نزواتها وحبها للخطيئة لأنها عندها كل الخطايا وأكثرها انحطاطا ووحشية ولأنني لم أعد أرغب.

وقفت ورأته يشحب جدا وشفتاه ترتجفان مثل ذلك المساء الذي أخذ يقلب فيه الخطابات داخل المدفأة. قالت له:

– أوه.. لا تخش شيئا.. لقد شفاني حبك من كل تلك الأمور المرعبة.. هي وعصابتها من العاهرات ليحل بهن الطاعون إنهن يثرن تقززي.

قال الحبيب وقد أصابه الهوس من الغيرة القاتلة:

– لم أعد أريدك أن تبقي هناك معها. هناك الكثير من القاذورات في الخبز الذي تربحينه ستعودين إلى بيتي معي وسننجح سويا.

كانت تنتظر تلك الصرخة منذ وقت طويل ومع ذلك قاومت وهي تفترض أن حياة ببيته بثلاثمائة فرنك يحصل عليها من الوزارة لابد أن تكون صعبة مما قد يضطرهما للانفصال ثانية وقالت:

– وأنا كم عانيت وأنا أترك منزلنا..

كانت أرائك الطريق تتباعد المسافات بينها، بينما ارتفعت فوق أسلاك التلغراف الممتد بين الأعمدة طيور القبرة واليمام. جلسا على إحدى الدكك حتى يستطيعا الكلام بطريقة أسهل وقد غمرتهما العاطفة بينما تشابكت الأيدي. قال "**جان**":

– ثلاثمائة فرنك في الشهر.. ولكن ماذا يفعل آل "**هيتيما**" جيراننا الذين لا يحصلان إلا على مائتين وخمسين فرنكا شهريا.

– إنهما يعيشان في الريف طوال العام في "**شافيل**".

– لنفعل مثلهما فأنا لست متمسكا بـ"**باريس**" .

– حقا؟ هل تريد ذلك حقا؟ آه يا صديقي.. صديقي .

كان عدد من الناس يمرون على الطريق مع فريق من الحمير يحمل أدوات الاحتفال بليلة عرس ستقام في اليوم التالي، فلم يستطيعا تبادل القبلات وظلا ثابتين وقد ضم كل منهما الآخر يحلمان بسعادة مجددة الشباب في أمسيات الصيف وهي تحلم بأن تسمع أرغن ذلك العرس في الكنيسة الريفية.

الفصل الثامن

سكنا في "**شافيل**" بين أعالي وأسفل البلاد على طول ذلك الطريق القديم المتاخم للغابة والذي يسمى "**رصيف الحراس**" في كوخ لقاء حب قديم لممارسي هواية الصيد عند باب الغابة مكون من ثلاث حجرات أوسع من تلك التي كانا يقطناها في باريس ومؤثث بنفس أثاثهما القديم، من مقعد خيزران ذي مساند والدولاب المطلي بالزيت ولتزيين ورق الحائط المخيف الأخضر في حجرتهما لا يوجد سوى صورة "**فاني**" لأن مصور "**كاستيليت**" كسرت صورته بإطارها أثناء العزال بعد أن شحب لونها حتى أوشك أن يختفي.

لم يطرقا الحديث قط بعد ذلك عن "**كاستيليت**" المسكين منذ أن انفصل العم وابنة الأخ وكفا عن تبادل المراسلات. قالت وهي تتذكر السهولة التي دافع بها "**فينان**" عن أول قطيعة:

– إنه مخادع جميل.. والصغيرتان التوأمتان فقط هما اللتان ينقلان لأخيهما أخبار العم ولكن "**ديفون**" لم تكتب قط. ربما لاتزال تكن حقدا على ابن أخ زوجها أو ربما خمنت أن المرأة السيئة عادت. وأحيانا كانا يظنان أنهما لازالا في شارع "**امستردام**" عندما يستيقظان على حياة "**هيتيما**" الذين أصبحوا جيرانا لهما مرة ثانية وصفير القطارات التي تلتقي كل منها مع الآخر باستمرار على الجانب الآخر من الطريق ويمكنهما رؤيتها خلال فروع الأشجار المحيطة بمنتزه عام ضخم. تحمل رجال الإدارة البيرقراطيين.

وفي الصباح قبل الرحيل كان "**جان**" يتناول إفطاره في حجرة طعامهما الصغيرة وقد فتحا شبكة النافذة على الطريق المرصوف المغطى بالعشب والمحاط بسياج من أخشاب البلوط الأبيض ذي الرائحة المرة. ومن هناك كان يذهب إلى المحطة في عشر دقائق بطول المنتزه الذي تصدح فيه العصافير وتغرد.. وعندما كان يعود كان ذلك الصخب يزداد ثقلا كلما خرج الظل من بين الأغصان وسيقان الأشجار فوق النجيل الأخضر المائل للاحمرار لقرب غروب الشمس.

وها هو أول استيطان تم وانقضت المفاجأة بهذا الانحطاط لأشياء حولهما، كان

الحبيب قد استعاد نوبات الغيرة الجافة والتحريات. والشجار بين عشيقته و"**روزا**" والرحيل من الفندق أدى بين المرأتين إلى عدم تفاهم مخيف وتردد العجوز عليها أحيا مرة أخرى شكوك الماضي المزعجة. وعندما كان يرحل يرى من عربة القطار منزلهما المنخفض في الدور الأرضي يعلوه فتحة دائرية وتفتش نظراته الجدران ويقول في نفسه: "من يدري؟" ويتسابق السؤال حتى يبدأ في فحص أوراق مكتبه.

وفي العودة كان يقدم لها تقريرا عن نهاره بأدق حركاته ومشغولياته، وغالبا ما كانت تستمع إليه بلا اكتراث حتى إنه كثيرا ما كان يفاجئها بالسؤال فيم تفكرين؟ وكان يخشى أن تكون نادمة على شيء ما أو شخص ما من ماضيها الرهيب والذي كانت تعترف به بكل بساطة ودون شعور بالذنب.

لقد كانا على الأقل عندما يتقابلان فقط يوم الأحد كل منهما ملهوف على الآخر، لم يكونا يضيعان وقتا في تلك الاستجوابات الأخلاقية الدقيقة والمثيرة للغضب. ولكن عندما اقتربا من بعضهما ثانية كان غرامهما حتى في أشد حالاته ينطوي على غضب والشعور بعاطفة عدم إمكان إصلاح ما فات. هو الذي يحترق من الحب بنار الغيرة التي تجعلها وهي مستعدة لأن تكون شهيدة لتمنحه المتعة والسعادة ولا تستطيع أن تصل فينتهي بها الأمر إلى البكاء والنحيب وغضب العجز.

ثم حدث نوع من الوفاق بينهما.. ربما بسبب استقرار الذهن والرشاد والطبيعة الدافئة التي لفتهما بثوبها أو ببساطة من جيرانهما لآل "**هيتيما**".

وهناك عملية ري الزرع التي كان آل "**هيتيما**" يبدءونها فور عودة الزوج لتبديل ملابسه المكتبية بسترة "**روبنسن كروزو**" بعد العشاء ويعودون إلى تلك العملية مرة ثانية بعد تقدم الليل كثيرا وسط ظلام الحديقة الصغيرة حيث يتصاعد منها رائحة الطين الطازج الرطب وصوت طلمبة المياه والرش بالرشاشات الكبرى ومن حين لآخر ترتفع صيحة انتصار مثل:

– لقد وضعت هناك اثنين وثلاثين في الكمثرى الشرهة.

– وأنا أربعة عشر في شجر الياسمين.

وكان الرجل يسعد الآخرين بحكاياته عن الشتاء.

– لا شيء الآن! ولكنكم سترون في ديسمبر! حيث أعود مبتلا وكل حماقات

"**باريس**" على ظهري ثم أجد النيران الدافئة والمصباح الجيد والحساء يتصاعد منه البخار وتحت المائدة خفا مليئا بالقش.. ثم أنتظر حتى ألتهم طبقا من الكرنب والسجق وماء جريبر والجنزبيل وكم هو لذيذ أن أسحب مقعدي الهزاز بجوار النيران أشعل غليوني وأنا أحتسي قهوتي المحلاة بالكراميل وماء الحياة. وأن ألتقط كلبا صغيرا جدا من الجوار لأداعبه أثناء القيلولة وبعد ذلك أقوم ببعض أعمال الرسم وتتناول الزوجة الحلوى وتعد الفراش للنوم.

لقد أصبح بليغا ذلك العملاق المادي ذو الفك الثقيل والخجول للغاية عادة والذي لا يستطيع أن يقول كلمتين دون أن يحمر وجهه ويتلعثم وكان خجله المجنون يتعارض مع لحيته السوداء الكوميدية لذلك الحفار العملاق هما السبب في استمرار زواجه والهدوء في حياته. لقد كان "**هيتيما**" وهو في الخامسة والعشرين ينضج صحة وقوة ومع ذلك يجهل ما هو الحب والمرأة، إلى أن حدث يوما في "**نافير**" بعد غداء مجموعة من الزملاء أن سحبوه وهو شبه منوم إلى بيت الفتيات وأجبروه على الاختيار. وقد خرج من هناك مضطربا، ثم عاد واختار نفس الفتاة دائما ودفع ديونها ثم صحبها وخوفا من أن يستردوها منه أو يفقدها وأن يضطر لبدء غزوة غرامية أخرى انتهى بأن تزوجها.

قالت "**فاني**" لـ"**جان**" في ضحكة انتصار:

– إنه بيت شرعي يا عزيزي.. ومن بين كل من عرفتهم كان هذا أكثر البيوت نظافة وأمانة وكان الجوار المهدئ، لأن "**هيتيما**" كان مزاجه دائما معتدلا وقد قلت مشاهد العراك بينهما حيث كان الجاران يضطران أحيانا للاشتراك في تلك المشاهد مما قد يؤدي إلى إحداث اضطراب في عملية الهضم. وحاولت المرأة أن تدفع "**فاني**" إلى تعلم تربية الدواجن والحيوانات ولكن دون جدوى. إن عشيقة "**جوسان**" من أهل الضواحي مرت بالعديد من المراسم لتعمل موديلا عارية لم تكن تحب الريف إلا كهاربة فقط من حياتها الماضية، كانت تكره الجهد والعمل وقد استهلكت ستة أشهر من العمل مديرة للفندق كل مواهبها الحركية والنشاطية، وانهارت في دوامة رهيبة من الفراغ وتنشيط وسمنة من حياة صحية وسط الريف الأمر الذي انتزع منها تقريبا الرغبة في ارتداء الملابس الفاخرة والتسريحات على آخر موضة واستخدام أحدث

أدوات الزينة والتجميل، بل حتى فتح غطاء البيانو. وكانت رعاية بيتهما متروكة دائما وبأكمله لربة بيت قروية وعند المساء كانت "**فاني**" تلخص نهارها لـ"**جان**" فلا تجد ما تقصه سوى زيارة لجبال "**الأوليمب**" أو التزحلق بالقبقاب عند فتحة الغابة.. وتدخين السجائر كميات هائلة من السجائر حيث كانت أعقابها توسخ الرخام أمام المدفأة. وفي العاشرة كانت تجد الوقت الكافي بصعوبة لتضع وردة على صدر ثوبها لتذهب وتنتظره على المحطة لكن لتكاثف الضباب وأمطار الخريف كان الليل يهبط في ساعة مبكرة، وكانت تخترع العديد من الأعذار حتى لا تخرج، وغالبا ما كان يفاجئها عند عودته في إحدى تلك العباءات الصوفية ذات الكسرات الكبيرة البيضاء ارتدتها منذ الصباح، وقد رفعت شعرها بنفس الطريقة التي شاهدها عند خروجه في الصباح أما هو فبعد جهود جبارة يبذلها في العمل من أجل رفع مواردهما قليلا دون أن يلجأ إلى "**كاستيليت**" وكم من سهرات قضاها منحنيا على الخرائط وفي نسخ بعض قطع السلاح وفي دراسة بنادق ومدافع جديدة كان يرسمها لحساب "**هيتيما**"، أحس فجأة بشعور مفاجئ بالاسترخاء الريفي والوحدة التي يميل إليها أكثر الناس نشاطا وابتكارا.

وكانت حياة جيرانهما المادية قد ساعدتهما على الاتصال بهما في الجيئة والرواح المستمر من بيت لآخر مع انخفاض في سلوكهما الأخلاقي ونهم في الطعام لدرجة أن "**جوسان**" نفسه هو وعشيقته وصلا إلى مناقشة جادة في قضاء أحد أيام الأحد. في جمع رحيق بعض الزهور والأصماغ واعتبرا الأمر مربحا ومسليا. وجدها "**جان**" منفعلة جدا في إحدى الأمسيات لقد قص عليها "**أوليمب**" حكاية طفل صغير وفقير تربى في "**مورفان**" بواسطة جدته، والأب والأم تاجران في "**باريس**" في تجارة الخشب لم يعودا يكتبان ولا يدفعان مصاريفها من أشهر، ثم ماتت الجدة فجأة وأحضر بعض البحارة الصبي عن طريق قناة "**أيفون**" وقد أغلق موقع العمل للأم والأب ورحلت الأم مع عشيق لها والأب أصبح سكيرا واختفى.. وها هو الصغير ذو الستة الأعوام قطعة من الجمال في حاجة إلى طعام وكساء ملقى في الشارع.

وانفعلت لدرجة أن طفرت الدموع من عينيها :

– ماذا لو أخذناه؟ هل تريد ذلك؟

– ياله من جنون!

– ولماذا؟ أنت تعلم كم رغبت في طفل منك. إننا سنربي هذا وسنعلمه. إن هؤلاء الصغار ممن نلتقطهم من الطريق سرعان ما نحبهم وكأنهم منا..

ثم أشارت إلى التسلية التي ستسببها لها وهي وحيدة طوال النهار وستجعلها تنسى آلاف الأفكار الشريرة.. ووجود طفل يعتبر عملية إنقاذ ثم عندما وجدته مرعوبا من الإجابة خوفا من المصاريف.

– ولكن المصاريف لا شيء. فكر إذن في سن السادسة يمكن إلباسه ملابس قديمة. و"**أوليمب**" التي تحتفظ به وتنتظر الرد أكدت لي أننا حتى لن نحس به.

رد "**جان**" بمزاج رجل عكر هزمه ضعفه:

– ولماذا لا تأخذه هي؟ ثم ماذا ستفعلين عندما لا أكون هنا؟ فيما بعد..

كان يتحدث وهو مليء بشكوك استمرار العلاقة وعواقبها والتي زرعها في نفسه "**دي بوتيه**".

– أي تعقيدات سيسببها لك ذلك الطفل فيما بعد وأي حمل ستتحملينه في المستقبل؟

غامت عينا "**فاني**" وقالت:

– أنت مخطئ يا صديقي.. إنه سيكون شخصا يمكن الحديث معه عنك.. سيكون تسرية ومسؤولية قد يدفعني إلى العمل واستعادة طعم الحياة.

فكر لحظة ووجد أنها وحيدة تماما في منزل خال:

– أين هو هذا الصغير؟

– إنه في "**باميدن**" عند بيت بحار تقبله لبضعة أيام.. بعدها هناك الملجأ والخدمة الاجتماعية.

– حسنا.. اذهبي وأحضريه مادمت متمسكة به.

قفزت إلى رقبته بفرحة طفل وظلت سعيدة طوال المساء تعزف البيانو وتغني وطارت في الهواء.

وفي اليوم التالي تحدث "**جـــان**" في مقصورة القطار عن قرارهما إلى العملاق "**هيتيما**" والذي بدا أنه علم بالموضوع ولكنه لم يرغب في أن يدس أنفه فيه. غاص في

ركنه وانهمك في قراءة الجريدة وأخذ يغمغم من بين لحيته:

– اعرف.. إنه عمل النساء ولا دخل لي به. يبدو أن امرأتك رومانسية جدا.

رومانسية أو غير رومانسية فإنها كانت راكعة في المساء على ركبتيها وفي يدها طبق حساء حاولت تغذية الطفل الصغير الجائع والذي وقف في حالة تراجع منكس الرأس... رأس ضخم وشعره يشبه المكنسة وهو يرفض الكلام في عناد ويرفض الطعام وحتى إظهار وجهه ويردد في صوت شبه مخنوق ورتيب:

– أريد رؤية "**مينين**" أريد رؤية "**مينين**".

– أعتقد أن "**مينين**" هي جدته.. من ساعتين لم أستطع أن أنتزع منه أي شيء آخر.

بدأ "**جان**" هو الآخر يحاول أن يجعله يبتلع شيئا من الحساء ولكن بلا نجاح، وظلا هناك راكعين عند مستوى طوله أحدهما ممسك بالطبق والآخر بالملعقة وكانهما أمام خروف مريض يكرران ويشجعان بكلمات حانية حتى يدفعاه.

– لنجلس على المائدة فربما شجعناه بذلك على الأكل. إنه قد يأكل إذا لم ننظر إليه.

ولكنه ظل ثابتا مذهولا وهو يكرر في ضراعة. أريد "**مينين**"! وبطريقة قطعت نياط قلبيهما إلى أن نام واقفا مستندا على جانب البوفيه وكان نومه عميقا حتى إنهما استطاعا خلع ملابسه عنه وتوسيده في المهد الثقيل الريفي الذي استعاراه من الجيران، كل ذلك والصغير لم يفتح عينا ولو لثانية. قالت "**فاني**" بفخر:

– هل ترى كم هو جميل.

وأجبرت "**جان**" على الإعجاب بذلك الرأس العنيد والملامح الدقيقة الرقيقة تحت هالة قروية وذلك الجسد الرائع والساقين الطويلتين. نسيت نفسها في تأمل هذا الجمال الطفولي. قال "**جان**" بصوت جعلها ترتجف كأنه استيقظ من حلم.

– غطيه إذن وإلا أصابه البرد.

وفي المساء أخذ يحدث نفسه: "**جيرلود مينين**".

– ماذا يقول؟ اسمع.

– إنه يريد أن "**يتجيرو**" ولكن ما معنى تلك الكلمة الريفية؟ هل يعني أنه من أسرة

"**جيرلود**"؟

كان "**جان**" مادا ذراعه بمصادفة ثم أخذ يهز المهد الصغير إلى أن هدأ الطفل وعاد إلى النوم وهو يمسك في يده الصغيرة يد "**جان**" التي ظن أنها يد جدته "**مينين**" التي ماتت من خمسة عشر يوما.

أصبح مثل القط الشارد في البيت يخمش ويعض ويأكل بعيدا عن الآخرين وهو يزوم عند الاقتراب منه وكانت الكلمات القليلة التي انتزعوها منه كلمات بربرية من أهالي "**مورادافيا**" ولولا أن آل "**هيتيما**" كانوا من نفس البلاد ما استطاع أحد أن يفهمها. ومع ذلك وافق بعد لأي على تغيير الأثمال البالية التي أتى بها بأخرى نظيفة وسليمة، وتعلم تناول الطعام على المائدة واستخدام الملعقة والشوكة، والرد عندما يسأل عن اسمه بأنهم يدعونه في بلاده "**جوزيف**". أما تعليمه المبادئ الأولية للحياة فلم يحن الوقت للتفكير في ذلك. فقد تربى وسط الغابة داخل كوخ لإعداد الفحم وسط ضوضاء الطبيعة المزدحمة مما جعله يتقوقع على نفسه مثل حيوان الحلزون عندما يدخل قوقعته ولم يفلح أي شيء في إدخال الجديد داخل القوقعة أو إخراجه منها والاحتفاظ به داخل المنزل حتى في الجو شديد الصعوبة والقسوة. ووسط المطر والجليد والأشجار جرداء من أوراقها كان يهرب ويصارع الشجيرات ويفتش في الأراضي بمهارة وقسوة القناص المتمرس وعندما كان يعود وقد هده الجوع دائما كان بداخل جيوبه حيوان ما جائع أو ميت أو عصفور أو فراشات أو خلافه مع بطاطس نزعها من الأرض أو الحقول.

لم تنهزم ميوله لأداء الأعمال اليدوية أو غرائزه الوحشية، وكان يجمع أشياء غريبة مثل أزرار معدنية لامعة ولآلئ من العاج وأوراق تصدير مما تلف به قطع الشوكولاتة وكان يخفيها في وكر طاووس خفي، وكانت كل تلك المقتنيات يسميها اسما غامضا ولا يوجد أي منطق أو نقاش يمكن أن يمنعه من جمع مقتنياته لأي سبب أو من أجل خاطر أحد.

فقط استطاع آل "**هيتيما**" أن يجعلاه يلتزم ببعض النظام. وكان الرسام يضع على متناول يده على مائدته أشياء كان يحوم حولها المتوحش الصغير خاصة البوصلات والأقلام الرصاص الملونة وسوط كلب كان يفرقعه بين ساقيه. ولكن لا "**جان**" ولا "**فاني**" استطاعا أن يستخدما هذه التهديدات مهما بدا لهما ذلك الشيطان الصغير

ماكرا وغير مأمون ولا يمكن توقع ردود فعله حتى عند تدليله وكأنما وفاة جدته حرمته من أن يمد عواطفه لأحد. واستطاعت "**فاني**" بطيبة قلبها الاحتفاظ به لحظات على ركبتيها بينما بالنسبة لـ"**جوسان**" الذي كان رقيقا جدا معه كان دائما الحيوان المتوحش بالنسبة للصبي الذي كانت مخالبه تتصلب في عدم ثقة عند وصوله للبيت. وكان ذلك النفور الذي لا يمكن التغلب عليه وشبه الغريزي عند الطفل والمكر الفضولي في عينيه الصغيرتين الزرقاوين ذات الرموش لأهل جبال الألب والحنان الأعمى والمفاجئ لـ"**فاني**" نحو ذلك الغريب الذي هبط فجأة على حياتهما أضاف اضطرابا جديدا إلى شكوك العاشق، شك في أنه ربما كان طفلها هي تربى وأرضع إما عند زوجة والدها خاصة وأن وفاة "**ماشوم**" علم حوالي ذلك الوقت مما قد لا يكون مجرد مصادفة وإلا لحق له أن يتعذب بنار الشك. وأحيانا في الليل عندما يمسك تلك اليد الصغيرة المتعلقة بيده ؛لأن الصغير في نومه وأحلامه كان يعتقد دائما أنها يد "**مينين**" وكان يسأله بكل ما بداخله من اضطراب لا يستطيع البوح به: من أين أتيت؟ من أنت؟ وهو يأمل عن طريق الاتصال الحاني بينه وبين الصغير أن يصل إلى حل لغز مولده. ولكن قلقه ذهب بكلمة من الأب "**لوجراند**" الذي حضر طالبا الإعانة لدفع إتاوة باسم المرحومة زوجته وهو يصيح في ابنته عندما شاهد مهد "**جوزيف**":

– غريبة! طفل.. لابد أنك سعيدة! أنت التي لم تستطيعي قط أن تلدي واحدا!

كان "**جوسان**" سعيدا للغاية حتى أنه دفع الإتاوة دون نقاش وأمسك بالأب "**لوجراند**" ليتناول معهما العشاء.

كان الأب موظفا في ترام "**باريس**" "**فرساي**" ومن مدمني النبيذ والعربدة ولكنه كان دائم الشباب حلو التقاطيع تحت قبعته الجلدية محاطة بشريط من الحرير الكريب مما يجعلها تشبه قبعة الحانوتي وقد بدا الحوذي القديم سعيدا من استقبال السيد عشيق ابنته وتردد عليهما ليتناول العشاء معهما من حين لآخر. كان مظهره متشردا فاخرا بشعره الأبيض ووجهه الحليق والاحترام الذي يكنه لسوطه الذي كان يعتبره كعصا المارشاليه والذي كان يعامله معاملة طفل مدلل ولا يضعه إلا في مكان آمن. وسرعان ما تبادل العجوز و"**جان**" الأسرار الخاصة. وفي يوم وهما ينتهيان من العشاء معا حضر آل

"**هيتيما**" فجأة. وقالت السيدة بكلام صدم "**جان**" في وجهه:

– آه.. عفوا.. لقد كنتم في اجتماع عائلي!

عائلته! ذلك الطفل المتشرد الذي عثر عليه في الطريق والذي ينام وهو يصدر شخيرا على المفرش وذلك المتشرد المأفون والعجوز وقد وضع غليونه في طرف فمه يشرح بصوته الأجش للمرة المائة أن فرانكين من استخدام سوطه تكفيه ستة أشهر وأنه منذ عشرين عاما لم يغير يد السوط... ! عائلته هو! غريبة جدا! لا يمكن أن تكون زوجته تلك "**فـاني لوجـراند**" العجوز المرهقة وقد استندت على كوعيها وسط عاصفة من دخان سجائرها. أقل من عام كل ذلك سيختفي من حياته مثل لقاءات السفر العابرة أو زملاء الفندق على المائدة.

ولكن في لحظات كانت فكرة الرحيل التي تراوده كعذر لضعفه ما إن يحس بالخلاص حتى يحس بالعلاقات تتضاعف وتزداد تشابكا حوله حتى يصعب عليه القطيعة خاصة بوجود ذلك الطفل.. نعم ذلك الطفل الذي احتل جزءا من قلبه وسيكون العذاب بعينه أن ينزعه من مكانه.

ومع ذلك اقتربت تلك القطيعة المحتومة، وفي شهر يونيو الرائع الذي يضع الطبيعة في ثياب العيد ربما سيكون الأخير الذي سيقضيانه سويا. هل هذا هو الذي جعلها عصبية ومتوترة أم تعليم "**جـوزيف**" جعلها تشعر بحماس مفاجئ والمتاعب الشديدة التي يسببها الصغير من "**مولدافيا**" وهو يظل بالساعات أمام الحروف دون أن يراها أو ينطقها وقد قطب جبينه؟ ويوما بعد يوم بدأ سلوك تلك المرأة يزداد اندفاعا وتجاوزا ويتحول إلى العنف والدموع مما قد يضطر "**جوسان**" إلى اللجوء إلى التسامح ولكن المرأة كانت وقحة وشتامة أكثر من اللازم مما زاد من غضبه وزاد من حقدها على شباب حبيبها وتعليمه وعائلته والتباعد الذي بدأت الحياة تفرضه عليهما الأمر الذي أدى إلى إثارة غضبه هو ورد الصاع صاعين.

فقط كان غضبه هو متحفظا مشوبا برحمة الرجل المؤدب المربى جيدا، أما هي فقد كانت تندفع في غضبها كفتاة ليل بلا مسؤولية ولا احتشام وتندفع في وجهه بكل إهاناتها ثم تسقط في النهاية بين ذراعيه طالبة عفوه وسماحه وكان جسد آل "**هيتيما**" وهما شاهدان على تلك المعارك التي تنفجر يوميا تقريبا على مائدة الطعام يجعلهما

يأتيان من فوق المائدة بحركات كوميدية يمثلان فيها الرعب والخوف. ومع ذلك يأكلان أو تطير الأطباق بما فيها من طعام من خلال النافذة إلى الحديقة. وكانا يقولان في كل مرة يضطران فيها إلى الاجتماع:

– بشرط ألا تحدث مشاهد عراك من إياها!

وبهذه العبارة أيضا تلقيا الدعوة لتناول الغداء في الغابة وأقسمت بقداسة يوم الأحد ألا يحدث شيء .

– أوه.. لا.. لا تتشاجرا اليوم فالجو جميل .

ثم تجري لتلبس الطفل وملء سلال الطعام كل شيء كان معدا ورحلوا عندما أحضر ساعي البريد خطابا مسجلا اضطر "**جوسان**" للبقاء في الخلف ثم لحق بالعصابة عند مدخل الغابة وقال بصوت منخفض لـ"**فاني**" :

– إنه من العم.. إنه مسرور.. لقد حصل على محصول رائع بيع في مكانه، ويعيد الثمانية آلاف فرانك دينه لك ولـ"**ديشيليت**" مع تحياته وشكره لابنة أخيه.

– نعم ابنة أخيه بطريقة آل "**جاسكونيا**" ذلك الجزرة العجوز.. أوه يجب استغلال هذه النقود .

نظر إليها مذهولا.. إنه يعرفها جيدا مريضة وشكاكة في مسألة استغلال الأموال.

– استغلالها؟ ولكنها ليست نقودك!

– غريبة.. ألم أقل لك كل شيء!

ثم احمر وجهها وطرفت عيناها كما هي عادتها عند أي تغيير للحقيقة.

كان هذا الفتى "**ديشيليت**" الطيب عندما علم ما فعلاه مع "**جوزيف**" المسكين كتب إليها أن تلك النقود ستساعدهما في تربية "**جوزيف**" وأضافت:

– ثم إذا كان هذا يزعجك فسنعيد النقود له إنه في "**باريس**" حاليا.

صاح آل "**هيتيما**" اللذان تقدما كثيرا:

– هل تدور اليمين أم إلى اليسار.

صاحت "**فاني**" :

– يمين في يمين ناحية البركة.

ثم تحولت إلى حبيبها:

– هيا.. إنك لن تعود إلى أن تأكل نفسك من أجل تلك الحماقات.. نحن زوجان قديمان.. اللعنة!

كانت تعرف شحوب شفتيه المرتجفتين ونظرته المختلسة للصغير وتساؤله من رأسها لقدميها ولكن هذه المرة كانت معركة غيرة عنيفة ولكنه وصل إلى جبنه المعتاد سعيا وراء السلام قال في نفسه: وما الحاجة لأن أعذب نفسي وأتعمق في الأمور؟ إن كان هذا الطفل طفلها فليس هناك ما هو أبسط من أنها احتفظت به ومن إخفائها الحقيقة خاصة بعد كل تلك الشجارات والمعارك والاستجوابات التي جعلتها تتعرض لها! أليس من الأجدى قبول الأمر الواقع وقضاء الشهور القليلة الباقية معها في هدوء؟

واستمرا في السير في الطرق الملتوية المظللة في الغابة يحملان سلال الطعام وقد حمل أثقل السلال على ظهره وسار كالعجوز محني الظهر تتقدمه امرأته والطفل الذي كان يرتدي زيا يمنعه من الجري أو الزوغان. وهي ترتدي روبا على شكل قفطان فاتح اللون عاري الرقبة والرأس وقد رفعت فوقها مظلة يابانية وكان وزنها ثقيلا ومشيتها بطيئة متدحرجة. وأمامهما بمسافة سار الزوجان "**هيتيما**" وقد احتضن كل منهما كتلة الآخر وقد ارتدى الرجل قبعة هائلة من الخوص تشبه ما كان يرتديه فرسان "**توارج**" وقد ارتدى سروالا أحمر محملا بأدوات الصيد والشباك والمرأة حتى تثير شهية زوجها قد علقت على صدرها العملاق نفير الصيد والذي بدونه لا نزهة للزوج في الغابة وكان الزوجان ينشدان:

أحب سماع المجداف

وهو يضرب أمواج الليل

وأحب البجع الذي يتهادى على سطح الماء

وبينما "**جوسان**" الحالم يشاهد الثنائي الضخم يتوغل في دخانيق الغابة والتي دخلها هو نفسه وراءهما. سمعا صرير عجلات عربة تصعد الممر ويتصاعد منها موجة من الضحك المجنون وأصوات طفولية، ثم فجأة ظهرت على بعد خطوات منه حمولة من الفتيات الصغيرات وشعورهن والأشرطة التي تربطها تطاير في الهواء في حنطور إنجليزي يجره حمار صغير وبنت واضح أنها أكبر منهن هي التي كانت تشد اللجام فوق طريق

وعر.

وكان من السهل رؤية أن "**جان**" يشكل جزءا من الفرقة التي تعددت ألوان ملابسها. والسيدة الضخمة بشكل خاص تتمنطق بنفير الصيد قد اشتعلت حماسا ببهجة لا يمكن إطفاؤها وحاولت الفتاة القائدة أن تفرض النظام على الأطفال لمدة دقيقة ولكن تلك القبعة الغريبة لفرسان "**توارج**" أحجبت جنون ضحكهم الساخر وعند مرور العربة أمام الرجل الذي تنحى قليلا عن الطريق ليفسح لها مكانا للمرور وابتسمن له ابتسامة بريئة فحياهن في خجل وقد احمر وجهه دون أن يدري ما سبب شعوره بالعار. ثم توقفت الحمولة عند نهاية الممر عند تقاطع طرق وقد ترددت أصوات الفتيات الصغيرات وهن يقرأن العلامة شبه المطموسة من الأمطار: طريق البرك.. بلوطة "**فينير**" العظيم.. طريق: "**دي فيليزي**".

استدار "**جان**" ليرى هذه الدوامة الشقراء من الشابات تختفي في الطريق الأخضر والمضاء بأشعة الشمس التي بدت كالنجوم من بين الأغصان.

انتزعه صوت نفير "**هيتيما**" الغاضب فجأة من حلمه. كانوا قد استقروا على ضفة البركة وقد بدأوا في تفريغ مؤونتهم وعن بعد كانت صورة المفرش المفرود تنعكس على مياه البحيرة.

صاح الرجل الضخم وكذلك "**فاني**" بعصبية:

– تعال إذن.. أنت الذي معك.. أنت الذي معه الطعم.. هل عربة الصغيرات التي عطلتك في الطريق؟ عربة "**بوشيرو**"؟

ارتجف "**جان**" أمام اسم "**بوشيرو**" الذي أعاده إلى "**كاستيليت**" بالقرب من فراش أمه. قال الرسام وهو يمسك بذراعه ويأخذ منه السلة من يده

– لكن نعم.. إن الكبيرة التي تقود العربة هي ابنة أخ الطبيب رباها عنده ويعيشان في "**فيليزي**" إنها جميلة جدا.

– أوه جميلة فعلا وممشوقة القوام أيضا.

كانت "**فاني**" تقطع الخبز وهي تختلس نظرات متجسسة لـ"**جان**" وهي قلقة من شرود عينيه كانت السيدة "**هيتيما**" منهمكة بجدية في تفريغ لحم الجامبون وهي تنتقد بعنف الطريقة التي بها يتركون الفتيات الصغيرات يجرين في الغابة بهذه الحرية

وقالت:

– أتقولون إن هذا هو الجنس الإنجليزي وأن هذه الفتاة تربت في لندن.. ولكن الأمر سيان. إن هذا أمر غير مناسب على الإطلاق.

– كلا.. ولكنها مناسبة بالنسبة للمغامرات!

– أوه يا "**فاني**"!

– آه.. لقد نسيت أن السيد يؤمن بالبراءة.

قال "**هيتيما**" الذي بدأ يرتعب:

– هيا ماذا لو تناولنا الغداء؟

ولكن كان عليها أن تخرج من بطنها كل ما تعرفه عن الفتيات الصغيرات المتحررات ولديها قصص مسلية في هذا الشأن عن فتيات الأديرة والمدارس الداخلية.. صحيح أنها أماكن نظيفة ولكنهن يخرجن من هناك منهكات ولديهن نفور من الرجال وحتى غير قادرات على إنجاب الأطفال وأنا في البداية في سن الثانية عشرة لم يكن هناك ما أحتاج لأن أتعلمه أكثر مما كنت أعرفه.. وأنت أيضا أليس كذلك يا "**أوليمب هيتيما**"؟

قالت السيدة "**هيتيما**" وهي تهز كتفيها:

– فعلا.

ولكن مصير الغداء كان يشغل بالها خاصة عندما سمعت "**جوسان**" الذي كان يصعد الطريق نحوهم يعلن أن هناك فتية وفتيات صغارا وأنه لا يزال هناك عائلات متكاملة.

اعترضت عليه عشيقته في احتقار.

– آه.. نعم.. عائلات! لنتحدث عنها خاصة عائلتك.

– اخرسي! أنا أمنعك!

– أيها البرجوازي.

– أيتها الشاة.. لحسن الحظ أن كل ذلك سينتهي لقد فاض بي الكيل من العيش معك.

– هيا.. اذهب إلى الشيطان. أنا التي ستكون سعيدة، تبادلا السباب وجها لوجه

أمام فضول الطفل المتمدد على بطنه فوق العشب، عندما سمعا صوت نفير رهيب يتردد صداه مئات المرات فوق مياه البركة ثم انهارت كتل الخشب لتغطي على شجارهما، انتفخ عنق "**هيتيما**" العملاق واحمر وجهه غضبا الذي لم يجد وسيلة يسكت بها شجارهما سوى ما فعله.

ـ ألم تكتفيا بعد؟ هل تريدان المزيد؟

ثم رفع النفير نحو شفتيه مهددا.

الفصل التاسع

عادة شجارهما وغضبهما لا يدومان طويلا ويذوبان أمام بعض الموسيقى والملاطفة من جـانب "**فـانـي**"، ولكن هذه المرة كان حانقا عليها فعلا وظل مقطبا جبينه وملتزما الصمت عدة أيام بعد الوجبات مباشرة ،ورفض أي نوع من الخروج معها. وكأنه شعور مفاجئ بالعار من الوضاعة التي يعيشها وخشية أن يلتقيا في نزهاتهما بالعربة الصغيرة المحملة بابتسامات الشابات المرحة التي ظل يحلم بها بلا انقطاع، ثم فجأة وكأنه وسط ضباب الحلم الذي انتهى تحطم الديكور في نظره وكأنه في إحدى قصص الجنيات وأصبحت الرؤية مختلطة ثم فقدها في أعماق الغابة ولم يعد يراها "**جان**" بعد ذلك قط وبقي فقط في أعماقه حزن اعتقدت "**فاني**" أنها تعلم سببه وقررت أن تلزم جانب العقل وقالت له في يوم ما في منتهى المرح.

– لقد حدث الأمر... لقد قابلت "**ديشيليت**" وأعدت له نقوده وقد اعتبر الأمر مثلك أكثر مناسبة واحتراما وإن كنت أتساءل لماذا.. على أية حال لقد حدث ما حدث.. فيما بعد عندما أصبح وحيدة سأفكر في الصغير. هل أنت سعيد؟ ألم تعد غاضبا؟

ثم حكت له عن زيارتها لشارع روما ورأت مندهشة في المهرجان التنكري المجنون مجموعة من الفرق في حالة ذهول ومنزلا بورجوازيا ثقيل الدم تحميه فرقة من الحراس الأشداء القساة. لم يعد هناك حفلات راقصة أو استعراضات تنكرية وتفسير هذا التغيير مكتوب على مدخل المرسم الصغير " مغلق بسبب الهدم".

– وهذه هي الحقيقة يا عزيزي. لقد تعلق "**ديشيليت**" بفتاة من المتزحلقات على الجليد "**أليس دوريه**" والتي اتخذها خليلته منذ شهر. لقد عاشا كزوجين حقيقيين.. إنها امرأة صغيرة ولطيفة جدا ولا تحدث بينهما أي مشاحنات على الإطلاق وقد وعدت بزيارتهما.

ترك "**جان**" نفسه تقوده إلى بيت "**ديشيليت**" منذ لقائهما في "**لامادلين**" ويمكن القول أنه كان مدهشا عندما اعتبر عشيق عشيقته السابق صديقا له دون أن ينفر منه بل إنه دهش بإحساسه بالارتياح من أول زيارة.

بل سحرته رقة ورزانة ذلك الرجل ذي الابتسامة الحلوة الطفولية ولحيته القوقازية وإن لم تستطع ضحكاته أن تخفي أزمات الكبد الذي يعاني منها وقد فهم الحنان الذي ينبعث من "**أليس دوريه**" ذات اليدين الطويلتين والطريتين والبيضاوين وجمالها الأشقر الذي يزيده أصلها "**الفلامنكي**" وبشرتها الذهبية مثل اسمها "**دوريه**" أي الذهبية والذهب أيضا في شعرها. لقد التقطها "**ديشيليت**" من فوق ساحة التزحلق الأسفلتية وسط ضوضاء الرجال وسخافاتهم وقد استطاع أن يحصل على قلبها برقته. لقد وجدت نفسها امرأة وسط معركة مسكينة وقد أنقذها من طعامها الضئيل وعندما أراد ألا يراها ثانية في الصباح طبقا لمبادئه بعد غداء طيب وبضعة قروش تضخم قلبها وطلبت منه بكل رقة ورغبة "احتفظ بي أيضا" لدرجة أنه أحس بعجزه عن الرفض. ومن وقتها سواء من ناحية الاحترام الآدمي أو ربما من الملل والتعب أغلق بابه على شهر العسل، هذا الذي جاء مصادفة الذي قضاه في قصره والذي أعده وأثثه بطريقة مريحة للغاية وعاشا هكذا في منتهى السعادة.

أصبح مرسم شارع "**روما**" نوعا من التسرية وسط حياته المنحطة والفقيرة حيث يعيش حياة موظف في بيت أسرة مزيف. لقد أصبح يحب أحاديث ذلك العالم ذي الذوق الفني والفلسفة في ثوب فلاح، لقد أصبحت حكايات "**ديشيليت**" يرسمها بأطول العبارات وكان يعيش لحظات في ذلك الجو الغريب عن البلاد وكأنه في بلاد الشرق الساحرة، وسط النخيل والديكور الشرقي ويوم الأحد بالذات كان الجدار الزجاجي المطل على شارع خال من "**باريس**" في الصيف مع اهتزاز أوراق الشجر ورائحة الأرض الطازجة المغطاة بالنباتات كان يبدو وكأنه في الريف الحقيقي وليس في باريس خاصة وقد تخلص من نفير "**هيتيما**". ومع ذلك في يوم من الأيام وصل "**جوسان**" وعشيقته للعشاء وسمعا منذ دخولهما ضجة أصوات مختلطة وكان النهار يوشك على الرحيل وبدأ النقاش يمتد.

– وأنا أجد أن خمس سنوات في "**مازا**" المجهولة هي إفساد للحياة وثمن غال لخبطة عاطفة وجنون ساوقع على مطالبتك يا "**ديشيليت**"!

قالت "**فاني**" بصوت منخفض وهي ترتجف:

– إنه "**كودال**".

رد أحدهم بجفاء حاسم رافض:

– أنا لن أوقع شيئا ولكن أقبل أي وحدة مع هذا المغفل.

همهمت "**فاني**" وهي تلتصق بعشيقها:

– الآن "**لاجورنيري**" لنرحل إن كان يضايقك أن تراهم.

– ولم لا إذن؟

في الحقيقة لم يحسب حساب الانطباع الذي سيحسه عند رؤيته لهؤلاء الرجال وجها لوجه ولكنه لم يرغب في التراجع ربما رغبة في معرفة درجة استقباله لتلك الغيرة التي أصابت حبه قال:

– هيا بنا..

وظهرا أمام صلعات أصدقاء "**ديشيليت**" المستلقين مبعثرين فوق الأرائك المنخفضة والمائدة الشرقية التي غطيت بزجاجات الشراب والأكواب. تبادلت النساء القبلات وسأل "**ديشيليت**" وهو فوق مقعده الهزاز:

– هل تعرف هؤلاء السادة يا "**جوسان**"؟

كان يعرفهم أو اثنين على الأقل يعرفهما تمام المعرفة من صورهما المعروضة في فترينات المشاهير. كم سببا له من عذابات وكراهية وأحس نحوهم بحقد متزايد وغضب جامح حتى ود لو أكل وجوههم لو قابلهم في الطريق. ولكن "**فاني**" تقول له الآن إنهم بالنسبة لها مجرد وجوه معارف غامضة أو شبه أقارب أو أعمام بعاد. قال "**كـودال**" وهو ممدد بطوله العملاق وقد أمسك بمظلة فوق عينيه ليحميهما من بريق الزجاج.

– إنه لايزال حلوا كما هو هذا الصغير.. و"**فـاني**" غريبة! إن وجهها لايزال يقاوم عوامل الزمن ولكن الجسد.. من الأفضل أن تجعليه نحيفا.. على أية حال سري عن نفسك فإن "**لاجورنيري**" أضخم منك.

زم الشاعر شفتيه الرفيعتين وجلس على كنبة تركية ذات وسائد عالية. ومنذ رحلته للجزائر وهو يدعي أنه لا يستطيع الجلوس إلا بهذه الطريقة، كان ضخما وبدينا ولم يعد لديه ذكاء بجبهته الخشنة ونظرته البربرية وكان يتعامل مع "**فـاني**" في تحفظ اجتماعي وأدب مبالغ فيه وكأنه يعطي دروسا لـ"**كودال**".

وكان هناك فلاحان برأسين لوحتهما الشمس يبدوان صلبين يكملان الاجتماع وهما

أيضا يعرفان عشيقة "**جان**" وقال لها أصغرهما سنا. وهو يشد على يدها:

– لقد قص علينا "**ديشيليت**" حكاية الطفل. إنه لأمر لطيف جدا ما فعلته هناك يا عزيزتي!

قال "**كودال**" لـ"**جوسان**":

– نعم.. نعم عمل راق جدا مسألة التبني.

بدت "**فاني**" محرجة من تلك المجاملات عندما سمعا طرقا على إحدى قطع الأثاث داخل المرسم المعتم.

– ألا يوجد أحد؟

قال "**ديشيليت**":

– هذا هو "**انزو**".

كان هذا "**الانزو**" لم يسبق لـ"**جان**" أن رآه من قبل قط ولكنه كان يعرف مرتبة ذلك البوهيمي الذي أصبح مرتبا ورئيسا لقسم في كلية الفنون الجميلة والمكانة التي احتلها عند "**فاني لوجراند**" تذكر رزمة الخطابات الملتهبة والساحرة. تقدم رجل ضئيل نحيف ومجفف وله مشية متخشبة وبدا مندهشا جدا لرؤية "**فاني**" خاصة وأنها لا تزال جميلة بعد كل تلك السنين. قال:

– غريبة! هذه "**صافو**"!

أعادها اسم "**صافو**" للماضي وقربها من كل عشاقها القدامى وسبب نوعا من الضيق والحرج. قال "**ديشيليت**":

– وما الذي جاء بالسيد "**دارماندي**" إذن؟

حياهم "**انزو**" وبدأوا يثرثرون. واطمأنت "**فاني**" إلى أن حبيبها تقبل الأمور ببساطة وهو فخور بجمالها وفخور بنفسه وبشبابه أمام هؤلاء الفنانين والعلماء وبدا مرحا ونشطا. لقد بدا أمامها كل ذلك عواطف وتعايشا ماضيا وحياة مشتركة انفضت. أخذت "**فاني**" تأتي ببعض الحركات التي سبق أن تعودتها معهم وتقبل "**جان**" ذلك دون أي اضطراب مع أن ذلك كان يضايقه بشدة فيما مضى وأثبت أنه يستطيع أن يظل هادئا مثل السجين الذي استطاع التخلص من قيده وأن أقل مجهود يمكنه أن يهرب. قال "**كودال**" بلهجة لزجة وهو يشير إلى الأخريات والآخرين:

– ما رأيك يا صغيرتي "**فاني**" .. يا للانهيار..!! هل أصبحوا عجائز جافين! لا يوجد سوانا أنا وأنت اللذان تحملا الضربة.

أخذت "**فاني**" تضحك:

– آه.. عفوا يا كولونيل.. إنهم يسمون هكذا أحيانا بسبب الشوارب.. الأمر ليس واحدا على أية حال أنا من عجينة معينة.

قال "**لاجورنيري**" بحركة المثال الذي لمس وترا حساسا:

– إن "**كـــــودال**" ينسى دائما أنه أصبح من الأسلاف لقد حصلت على الميدالية عام ١٨٤٠.. إنه تاريخ يا عزيزي. لاتزال بين الصديقين القديمين اللهجة العدوانية وعدم استلطاف صامت لم يفرق بينهما قط ولكنه متفجر في عيونهما داخل كلامهما وكان هذا من عشرين عاما حتى انتزع الشاعر عشيقته من المثال. لم يعد لـ"**فاني**" أي قيمة بالنسبة لهما حيث جرى كل منهما وراء ملذاته الأخرى ولكن ظلت الضغينة مدفونة بمرور السنين. كان "**كودال**" محشورا في السترة التي أبرزت عضلاته ونهض وهز جمجمته وقال:

– انظري إذن من منا أصبح من الأسلاف يا "**فاني**"! لقد حصلت على الميدالية عام ١٨٤٠ وسأصبح في الثامنة والخمسين بعد شهور ثلاثة. ثم ماذا يثبت ذلك؟ هل السن هو الذي يسبب الكهولة؟ لا يوجد إلا في الكوميدي "**فرانسيز**" و"**الكنسيرفاتوار**" فيهما يتحرون عن سن الستين حتى لا يصاب أعضاؤهما بأحداث بسبب كبر السن.. اللعنة في سن الستين يسير المرء أكثر استقامة ممن هم في سن الثلاثين لأن المرء يراعي نفسه ويحتني بصحته والمرأة تزيد الإنسان شبابا في القلب بشرط أن يظل القلب شابا ودافئا ويتحمل كل التدليل.

قال "**لاجورنيري**" الذي كان يراقب "**فاني**" في تراجع وينظر إلى "**ديشيليت**" بابتسامة طيبة.

– هل تظن ذلك حقا؟ ومع ذلك تقول دائما إنه لا يوجد سوى الشباب هو الذي لا يهزمك.

– إنها الصغيرة "**كوستارو**" التي جعلتني أغير رأيي. إنها الموديل الجديد التي تعمل في مرسمي. إن سنها ثمانية عشر.. كل تقاسيمها رائعة. وهي طفلة طيبة من حي "**لاهال**" حيث تبيع أمها الدواجن.

– هكذا تكون بيت زوجية جديد إذن؟ وبعد ستة أشهر تحدث القطيعة والدموع والنفور من العمل وثورات غضب تجعلك تود لو قتلتها.

غام جبين "**كودال**" وقال:

– صحيح أنه لا شيء يدوم.. المرء يأخذ ثم يترك.

– إذن لماذا تأخذ.

– وأنت ما رأيك؟ هل تعتقد إذن أنك ستعيش حياتك كلها من أجل الفلامنكية!

– أوه.. نحن لسنا كذلك.. لسنا زوجين اليس كذلك يا "**أليس**"؟

ردت الشابة بصوت شارد وناعم وهي تقوم بجمع زهور الجلايسين والزرع من أجل باقة للمائدة.

– بالتأكيد.

استمر "**ديشيليت**":

– لن تحدث أي قطيعة بيننا ربما بالكاد شجار وانفصال لقد حددنا مهلة شهرين لقضائهما معا وفي اليوم الأخير الذي سننفصل فيه دون يأس أو مفاجأة أنا سأعود إلى أصفهان وأستعيد نومي الهادئ وتعود "**اليس**" إلى شقتها الصغيرة في شارع "**لابروايير**" التي لاتزال تحتفظ بها.

ابتسمت الشابة ذات الشعر الأحمر البراقة والنهار يقترب من نهايته وفي يدها باقة الزهور البنفسجية ولكن لكنتها كانت ثقيلة وعميقة وجادة حتى إن أحدا لم يرد عليها.

زادت الريح برودة وبدت البيوت المواجهة أكثر ارتفاعا صاح "**الكولونيل**":

– هيا بنا نجلس إلى مائدة الطعام ونقول أشياء مجنونة.

– نعم هذا هو.. لنمرح ونحن لازلنا شبابا أليس كذلك يا "**كودال**"؟

كانت لهجة "**لاجورنيري**" مشوبة بضحكة مصطنعة.

بعد بضعة أيام مر "**جان**" بشارع "**روما**" مرة ثانية ووجد المرسم مغلقا والستارة الضخمة مسدلة على الجدار الزجاجي وراء صمت شنيع على القباء حتى الشرفة. لقد رحل "**ديشيليت**" في الموعد المحدد وانتهت المهلة. وفكر في نفسه كم هو رائع أن يستطيع المرء أن يفعل ما يريده في الوجود وتحكيم العقل والقلب. هل ستواتيه تلك الشجاعة يوما ما؟

وجد كفا تستقر على كتفه:

– يومك سعيد يا "**جوسان**".

كان "**ديشيليت**" يبدو منهمكا ووجهه أكثر شحوبا وأكثر تغضنا عن العادة وشرح له أنه لم يرحل بعد وقد عاقته في "**باريس**" بعض الأعمال وأنه يقطن الآن في فندق "**جراند**" لأن المرسم يرعبه منذ تلك الحكاية المخيفة.

– ما هي إذن؟

– هذا صحيح إنك لا تعرف.. لقد ماتت "**أليس**" لقد قتلت نفسها.. انتظرني حتى أرى إن كانت هناك رسائل لي.

عاد في الحال تقريبا وهو يقلب صفحات الجريدة بأصابع عصبية وكان يتحدث في صمت مثل المنوم دون أن ينظر إلى "**جوسان**" الذي يسير بجواره.

– نعم قتلت.. ألقت بنفسها من النافذة كما قالت في الليلة التي كنت فيها أنت هناك. ماذا كنت تريد؟ لابد أن أرحل لقد قالت لي في هدوء "اصحبني يا "**ديشيليت**".. لا تتركني وحيدة إنني لا أستطيع أن أعيش بدونك".. لقد أضحكتني بقولها. تراني الآن مع امرأة من الأكراد في الصحراء والحمى وليالي البدو.. وفي العشاء كانت تكرر علي باستمرار: أنا لن أضايقك وسترى كم سأكون لطيفة.. ثم أدركت أنها تؤلمني فلم تعد تلح.. وبعدها ذهبنا إلى مسبح "**فاريتي**".. لقد كان كل شيء متفقا عليه مسبقا. بدت سعيدة وأمسكت بيدي طوال الوقت وهي تهمهم باستمرار "أنا بخير".. وعندما كنت سأرحل في المساء صحبتها إلى بيتها بالسيارة ولكن كلينا كان حزينا دون كلام. إنها حتى لم تقل لي شكرا على الرزمة التي دسستها في جيبها وبها ما يسمح لها بالحياة لعام أو اثنين، وعندما وصلنا شارع "**لابروبير**" طلبت مني الصعود. لم أكن أرغب فقالت أرجوك حتى الباب فقط! ولكني تماسكت جيدا ولم أدخل. كان مكاني في السفر محجوزا، وقد حزمت حقيبتي ثم إنني قلت كثيرا جدا إنني راحل. وعند هبوطي والقلب مهموم سمعتها تصيح لي بشيء ما مثل "أسرع منك".. ولكني لم أفهم إلا في الطريق أوه..!

توقف وعيناه على الأرض أمام رؤية وهمية رهيبة يمثلها الرصيف وتتمثل أمامه في كل لحظة، لقد ماتت بعد ساعتين دون كلمة ولا شكوى وهي تركز على حدقتي عينيها الذهبيتين. هل عانت؟ هل تعرفت علي؟ لقد وسدناها الفراش بكامل ملابسها وضمادة من الدانتيلا حول رأسها من ناحية لتغطية جرح الجمجمة. كانت شاحبة جدا مع بعض الدماء

على خدها وكانت لاتزال جميلة ورقيقة ولكني عندما انحنيت لمسح تلك النقطة من الدماء كانت تعود ولا تنمحي وبدت نظراتها تتخذ تعبيرا من المهانة الرهيبة ولعنة صامتة كانت تصبها الفتاة المسكينة علي. ما الذي يفعله لي أن أبقى بعض الوقت أطول أو أن أصحبها معي وهي مستعدة لكل شيء ولن تسبب لي أي ضيق؟ لا.. إنه الغرور والعناد على كلمة قيلت.. حسنا أنا لم أستسلم وهي ماتت. ماتت مني ومع ذلك أحبها.

كان يصعد الطريق وهو يلكز من يقابله يمينا ويسارا وعندما مر "**جوسان**" أمام منزله القديم حيث رأى الشرفة وأعادته إلى "**فاني**" وحكايتهما الخاصة وأحس بالرجفة و"**ديشيليت**" مستمر في كلامه لقد نقلتها إلى "**مونبارناس**" بلا أصدقاء ولا عائلة. لقد أردت أن أكون الوحيد الذي يرعاها وظللت هناك من يومها وتسيطر علي الفكرة ولا أستطيع أن أقرر الرحيل والهروب من بيتي الذي قضيت فيه في منتهى السعادة بجوارها والهروب من تلك العين الميتة التي كانت تنظر إلي من خلال خيوط الدم.

وقف وقد حطمه تأنيب الضمير ودمعتان كبيرتان تنزلقان على أنفه الصغير وقال:

– هيا يا صديقي. لست مع ذلك قاسيا ومع ذلك ما فعلته كان أكثر من قدرتي.

حاول "**جان**" أن يسري عنه ملقيا اللوم كله على القدر السيئ والصدفة ولكن "**ديشيليت**" كان يكرر وهو يهز رأسه وقد كز على أسنانه.

– لا..لا.. لن أسامح نفسي أبدا.. أريد أن أعاقب نفسي.

وكانت فكرة عقاب نفسه لم تكف عن مطاردته وتحدث عنها لكل أصدقائه ولـ"**جوسان**".

– ارحل إذن يا "**ديشيليت**".. قم برحلات واعمل فإن ذلك سيسري عنك ويشغلك. كان هذا ما يكرره عليه "**كودال**" والآخرون الذين أحسوا ببعض القلق من فكرته الراسخة وذلك الحماس في تكرار أنه ليس قاسيا ولا شريرا وأخيرا في إحدى الأمسيات سواء كان أنه توقف عن فكرة إنهاء آلامه. فقد دخل إلى بيته وفي الصباح كان العمال يهبطون من الضواحي إلى أعمالهم فقد جمعوه وجمجمته مفلوجة إلى قسمين من فوق الرصيف أمام بابها ومات بنفس طريقة الانتحار التي ماتت بها امرأته وقد ألقى بنفسه بنفس الضجة إلى الشارع.

وقد سارع إلى داخل المرسم شبه المعتم جمهور من الفنانين والموديلات ونساء المسرح وكل

الراقصين ومتناولي عشاءه والمترددين على حفلاته وسرت همهمة وضجة أسى وهلع حول النعش المضاء بالشموع وبدأ الناس يتطلعون خلال الفروع وأوراق الشجر إلى الجسد المسجى في قماش الكفن الذي أخفى جرح الجمجمة بينما أشارت الأيدي المرتدية القفازات البيضاء إلى الأريكة التي كان يتمدد فوقها "**جوسان**" وعشيقته في أول ليالي تعارفهما.

الفصل العاشر

يحدث أحيانا أن يموت البعض إذن من تلك القطيعة، والآن عندما يتجادلان لا يجرؤ "**جان**" على الحديث عن رحيله ولم يعد يصيح وقد ضاق صدره . لحسن الحظ أن ذلك لن يدوم. وهي لم يكن أمامها سوى أن ترد:

– هذا جميل.. اذهب.. أنا سأقتل نفسي وأفعل مثل الأخرى..

وكان هذا التهديد الذي كان يفهمه في حزن نظراتها وألحانها التي تغنيها وفي أحلام صمتها كان يرعبه ومع ذلك نجح في امتحان قدراته على أداء الأعمال القنصلية والعمل لملحق قنصلي، ودخول مرحلة عليا في الوزارة ليحتل وظيفة محترمة وسيتم تعيينه في إحدى الوظائف الثابتة خلال أسابيع، ولم يعد هناك أمامه سوى أسبوع أو أيام. وكان كل شيء حولهما في نهاية فصل الصيف يسارع نحو تغيرات الشتاء وفي صباح فتحت "**فاني**" النافذة أمام بشائر الضباب وصاحت:

– غريبة.. لقد رحلت البلابل!

وأخذت المنازل البورجوازية في البلاد تغلق نوافذها واحدا بعد الآخر والمطلة على طريق "**فرساي**" تابعت عربات العزال والأوتوبيسات الضخمة الريفية المحملة باللفائف وبعض المزروعات الخضراء وخلف المرعى المجدب من الأعشاب كانت الشاليهات مغلقة وعلى الجانب الآخر من البيت كان خط السكة الحديد عاريا وممتدا فوق فلنكات الخشب.

يالها من قسوة أن يتركها بمفردها في وسط هذه الأشياء الحزينة! أحس بقلبه يهبط مقدما إنه لن تواتيه الشجاعة أبدا للوداع. وعلى هذا الأساس كان يعتمد وهو ينتظر الدقيقة العظمى وحتى الآن ظلت هادئة لا تتكلم مخلصة لوعدها ألا تضع العراقيل أمام هذا الرحيل المتوقع في أي لحظة والمتفق عليه. وفي يوم دخل البيت ومعه هذا الخبر.

– لقد تم تعييني!

– آه... وأين إذن؟

كانت تسأله وقد بدا عليها عدم الاكتراث ولكن شفتيها ورموش عينيها كانتا تنتظران الرد:

ـ لا.. لا.. ليس بعد فقد تنازلت عن دوري لـ"**هيـدوان**" وهذا يمنحنا على الأقل ستة أشهر .

طفرت الدموع وترددت الضحكات والقبلات المجنونة:

ـ شكرا.. شكرا! يالها من حياة جميلة سأقدمها لك الآن! هكذا الأمر كما ترى هو الذي كان يجعلني قاسية.. فكرة رحيلك.

إنها ستستعد أفضل وتتقبل الأمر شيئا فشيئا ثم خلال ستة أشهر لن يكون هناك الخريف المليء بذكريات تلك الوفيات المشؤومة.

لقد أوفت بكلمتها فلا أزمات عصبية ولا مشاحنات ،وحتى تتجنب متاعب الطفل قررت أن تدخله المدرسة الداخلية في "**فرساي**" ولا يخرج إلا يوم الأحد وإذا لم يحسن هذا النظام من تمرده المتوحش فإنه على الأقل سيعلمه المكر. وعاشا في هدوء مع تناول عشاء لذيذ مع آل "**هيتيما**" دون عواصف وأعادت فتح البيانو للتدريب على أغنياتها المفضلة. ولكن "**جان**" ظل في أعماقه مضطربا وأكثر حيرة عما مضى وهو يتساءل إلى أين سيقوده ضعفه وهو يفكر أحيانا في التخلي عن العمل القنصلي وأن ينتقل للعمل بالمكاتب. إنها "**باريس**" ومهلة العيش في بيت يتجدد بلا نهاية. ولكن كيف يتخلى عن حلمه وحلم أهله والمعركة المؤكدة مع والده الذي لن يغفر له تركه الوظيفة خاصة إذا علم الأسباب ثم من أجل من؟ من أجل مخلوقة تكبر في السن باستمرار وتبلى ولم يعد يحبها وأمامه الدليل في عشاقها. ما هذا الحظ السيئ الذي يغمسه في تلك الحياة المزدوجة؟

وفي صباح أحد الأيام وهو يصعد إلى عربة القطار في أواخر شهر أكتوبر التقت نظراته بنظرات الفتاة الشابة ذكرته فجأة بذلك اللقاء المفاجئ في الغابة وهذا الجمال المشرق للطفلة المرأة الذي ظلت ذكراه عالقة بذهنه شهورا وشهورا. كانت ترتدي نفس الثوب الفاتح اللون ولكنها ارتدت فوقه معطفا. وداخل عربة القطار وجد كتبا وحقيبة صغيرة وباقة كبيرة من براعم الورد وآخر زهور الخريف كل ذلك يدل على عودة إلى "**باريس**" ونهاية الحياة القروية.

هي أيضا عرفته وعلت عينيها شبه ابتسامة طرية ولمدة ثانية واحدة كان التفاهم غير المعلن قد تم بين الكيانين. سأل العجوز "**بوشيرو**" فجأة الذي لم يلحظه "**جان**" لأول

وهلة من شدة افتتانه وهو قابع في ركن العربة يقرأ الجريدة :

– وكيف حال أمك يا سيد "**دارماني**"؟

أعطاه "**جان**" الأخبار وقد تأثر جدا من أنه لايزال يتذكر أهله عندما سألت الفتاة الشابة "**جان**" عن الأختين التوأمتين اللتين كتبتا لعمها خطابا رقيقا جدا يشكرانه على عنايته بأمهما، إنها إذن تعرفهما وهذا ملأ صدره بالسعادة ثم لما كان شديد الحساسية هذا الصباح بالذات فقد أصابه الحزن في الحال وهو يعلم بعودتها إلى "**باريس**" وأن "**بوشيرو**" ستتلقى دروسها في الفصل الأول في كلية الطب ولن تتاح له أبدا فرصة رؤيتها مرة ثانية. وأخذت الحقول تجري أمام فتحات النوافذ وقد بدت له كئيبة بعد أن أضاءها ضوء يشبه كسوف الشمس.

أصدر القطار صفيرا طويلا. لقد وصلوا. حياهما وفقدهما ولكنه عند مخرج المحطة التقوا ثانية وأخبره "**بوشيرو**" وهو في عجلة من أمره أنه اعتبارا من يوم الخميس القادم سيظل في بيته في ميدان "**فيندوم**".. وأنه إذا رغب في تناول قدح من الشاي.. أعطت الفتاة ذراعها لعمها. وبدا لـ"**جان**" أنها هي التي تدعوه دون أن توجه إليه كلمة.

بعد أن قرر "**جوسان**" أكثر من مرة الذهاب إلى بيت "**بوشيرو**" ولكنه لم يذهب لأنه ما فائدة أن يملأ نفسه بالندم بلا جدوى. ومع ذلك أعلن في بيته أنه ستقام قريبا سهرة في الوزارة يجب عليه حضورها. أعدت "**فاني**" حلته وكوت رابطة عنقه البيضاء ثم فجأة مساء الخميس لم تعد لديه أي رغبة في الخروج. ولكن عشيقته عقلته حول ضرورة حضوره ولامت نفسها واتهمتها بالأنانية لاحتفاظها به بجوارها ثم شجعته وأنهت إلباسه ملابسه وهي تداعبه في حنان وعدلت من وضع رباطة عنقه وتموجات شعره وضحكت لأن أصابعها كانت تفوح منها رائحة السجائر والتي وضعتها فوق المدفأة. وعندما رآها سعيدة وفرحة أصابه تأنيب الضمير من كبته وود من صميم قلبه لو بقي بالقرب منها في ركن المدفأة لولا أن "**فاني**" أجبرته.

– أنا أريد.. يجب أن تفعل.

ثم دفعته بحنان إلى الخارج وسط الليل والطريق. كان الوقت متأخرا عندما عاد وكانت هي نائمة والمصباح مضاء ذكره بعودة مماثلة من ثلاث سنوات بعد الأسرار الرهيبة التي تكشفت له. وكم بدا جبانا وقتها! أحس بالغثيان يجتاحه فالسرير والمرأة والحجرة

كلها تسبب له الرعب أخذ المصباح معه إلى الحجرة المجاورة في هدوء لقد ود جدا أن يكون بمفرده ليفكر فيما يحدث له أوه.. لا شيء.. تقريبا.. إنه يحب.

وكلمة حب هي من نوع الكلمات المخيفة في داخلنا ثم تظهر فجأة وكأنها دفعت بفعل زنبرك وهؤلاء الذين عرفوا تلك الحقيقة يفهمون مدى القلق اللذيذ الذي يعيشه "**جان**" منذ ساعة دون أن يدرك حقيقة ما يشعر به.

هناك في ميدان "**فيندوم**" وفي ركن الصالون حيث ظلوا يتحدثون كثيرا لم يحس "**جان**" سوى بالرضاء عن النفس وسحر لذيذ يحيط به. وما إن أصبح في الخارج والباب أغلق خلفه حتى تملكته خفة مجنونة من السعادة أحس معها بأن كل شرايينه تفتحت. قال في نفسه ما الذي حدث له بحق السماء؟ بدت له "**باريس**" الذي عبرها ثانية ليعود إلى بيته بدت له "**باريس**" جديدة خرافية وفسيحة ومشرقة. نعم في تلك الساعة التي انطلقت فيها حيوانات الليل تلف وتدور وانتشرت الرذيلة تحت أضواء مصابيح الشوارع. كان عشيق "**صافو**" مندهشا من كل تلك الانحرافات.. "**باريس**" الفاحشة أصبحت مشرقة تحت ضوء القمر الكامل.. وفجأة وهو يصعد السلم العريض لمحطة القطار ويقترب من العودة إلى جحره السيئ فاجأ نفسه وهو يقول ولكني أحبها.. أحبها.. وهكذا عرف الكلمة السحرية التي قفزت أمامه كالزنبرك.

– هل أنت هنا يا "**جان**"؟ ماذا تفعل إذن؟

نهضت "**فاني**" فزعة عندما لم تحسه بجوارها وكان عليه أن يأتي ليقبلها ويكذب ويحكي عن حفل الوزارة الراقص وأن يقول عما رآه من زينة نساء جديدة ومع من رقص ولكن حتى يهرب من ذلك الاستجواب خاصة من تدليلها الذي كان يخشاه اخترع عملا عاجلا يخص رسومات "**هيتيما**". قالت:

– لم يعد هناك نار في المدفأة وستصب بالبرد.

– لا.. لا.

– على الأقل دع الباب مفتوحا حتى أرى المصباح.

كان عليه أن يمضي في كذبته حتى النهاية وأن يعد مائدة الرسم ومعداته ثم يجلس بلا حركة وقد كتم أنفاسه.. كان يفكر ويتذكر وحتى يحدد حلمه وأن يقصه على "**سيزار**" في خطاب طويل بينما تحرك رياح الليل الأغصان التي تتكسر والقطارات تتابع

في صرير مزعج. قال كل شيء.. لقاء الغابة وعربة القطار وعاطفته الغريبة عند دخوله الصالون الذي اعتبره كئيبا وشنيعا يوم زيارته مع عمه لاستشارة الطبيب "**بوشيرو**" حول أمه والهمسات السريعة وداء الأبواب.. والنظرات الحزينة المتبادلة من مقعد لآخر وأنه في هذا المساء انفتح الصالون حيا ومليئا بالضجة وقد أضيء إضاءة مشرقة و"**بوشيرو**" نفسه لم يعد له نفس الجسد المتصلب ولا العين السيئة الفاحصة تحت رموشه الطويلة وإنما علا وجهه تعبير مريح وأبوي لرجل طيب الذي يوافق على أن يتمتع من معه في البيت. كتب يقول:

– فجأة أتت نحوي ولم أعد أرى شيئا. يا صديقي إنها تدعى "**ايرين**" هي جميلة وتبدو طيبة وشعرها بني ذهبي.. شعر الإنجليزيات وفم طفل مستعد دائما للضحك.. أوه.. ليست الضحكة الخالية من البهجة والتي تزعجني عند النساء وإنما انتشار حقيقي للشباب والسعادة. لقد ولدت في لندن ولكن والدها كان فرنسيا وليست لديها اللكنة الفرنسية على الإطلاق وإنما طريقة حيوية في النطق لبعض الكلمات مثل "**أونكليه**" أي عمي والتي كانت تخلق ومضة سعادة في كل مرة في عيني العم "**بوشيرو**" لقد أخذها معه حتى يخلص الأسرة.. أسرة شقيقه كثيرة العدد ولتحل محل شقيقة "**ايرين**" الكبرى التي تزوجت من سنتين من رئيسها في العيادة. ولكنها –أقصد "**ايرين**" – لم يعد يرغبها الأطباء. ولما كانت أمتعتني ببراءة النساء المتحذلقات عن حماقات خطيبها المبالغ في إظهار علمه حول كل شيء. إنه مجرد ارتباط رسمي ومبهر أن يهبا جسدهما لجمعية علماء أصل الإنسان. وهي .. عصفور شارد متجول إنها تحب السفن والبحر والدوامات التي تغوص بقلبها. لقد قالت لي كل ذلك بمنتهى الحرية كزميل هي الآنسة الإنجليزية رغم رقتها الفرنسية وجمالها وأنا ألتفت إليها مبهورا وسعيدا بصوتها وضحكاتها وتطابق ذوقينا وتأكيد عميق بأن سعادتي عندها.. في متناول يدي أنه ما علي سوى أن أمسك بها وآخذها بعيدا جدا حيث تذهب بي وظيفتي المغامرة.

– تعال إذن لتنام يا صديقي..

ارتجف وكف عن مواصلة الكتابة وقد أخفى بطريقة غريزية الخطاب الذي كان يحرره.

– حالا.. نامي.. نامي!

كان يحدثها بغضب وقد شد ظهره واستمع إلى النعاس يعود إليها ثانية في نفس تلك المرأة رغم بعدهما عن بعضهما. وأكمل:

- ... مهما حدث فإنه سيكون الخلاص في ذلك اللقاء والحب. أنت تعرف ما هي حياتي وفهمت دون أن يجري حديث بيننا حولها إنها هي على ما هي عليه من قديم وإنني لم أستطع مواجهتها. ولكن الذي لا تعرفه هو أنني كنت مستعدا بالتضحية بالثروة والمستقبل وكل شيء مقابل هذه السعادة القاتلة التي انغمست فيها شيئا فشيئا بمرور الأيام. الآن وجدت المخرج.. نقطة الارتكاز التي كانت تنقصني وحتى لا أدع مجالا لضعفي. أقسمت ألا أعود إلى هناك إلا وأنا حر ومنفصل عن ماضي... غدا هو الهروب.. ولكن لم يكن الغد ولا بعد الغد.. لابد من إيجاد وسيلة للهروب ومبررا لذلك الهروب والتخلص من معركة بعدها يقول "إني راحل" ولا يعود بعدها وها هي "**فاني**" تبدو رقيقة ومرحة مثل الأيام الأولى للبيت العائلي الوهمي ماذا لو كتب دون شرح لقد انتهى الأمر؟ ولكن هذا العنف لم يستقر عليه أيضا وقد يدفعه ويحمسه إلى باب فندقه ومكتبه. لا من الأفضل مواجهتها وجها لوجه وإقناعها بالمحتوم والقطيعة التي لا رجعة فيها دون ثورة غضب وبشيء من الرحمة وعليه أن يعدد لها الأسباب. ولكن بهذه الأفكار عاد إليه الخوف من الانتحار الذي ارتكبته "**أليس دوريه**" وتصور عشيقته وهي تجري وراءه ثم تلقي بنفسها على قضبان السكة الحديد لتلتهمها عجلات القطار كانت هذه الرؤيا تضطهده لدرجة أن مجرد فكرة ذلك الخط بين الطريق المغطى بالحشائش كانت تجعله يتراجع في شرح الأمر لها.

ثم آه لو كان لها صديق يمكن أن يحرسها ويساعدها في أولى أزماتها ولكن كثرة تنقلهما جعلتهما لا يعرفان أصدقاء سوى الثنائي "**هيتيما**". هذين الأنانيين الغارقين في دهنهما وحيوانيتهما وكأنهما من أهل "**الإسكيمو**" في الشتاء مما يجعل من غير المجدي أن تلجأ المسكينة إليهما لمساعدتها في بؤسها وهجرانها.

مع ذلك لابد من القطيعة وبسرعة ورغم وعد "**جان**" لنفسه إلا أنه عاد مرة أو اثنتين إلى شارع "**فيندوم**" وقد ازداد ولها ورغم أنه لم يقل شيئا فإن لقاء العجوز "**بوشيرو**" له مفتوح الذراعين ومسلك "**ايرين**" وهو خليط من التحفظ والحنان والتسامح والانتظار الملهوف أن يعلن حبه. كل ذلك أنذره أنه عليه أن يسرع ثم هناك عذاب الكذب والمبررات التي اخترعها لـ"**فاني**".

الفصل الحادي عشر

وسط كل هذه المتغيرات وجد في الوزارة على مائدته بطاقة سيداتي مرتين من قبل في الصباح كما قال الساعي بنوع من الاحترام:

– السيد "**س جوسان دارماندي**": رئيس البعثة الفرعية لوادي الرون وعضو اللجنة المركزيه للبحث والمراقبة. ومندوب القسم.. إلخ.. إلخ.

العم "**سيزار**" في باريس! "**فينان**" أصبح مندوبا للجنة المراقبة! استمر ذهوله عندما ظهر العم داكن اللون كالعادة وعيناه مجنونتان وضحكته بادية في طرفي فمه ولحيته منذ وقت الحلف ولكن بدلا من سترته الأبدية القديمة ارتدى حلة "**ريدنجوت**" من الجوخ الجديد اللامع ومنحت الرجل عظمة رؤساء الدول. ما الذي جاء به إلى "**باريس**"؟ شراء ماكينة غرس جديدة للتوسع في كرومه مع قناعته بأن تتسع وتكبر أمام عينيه. ثم طلب صناعة تمثال نصفي له بناء على طلب زملائه لتزيين قاعة الاجتماعات والمجلس. وأضاف وقد بدا عليه التواضع:

– هل رأيت؟ لقد عينوني رئيسا. لقد قبلت فكرتي بغمر الكروم كل الجنوب. ويقولون إنه أنا "**فينان**" الذي أنقذ كروم فرنسا ولكن الهدف الرئيسي لرحلته هو الانقطاع مع "**فاني**" وقد ظن أن الأمر استمر أكثر من اللازم وجاء ليقدم يد المساعدة.

– أنا لدي معرفة كما تعلم بذلك... عندما قام "**كوربباس**" بقطع علاقته مع عشيقته ليتزوج..

وقبل أن يهجم بقصته توقف ثم فك أزرار سترة "**الريدنجوت**" وأخرج محفظة نقود مكتظة وقال:

– أولا خلصني من هذه النقود.

وقد خدع في حركة ابن أخيه الذي ظن أنه يرفض بسبب الخجل أو أن الأمر ليس سريا:

– خذها إذن.. خذها إذن.. إنه لفخر بالنسبة لي أن أرد إلى ابن أخي بعضا مما فعله أبوك معي ثم إن "**ديفون**" هي أيضا تريد ذلك. إنها على معرفة بمجريات الأمور وسعيدة بأنك تفكر في الزواج وتنظيف حياتك الماضية..!

وجد "**جان**" أن عبارة تنظيف حياته الماضية بعد ما فعلته "**فاني**" لإنقاذه هو بالذات أمر ظالم ورد عليه بنوع من المرارة:

– استعد محفظة نقودك يا عمي.. أنت تعرف جيدا وأكثر من أي شخص كم لا تهتم "**فاني**" بهذه الأمور.

قال العم بطريقة الرثاء الجنائزي:

– نعم... صحيح إنها فتاة طيبة.. احتفظ دائما بالنقود وبالنسبة للإغراءات في باريس أفضل أن تظل معك بدلا مني وهي فضلا عن ذلك هامة بالنسبة للقطيعة مثل تعويضات المبارزات!

وعليها نهض العم وأعلن أنه يموت جوعا وأن تلك المشاكل الكبرى من الأفضل مناقشتها أثناء الطعام.

كان يتحدث بنفس خفة أهل الجنوب عن النساء. جلسا أمام مائدة المطعم في شارع "**بورجونيا**" وقد انتفخت أوداج العم. بينما "**جان**" يكز على أسنانه ومعدته خاوية:

– فيما بيني وبينك يا صغيري.. إنني أعتبر أنك تأخذ الأمر مأخذا مأساويا أكثر من اللازم. اعلم أن الخبطة الأولى تكون دائما قاسية. والشرح ممل ولكن ذلك سيكلفك كثيرا.. لا تقل شيئا وافعل كما فعل "**كوربباس**" حتى ليلة الزواج كانت "**لامورنا**" تجهل كل شيء. وفي المساء عند خروجه من بيت زوجته القادمة ذهب لمقابلة المغنية وهي في ثورة غضبها وصحبها إلى بيتها. ستقول إن ذلك أمر غير أخلاقي وخيانة.. ولكن عندما لا يحب المرء مشاهد العراك ومع نساء رهيبات مثل "**باولا مورنا**"! لقد مرت عشر سنوات وذلك الضخم المليح يرتجف أمام تلك الحشرة السمراء الضئيلة –من أجل القطيعة لابد من استخدام الحيلة.. وهذه هي الحيلة التي استخدمها في ليلة الزواج يوم الخامس عشر من أغسطس وهو يوم العيد اقترح "**سيزار**" على الصغيرة الذهاب للصيد في نهر "**أيفيت**" وكان من المفروض أن يأتي "**كوربباس**" لينضم إليهما للعشاء وأن يعودوا هم الثلاثة في اليوم التالي.. ومر الأمر.. وها هما الاثنان ممددان فوق العشب على ضفة ذلك النهر الصغير وبعد الصيد والاستحمام ولم تكن هذه أول مرة يسبحان معا وكانت "**بولا**" والفتى صديقين ولكن في ذلك اليوم فإن "**مورنا**" الضئيلة وقد عرت

ذراعيها وساقيها وقد تلوى جسدها الأسمر في المايوه الضيق الصغير عندما خطرت على باله فكرة أن يعطيها الكارت الأبيض.. آه ياله من صباح.. عادت ونظرت في عينيه بقسوة .

– هل تعلم يا "**سيزار**" ... لا تعد إلى ذلك أبدا.. وهو لم يلح خوفا من إفساد قضيته وقال لنفسه: ليكن هذا فيما بعد العشاء.

كان العشاء مرحا جدا على الشرفة الخشبية للفندق الريفي بين رايتين علقهما صاحب الأوبرج احتفالا بعيد الخامس عشر من أغسطس كان الجو حارا ومخازن الغلال تفوح منها رائحة طازجة ومنعشة وكانت الطبول تسمع والاستعراضات والموسيقى تجوب الشوارع. قالت "**مورنا**" :

– إنه سخيف ذلك الـ"**كورباس**" ألا يعمل إلا في اليوم التالي وقد تثاءبت من كثرة ما احتسته من شراب التفاح.. لدي رغبة أن أستمتع هذه الليلة .

– وأنا كذلك!

قام ليميل عليها فوق درابزين الشرفة الذي كان لايزال ساخنا من شدة الشمس طوال النهار ومرر ذراعه في مكر حول وسطها.. أوه "**بولا**"! وهذه المرة بدلا من أن تغضب المغنية أخذت تضحك ولكن بعنف ومن صميم قلبها حتى إنه حذا حذوها. كانت نفس المحاولة المرفوضة في إحدى الأمسيات من احتفال حيث رقصا والتهما المكرونة ولما كانت حجرتاهما متجاورتين أخذت تغني له خلال شيش النافذة "أنت صغير جدا" وهي تقدم مقارنة كاملة بينه وبين "**كورباس**" وقد تماسك حتى لا يقول لها الحقيقة وأنها أصبحت الأرملة "**مورنا**" لأن الوقت كان لايزال مبكرا. وفي اليوم التالي مثلا وهما جالسان أمام غداء دسم وأثناء تساؤل "**باولا**" في نفاد صبر أخيرا لعدم ظهور رجلها أخرج "**سيزار**" ساعته بكل رضا وقال بلهجة رسمية :

– إنه منتصف النهار.. لقد تم الأمر.

– ما هو إذن؟

– لقد تزوج.

– من؟

– "**كورباس**".

– النذل!

– آه يا صديقي! يالها من صفعة.. في كل مغامراتي التي قمت بها مجاملة لغيري لم أتلق صفعة مثلها وها هي تقرر في الحال الرحيل.. ولكن لا يوجد قطار قبل الرابعة بعد الظهر. وخلالها الخائن يقطع خطوط السكة الحديد متجها إلى إيطاليا مع زوجته. بينما هي في غضبها الجامح تسب وتلعن وتوجه لي اللكمات وتخمش وجهي بأظافرها وكانت فرصتها عندما وجدت نفسي معها بمفردنا والباب مغلق علينا بالمفتاح ثم بدأت تلقي علي بالمواعين ثم سقطت في النهاية ضحية أزمة عصبية مخيفة. وفي الخامسة حملوها إلى سريرها وأبقوها فيه وجريت كالمجنون للعثور على الدكتور "**دورسي**" في مثل هذه الأمور لابد أن يكون معك طبيب وكان عليك أن تراني في الطرق تحت الشمس وحل الليل عندما عدت لأنقلها. وفجأة عند الاقتراب من الفندق وهمهمة تسري بين الجمهور وتجمعات عند النوافذ.. آه يا إلهي هل انتحرت؟ هل قتلت أحدا؟ إن هذا الأمر ممكن أن يحدث مع "**لامورنا**" أسرعت الخطى وهل تعلم ماذا رأيت؟ الشرفة محملة بالمصابيح الفيتنامية والمغنية واقفة وقد سري عنها ورائعة وقد لفت نفسها بالأعلام وهي تصيح "**المارسييز**" بأعلى صوتها وسط احتفال إمبراطوري أمام جمهور يصفق لها.

وهكذا يا صغيري كيف انتهت علاقة "**كوربباس**" ولا أقول إن كل شيء انتهى نهائيا. فبعد عشر سنوات من الجحيم لابد دائما رعاية حساب بعض الحيطة. ولكن على أية حال فإنني على استعداد لاستقبال نصيبي مثلك لو أردت.

– آه يا عمي! الأمر ليس سواء وهي ليست من نفس نوع تلك المرأة.

قال "**سيزار**" وهو يزيل غلاف علبة سيجار والذي رفعه إلى أذنه ليتأكد من أنه جاف:

– هيا اذهب إذن.. أنت لست أول من هجرها.

– ومع هذا فالأمر حقيقي.

وقد تعلق "**جان**" بسعادة بتلك العبارة التي عصبته شهورا من قبل. وفي الحقيقة فإن العم وحكايته الكوميدية طمأناه قليلا ولكن الذي لم يسمح به هو الكذبة ذات الجزءين المضاعفين خلال أشهر وتلك النذالة والتورط ولا يستطيع أبدا أن يستقر على الأمر وأنه

انتظر أكثر من اللازم.

– إذن ماذا تريد أن تفعل؟

بينما يصارع الشاب عدم يقينه فإن عضو المجلس للتحريات كان يلمع لحيته ويحاول الابتسام والتأثيرات وهزات الرأس ثم قال بإهمال:

– هل بعيد من هنا هي تسكن؟

– من؟

– ولكني أقصد ذلك الفنان "**كودال**" الذي حدثتني عنه من أجل تمثالك النصفي. يمكننا إذن رؤية جوائزه بينما نكون معا..

رغم أن "**كودال**" كان شهيرا وآكلانهما للمال لايزال يعيش في شارع "**داساس**" في المرسم الذي حقق فيه أول نجاحاته. كان "**سيزار**" وهو ذاهب إليه يستعلم عن قيمته الفنية وحدد ثمنها بالتأكيد ولكن هؤلاء السادة أعضاء اللجنة يمسكون بعمل فني من الدرجة الأولى.

– أوه.. لا تخشى شيئا يا عمي لو اراد "**كودال**" عدم القيام بالعمل..

ثم عدد له العديد من المثالين أعضاء المعهد والحاصلين على وسام "**ليجيون دونير**" والعديد من الجوائز الخارجية. فتح "**فينان**" عينيه على اتساعهما:

– وهل أنت وهم أصدقاء؟

– أصدقاء جدا.

– آه.. إنها "**باريس**" على الأقل يعقد المرء فيها العديد من المعارف.

ومع ذلك شعر "**جوسان**" ببعض العار وهو يعترف بان "**كودال**" كان عاشقا قديما لـ"**فاني**" إنها هي التي عقدت العلاقة بينهما ولكن يبدو أن "**سيزار**" كان يفكر في ذلك أيضا فقال:

– إنه هو صانع تمثال "**صافو**" الذي لدينا في "**كاستيليت**" أليس ذلك؟ إذن هو يعرف عشيقتك ويمكنه ربما مساعدتك في القطيعة أن المعهد ووسام "**الليجيون دونير**" يؤثران دائما في المرأة.

لم يرد "**جان**" وربما كان يفكر أيضا في استخدام نفوذ الحبيب الأول واستمر العم وهو يضحك:

– بالمناسبة كما تعلم فإن التمثال البرنزي لم يعد عند والدك. فعندما علمت "**ديفون**" وكان من سوء حظي أنني أخبرتها بأن التمثال يمثل عشيقتك لم يعد هدفها سوى التخلص منه.. آه من النساء وقد ناورت في اللجنة ببراعة في تلك الساعة حتى إن السيد "**فيبرس**" رأس الجلسة بدلا من والدك وألقيت "**صافو**" المسكينة في حجرة المهملات حيث تعرضت للغبار والرياح مع الروبابيكيا والأثاث غير المستعمل وحتى إنها في عملية نقل المهملات فقدت "**صافو**" خصلات شعرها وقيثارتها لم تقدم لها قائمة ولا شك أن الحقد الذي كانت تكنه "**ديفون**" لها هو الذي جلب عليها الخراب.

وصلا شارع "**داساس**" وأمام المظهر المتواضع والعملي لمدينة الفنانين هذه وتلك المراسم ذات الأبواب المرقمة تنفتح من كل ناحية على فناء طويل الذي ينهي المساكن السوقية بالمدرسة البلدية المشتركة وقد راودت الشكوك رئيس اللجنة الفرعية حول كفاءة الرجل وموهبته الذي يسكن في فقر ومسكنة، ولكن ما إن دخلا بيت "**كودال**" عرف على أي شيء ترتكز شهرته لقد صرخ المثال عند أول كلمة لـ"**جوسان**" وهو يرفع جسده الضخم من داخل الأريكة وسط الفوضى السارية داخل المرسم.

– ولا مقابل مائة ألف. ولا مقابل مليون. تمثال نصفي! آه حسنا.. نعم ولكن انظر إلى الحجر الجيري المحطم لآلاف الشظايا إنه وجهي الذي أعددته لصالوني القادم وقد حطمته بالفأس. هذه هي الحالة التي أفعلها به.. بالنحت مهما كانت مغرية عروض السيد ..؟

– "**جوسان دارماندي**" الرئيس..

ثم جمع العم كل ألقابه ولكن "**كودال**" لم يعطه الوقت الكافي وقاطعه ثم استدار نحو الشاب :

– هل تراني يا "**جوسان**".. هل تراني أصبحت عجوزا؟

حقيقي أن سنه سقط مع تمثاله المحطم وقد بدت تجاعيد الموت مخيفة في وجهه وقد ترهل خداه وشاربه الذي لم يعن بتهذيبه وما الفائدة؟ لقد رحلت الموديل الصغيرة "**كوزينارد**".

– نعم يا عزيزي الفتى أنا في نحتي متوحش وحيوان ولكني في سن العشرين!

أخذ يذرع المرسم ذهابا وإيابا ولهجته غاضبة ومتهكمة وهو يركل الجوان الذي يتعثر فيه في كل مرة. فجأة وقف أمام المرآة المحاطة بإطر من النحاس فوق الأريكة ونظر إلى

نفسه وقد تجهم بفظاعة:

– هل أنا قبيح لهذه الدرجة؟ هل تهدمت إلى هذا الحد..؟ هذه ملامح بقرة عجوز.

أمسك برقبته بيديه ثم بلهجة شكوى مضحكة أخذ العجوز يبكي ويولول:

– ويقولون إنني سأندم على هذا القبح العام القادم.

ظل العم مذعورا.. هذا الأكاديمي الذي انفلت لسانه يحكي عن وضاعات الحب الذي مر به.. إذن هناك مخبولون في كل مكان حتى في المعهد وإعجابه للرجل العظيم ضعف وقل وحل محله نوع من الشفقة على ضعفه.

– كيف حال "**فاني**"؟ ألا زلتم في "**شافيل**"؟

كان "**كودال**" قد هدأ فجأة وجلس بجوار "**جوسان**" وأخذ يربت كتفيه في حنان:

– آه.. المسكينة "**فاني**" لم يعد أمامنا وقت طويل نعيشه سويا..

– هل سترحل؟

– نعم قريبا. وسأتزوج قبل ذلك ويجب أن أتركها.

ضحك المثال ضحكة متوحشة:

– حسنا! أنا سعيد.. انتقم يا صغيري من تلك الغانيات اهجرهن واخدعهن ودعهن يبكين تلك البائسات! إنك لن تضرهن أبدا بمثل ما أصبنك بالضرر.

قال العم "**سيزار**" في انتصار:

– أرأيت؟ أن السيد لا يأخذ الأمور بطريقة مأساوية مثلك.. هل تفهم هذا البريء.. إن ما يمنعه من الرحيل هو الخوف من أن تنتحر.

اعترف "**جان**" ببساطة بالتأثير الذي أحدثه انتحار "**أليس دوريه**".

رد "**كودال**" بحدة:

– ولكن الأمر ليس متشابها.. تلك كانت حزينة وهي مفككة ذات ذراعين منهارتين مجرد عروسة لعبة مسكينة ينقصها الصوت. ولقد أخطأ "**ديشيليت**" عندما اعتقد أنها ماتت من أجله.. إنها من ذلك النوع من النجمات اللاتي لا يغيرن أبدا أدوارهن. لقد كانت تحب الحب كثيرا. إنه انتحار من التعب والملل من الحياة بينما "**صافو**".. آه... تقتل نفسها؟ إن عشيقتك ستفعل مثلي وكما سبق أن فعلت.. فقط لم تعد شابة وسيكون الأمر أصعب.

استمر العم في الكلام منتصرا:

– هأنت قد اطمأننت أليس كذلك؟

لم يقل "**جان**" شيئا ولكن وساوسه انهزمت واتخذ قراره. إنهم سيرحلون عندما ذكرهما المثال بأن يلتقطا صورة وقعت وسط الغبار فوق المائدة والتي مسحها بكمه وقال:

– خذا! ها هي ذي. أليست جميلة تلك الغانية وتستحق أن يركع المرء على ركبتيه أمامها وتلك الساقين والرقبة!

كم كان رهيبا التناقض بين عينيه المحمومتين وصوته المنفعل مع ارتجافة الشيخوخة وأصابعه الكبيرة المتحجرة التي أمسكت بالصورة الضاحكة ذات الغمازتين صورة "**كوزينار**" الموديل الصغيرة.

الفصل الثاني عشر

– إنه أنت؟ كم أتيت في وقت مبكر جدا!

وصلت في أعماق الحديقة وثوبها مليء بالتفاح المتساقط من الشجر وعبرت الفناء بسرعة وهي قلقة بعض الشيء من منظر حبيبها المتضايق.

– ماذا هناك إذن؟

– لا شيء.. لا شيء.. إنه الجو... الشمس. لقد أردت الاستفادة من آخر الأشعة الجميلة لأقوم بجولة في الغابة معا.. هل ترغبين؟

صرخت صرختها التي تشبه أطفال الشوارع والتي تعود إليها في كل مرة تكون فيها سعيدة.

– أوه.. يا للروعة!

أكثر من شهر لم يخرجا وقد حاصرتهما الأمطار وهبات رياح نوفمبر المثلجة... إن المرء لا يتمتع كثيرا في الريف ويعيشون في البواكي مثل حيوانات سفينة نوح.. كان لديها بعض التوصيات في المطبخ. لأن آل "**هيتيما**" سيحضران للعشاء وبينما ينتظرها في الخارج على رصيف "**الحراس**" كان ينظر إلى البيت الصغير الذي تدفئه أشعة نهاية الصيف وشارع الريف الذي له أرصفة عريضة مغطاة بالعشب بنظرات من يودع المكان.

كانت نافذة القاعة الكبرى مفتوحة على آخرها يخرج منها ألفاظ محلية ردا على أوامر "**فاني**" للمربية الخادمة:

– لا تنسي بصفة خاصة أن العشاء السادسة والنصف وستقدمين أولا دجاج "**سندي**"... آه.. ساعطيك أولا المفارش والفوط.

كان صوتها رنانا واضحا وسعيدا بين ضجيج وصرير أدوات المطبخ وصرخات الطيور التي تشكو من شدة الشمس. هو يعلم أن حياتهما الأسرية لن تدوم سوى ساعتين وأن كل هذه الاستعدادات كانت تفطر قلبه، اجتاحته رغبة في الرجوع وأن يقول كل شيء مرة واحدة ولكنه خاف من صرخاتها والمشهد المرعب الذي سيسمعه الجيران ومن الفضيحة التي ستجوب أعلى "**شافيل**" وأسفلها. كان يعلم أنها إذا انفصلت فلن يهمها شيء وستتمسك بفكرتها أن يقودها إلى الغابة.

أمسكت بذراعه في مرح وخفة هكذا تم الأمر..! وحذرته أن يتحدث بصوت منخفض وأن يسير بسرعة وهو يمر من أمام جيرانه خوفا من أن ترغب "**أوليمب**" أن تصحبهما وتفسد رحلتهما ولم تهدأ إلا عندما عبرت الرصيف وقبو السكة الحديد واستدارا يمينا إلى داخل الغابة.

كان الجو لطيفا مشرقا وشمسا يخفف الضباب من حدتها لتنشر أشعة فضية عائمة تغسل كل الجو. سمعا صياح طائر صياحا مستمرا.. صوت نقرات مناقير وريش منفوش على الخشب الذي يردد صدى الصوت.

سارا ببطء وطبعا آثار أقدامهما فوق الطين المبتل من أمطار الخريف.. كانت تحس بالحرارة لسيرها السريع وقد اشتعل خداها والتمعت عيناها ووقفت لتخلع الخمار الأبيض الذي تلقته هدية من "**روزا**". وكان الثوب الذي ترتديه ثوبا فقيرا من الحرير الأسود وقد تمزق تحت الإبطين والوسط. وهو يعرفه منذ ثلاث سنوات وعندما كانت تخلعه وهي تمر من أمامه كان يرى كعبي قدميها داخل الخفين.

ولما كانت قد رضيت بهذا الحد من الفقر وشبه البؤس دون شعور بالندم وقد انشغلت به وبهناه فإنها كانت تسعد بالاحتكاك به وقد عقدت ذراعيها حول ذراعه. و"**جان**" وهو ينظر إليها وقد عادت إلى شبابها تحت الشمس الجديدة والحب الجديد يتساءل أي دفعة من ماء الحياة في مثل تلك المخلوقة وأي قدرة رائعة على النسيان والتسامح يجعلها تحتفظ بكل هذا المرح وعدم الاكتراث بعد حياة عاطفية ومحن ودموع وكل ذلك مرسوم على وجهها ولكن سرعان ما يختفي عندما تختفي البهجة.

– إنه تمر الصنوبر... أقول لك إنه صنوبر.

دخلت تحت الشجر وتعمقت حتى ركبتيها وسط الأوراق الميتة وعادت منكوشة الشعر ومخدوشة من الأغصان ثم أرته نهاية الثمرة التي تبين الصنوبرة الحقيقية من المزيفة.

هو لم يكن ينصت وقد شرد وهو يتساءل هل حانت اللحظة؟ هل هذا هو المكان؟ كان يسحبها لمسافة أبعد مثل السفاح الذي يفكر في أحسن طريقة لتوجيه ضربته.

إنه سيقرر عندما ظهر أحدهم عند ناصية ممر وأزعجهما. إنه حارس هذا المنتجع "**هوشكورن**" الذي يقابلانه أحيانا. ذلك المسكين الذي فقد ابنيه على التوالي في ذلك المنزل الذي خصصته له الدولة على حافة الغابة على ضفة البركة ثم فقد بعد ذلك

زوجته وكلهم بنفس الحمى. ومنذ أول وفاة أعلن الطبيب أن المسكن غير صالح للسكنى لقربه من البركة والتلوث ورغم الشهادات والابتهالات تركوه هناك عامين وثلاثة أعوام.. الزمن الذي رأى فيه موت كل أفراد أسرته فيما عدا فتاة صغيرة التي أخيرا جاء ليعيش معها في مسكن جديد على طرق الغابة وكان "**هوشكورن**" له وجه أهل بريتاني العنيد وعيناه صافيتان وشجاعتان وجبين مخفي تحت قلنسوته الرسمية. إنه مثال حقيقي للإخلاص والتشاؤم وقد علق بندقيته على كتفه وعلى الكتف الأخرى رأس طفلته النائمة. سألته "**فاني**" وهي تبتسم لتلك الطفلة ذات الأربعة الأعوام والتي تضاءل حجمها بسبب الحمى والتي استيقظت وفتحت عينين واسعتين محاطتين بدوائر وردية.

– كيف حالها.

زفر الحارس:

– ليست بخير.. ومن الأفضل أن أصحبها معي إلى كل مكان وهي لا تأكل ولا تتذوق أي شيء ويجب الاعتقاد أن الوقت فات على تغيير الهواء وأنها أصيبت فعلا بالمرض. إنها خفيفة جدا كما ترين يا سيدتي وكأنها ريشة.. وفي يوم من الأيام ستترك الميدان مثل الآخرين.. يا إلهي! كانت آخر كلمة هي كل تمرده ضد قسوة المكاتب الحكومية والأوراق الرسمية. قالت:

– إنها ترتجف وكأنها تشعر بالبرد.

– إنها الحمى يا سيدتي.

– انتظر فسندفئها.

تناولت الشال من تحت ذراعها وأحاطت به الصغيرة :

– خذه.. إنه سيكون خمارها يوم عرسها.

ابتسم الأب ابتسامة آسفة وحرك رأس الطفلة التي عادت للنوم في الشال الأبيض وكأنها ميتة صغيرة. قال الرجل شكرا للسيدة ثم ابتعدا وهو يردد يا إلهي! التي ضاعت وسط تكسير الأغصان. لم تعد "**فاني**" مبتهجة وقد التصقت به بكل حنان المرأة الخائفة من انفعالها أو فرحها واقتربت بمن تحبه فقال في نفسه.

– يالها من بنت طيبة.

ولكن دون أن يضعف في قراراته. بل على العكس تأكد لأنه عند سطح الهضبة في

الممر الذي دخلوه رأى صورة "**ايرين**" وذكرى ابتسامتها المشرقة عند لقائهما هناك والتي سحرت قلبه في الحال قبل حتى أن يعرف سحرها العميق. حلم أنه انتظر لآخر لحظة ثم فكر أن اليوم هو الخميس. نظر حوله لمسافة طويلة واعتبر أن الوقت هو النهاية، وجد فسحة من الأرض وسط الأشجار مغطاة بالأوراق الجافة والأغصان المكسورة، وعن بعد تشاهد البركة يتصاعد منها بخار أبيض وعلى حافتها منزل الحارس الصغير والمهجور، وقد سقط سقفه وتكسرت نوافذه وانفتحت، إنه الحجر الصحي لـ"**هوين كورن**" وبعدها تتصاعد الأشجار نحو "**فيليزي**". وقف فجأة:

– ما رأيك أن نستريح قليلا..؟

جلسا فوق جزع شجرة كبير سقط على الأرض، والمكان كان رطبا يضيئه شعاع متذبذب شاحب وتفوح منه رائحة البنفسج الذابل.

– ماذا إذن؟ ماذا هناك؟

– خبر غير سار يا عزيزتي.. "**هيدوان**".. أنت تعرفين.. ذلك الذي رحل بدلا مني.

كان يتحدث بصعوبة وبصوت أجش الذي أخذ يزداد تأكيدا في نهاية القصة:

– لقد سقط "**هيدوان**" عند وصوله إلى مقر عمله ووجب علي أن أذهب لأحل محله.

قالها بسهولة وبقسوة أقل من الحقيقة، ووجدت أنه قالها أيضا بسهولة، واستمعت إليه حتى النهاية دون أن تقاطعه وقد شحب وجهها شحوب الموت، وعيناها ثابتتان سألته وهي تسحب يدها:

– ومتى ترحل؟

– هذا المساء.. هذه الليلة.

بصوت مزيف حنون أضاف:

– إنني أنوي أن أقضي أربعا وعشرين ساعة في "**كاستيليت**" قبل الرحيل إلى "**مارسيليا**".

صاحت في انفجار وحشي جعلها تقف:

– كفى! لا تكذب! لا تكذب أكثر من ذلك أنت لا تعرف... الحقيقة أنك ستتزوج.. لقد مضى وقت طويل وعائلته تعمل على ذلك. لقد أصابهم الهلع أن أمنعك من الذهاب لتصاب بالتيفود أو الحمى الصفراء.. وها هم أخيرا قد رضوا..

الآنسة التي على ذوقك.. وأنا عندما أفكر في عقدة رباط عنقك التي صنعتها يوم الخميس هل أنا حمقاء لهذه الدرجة؟

كانت تضحك ضحكا مؤلما وحشيا وماساويا وقد لوت فمها وأظهرت السنة التي سبق أن كسرت في إحدى معاركهما الأمر الذي زاد من عذاب "**جوسان**".

– اسمعيني! حسنا.. أنا سأتزوج ووالدي متمسك بذلك وأنت تعرفين ذلك جيدا، ثم ما الذي سيحدثه لك ذلك مادمت راحلا؟

خلصت نفسها وهي تريد الحفاظ على غضبها:

– وهل من أجل ذلك أخذتني إلى هذا المكان في الغابة.. لقد قلت في نفسك على الأقل لن يسمعها أحد وهي تصرخ. ولكن لا.. أنت لا ترى أي انفجار ولا دمعة.. ثم إنه فاض بي الكيل من ولد مليح مثلك.. يمكنك أن تذهب ولست أنا التي ستجعلك تتراجع. هيا اهرب بجلدك إلى تلك الجزر مع زوجتك الصغيرة كما يقولون في بيت أهلك.. لابد أنها نظيفة تلك الصغيرة.. ولكنها قبيحة مثل الغوريلا، وربما تكون حاملا منك بالفعل لأنك أحمق مثلهم.

لم تعد تستطيع السيطرة على نفسها في فيض من الشتائم والسباب الفاحش، لدرجة أنها في النهاية أخذت تتلعثم وهي تردد "كاذب وجبان"! وقد ضمت قبضتها ووضعتها تحت أنفه في تهديد. جاء دور "**جان**" ليستمع إليها دون أن يقول كلمة ودون أي مجهود لمنعها. إنه يحبها أكثر هكذا سليطة ومهينة ووضيعة، الابنة الحقيقية للأب الحوذي "**لوجراند**" لأن الفراق سيكون أسهل وأقل قسوة. هل كانت مدركة لذلك؟ ولكنها سكتت فجأة وسقطت ورأسها وصدرها للأمام على ركبتي حبيبها وهي تنشج بالبكاء بعنف هز كل جسدها وخرج من فمها ما يشبه الحشرجة:

– سامحني.. الرحمة...! أنا أحبك وليس لي سواك.. يا حبي.. يا حياتي! أتفعل بي ذلك..

تملكه الانفعال.. أوه ها قد حدث ما كان يخشاه وانتقلت الدموع منها إليه، وألقى برأسه للخلف ليتطلع إلى عينيها وقد طفرت منهما الدموع ،ويحاول أن يهدئها بكلمات حمقاء ودائما بهذا المنطق المعتاد ولكن مادام من الضروري أن أرحل.

نهضت وهي تصيح صيحة تداري بها كل يأسها:

– أيه، إنك لم تكن سترحل وكان علي أن أقول لك انتظر ودعنا نتحاب أكثر.. هل تعتقد أنه من السهل أن تجد مرة أخرى من يحبك مثلي؟ أمامك الوقت لتتزوج فأنت لازلت صغيرا جدا أما أنا فسرعان ما سأنتهي.. لن أستطيع بعد ذلك أن أمنعك ويمكننا أن نفترق في هدوء.

أراد أن ينهض وواتته الشجاعة أن يقول لها إن كل ما تفعله بلا فائدة ولكنها تشبثت به وجرها وهي على ركبتيها وسط الوحل واضطرته لأن يعود إلى مكانه واحتضنته ومررت أصابعها في شعره، كانت تحاول أن تؤجج جذوة حبهما وسط الرماد البارد.

وبينما تهمس في أذنيه تلك الكلمات الحانية كانت دموع ضخمة تلمع على خديها ووجهها المحتضر رعبا وهي تصارع وتصرخ:

– أوه.. قل إن هذا ليس صحيحا.

وألقت مزيدا من النشيج والمداعبات والتأوهات وصرخات الاستنجاد وكأنها تراه وفي يده سكين. كان الجلاد أكثر تعاسة من الضحية. إنه لم يعد يخشى غضباتها ولا مداعباتها، ولكنه ظل بلا دفاع ضد هذا اليأس وهذا العويل الذي يملأ الغابة، وكان يلزمه كل قوة وحيوية حبه الجديد حتى يستطيع أن يقاوم حتى لا يرفع يديه متوسلا ويقول لها: سأبقى سأبقى!

إلى متى سيظل كل منهما ينهك الآخر هكذا؟ وفي العتمة التي لفتهما لم يعد يرى سوى ذلك الوجه الشاحب مرفوعا نحوه وذلك الفم المفتوح يصرخ بشكوى لا تنتهي. والآن ها هي ضجة دموع تنهمر أنهارا بلا توقف وتأوهات من الأعماق ثم فجأة لم يعد هناك شيء.. انتهى كل شيء لقد مات الحيوان وارتفعت نسمة باردة أخذت ترج الأغصان تحمل صدى ساعة بعيدة.

– هيا تعالي.. لا تبقي هنا!

رفعها برقة وأحس بها مرتخية بين يديه ومطيعة كالطفل الوديع ويهدهدها تنهدات طويلة، بدا أنها تحتفظ بالخوف والاحترام للرجل الذي ظهر أنه قوي جدا. سارت بجواره خطوة بخطوة ولكن في خجل دون أن تعطيه ذراعها ومن يراهما هكذا وهما يتعثران ويتجهمان وسط الممرات يقودهما شعاع أصفر يظن أنهما زوجان من الفلاحين عائدان منهكان بعد تعب شديد تحت الشمس الحامية.. وعند حافة الغابة بدا باب "**هوشكورن**" مفتوحا وداخله جسدان لرجلين سأل صوت "**هيتيما**" الذي اقترب ومعه الحارس:"

– هل هذا أنت يا "**جوسان**"؟

كان قد قلق هو والحارس عندما لم يرياهما يعودان ومن تلك التأوهات التي كانا يسمعانها عبر الغابة كان "**هوشكورن**" قد أخذ بندقيته وهم بالبحث عنهما.

– مساء الخير يا سيدتي.. إن الصغيرة فرحت بالشال حتى إنني اضطررت أن أجعلها تنام به.

لقد كان هذا آخر عمل مشترك بينهما عمل خيري وقد تشابكت أيديهما حول ذلك الجسد الضئيل.

– وداعا يا أيها الأب "**هوشكورن**".

وسارع الثلاثة نحو البيت و"**هيتيما**" حائر من تلك الصرخات التي ملأت الغابة وقال:

– كان الصراخ يتصاعد حتى ظننا أن أحدهم يذبح حيوانا ولكن كيف حدث ألا سمعتماه؟

لم يجب أي منهما وفي ركن "حصن الحراسة" ترددت "**فاني**" وقالت له بصوت منخفض متوسلة:

– ابق للعشاء.. لقد فاتك القطار وستأخذ قطار التاسعة.

عاد معهما. ما الذي يخشاه؟ لا يمكن أن يعاد ذلك المشهد مرتين وهذا أقل ما يمنحه لها من تسرية. كانت القاعة حارة والمصباح يضيء جيدا، وضجة خطواتهم في الممر،نبهت الخادمة التي وضعت الحساء على المائدة. قالت "**أوليمب**" وقد جلست بالفعل أمام المائدة وقد شمرت عن كميها:

– آه.. أخيرا جئتم.

ثم رفعت غطاء إناء الحساء وصاحت:

– يا إلهي! يا عزيزتي!

كانت "**فاني**" في حالة يرثى لها وقد زادت عشر سنوات في السن وشعرها أشعث وملابسها ممزقة، تورمت عيناها وكأنها هاربة من مطاردة الشرطة هل هذه "**فاني**"؟ أخذت تلتقط أنفاسها فترة وعيناها تطرفان بسبب الضوء، وفجأة أعاد دفء المنزل والمائدة المغطاة بما لذ وطاب ذكرى الأيام الجميلة وانفجرت دفعة جديدة من الدموع من بينها ميزت السيدة "**هيتيما**".

– إنه سيهجرني.. إنه سيتزوج!

أخذ كل من "**هيتيما**" وزوجته والفلاحة الخادمة يتبادلون النظرات ويتطلعون إلى "**جوسان**". قال الرجل العملاق الذي بدا غاضبا:

– أخيرا.. لابد من أن نتعشى!

واختلطت أصوات الملاعق والشوك وصب المياه في الأكواب مع صوت المياه التي صبتها "**فـــاني**" على وجهها في الحجرة المجاورة وهي تعيد زينتها. وعندما عادت وقد غطت وجهها بالبودرة المائلة للون الأزرق، أخذ الزوجان "**هيتيما**" يفحصانها خلسة توقعا لانفجار جديد ولكنهما دهشا عندما وجداها تهجم دون كلمة بنهم على الأطباق مثل الغريق الذي يتعلق بقشة كانت تأكل وتأكل كميات هائلة من البطاطس والكرنب والخبز. أخذوا يثرثرون في البداية في تحفظ وحزن ثم في حرية مع الزوجين "**هيتيما**" في أمـور عادية حول الطعام والأقمشة. كم كان ممتعا مشاهدة نظرة الثقة الطيبة التي يتبادلها ذلك الثنائي الضخم زميلا العيش والملح. لم يكن لديهما أي رغبة في الفراق وداخل القاعة المليئة بالخصوصيات والذكريات والمغطاة بالسجاد في ركن اجتاحته نوبة من التعب وسوء الهضم وأخذت "**فاني**" ترعاه وتراقبه واقتربت من مقعده في رقة فقال فجأة:

– اسمعي! إنها التاسعة.. وداعا وسأكتب لك.

كان واقفا وخرج إلى الشارع وعبره وهو يتحسس داخل الظلام ليفتح البوابة التي تسد الممر، التفت حوله ذراعان بقوة وقالت :على الأقل قبلني!

أحس بأنه انهزم أمام تلك الرائحة العطرية التي تعود عليها وقد اضطرب من قبلة الوداع وهمست له:

– ليلة أخرى من فضلك.

ثم رأى إشارة عن بعد.. إنه القطار كيف واتته الشجاعة ليتخلص منها ويقفز إلى المحطة؟ ودهش أيضا وهو يلهث داخل العربة وهو يختلس النظر إلى البوابات والنوافذ المضاءة للمنزل الصغير وشبح أبيض على البوابة: وداعا.. وداعا.

ثم سمع صرخة الرعب الصامتة التي سمعها عند دوران القطار في المنحنى وهو يرى عشيقته في المكان الذي احتل أحلامه للموت.

أخرج رأسه ورأى الحقول والأشجار وكل شيء يهرب من أمام عينيه، إلى أن أصبح

عشهما مجرد نقطة أو نجمة ضائعة، فجأة أحس بفرح وخلاص شديد.. إنه يتنفس.. كم هو جميل وادي "**ميدون**" والأنوار عن بعد تنعكس على مياه نهر السين.

إن "**ايرين**" تنتظره هناك وسيذهب إليها بنفس سرعة القطار بكل رغبته في الحب وتعطشه الشديد إلى الحياة النظيفة النقية الشابة.

"**باريس**"! استقل عربة لتقوده إلى ميدان "**فيندوم**" ولكن تحت مصباح غاز الاستصباح رأى ملابسه وحذاءه مغطاة كلها بالطين، طين ثقيل وكثيف وكل ماضيه الذي لا يزال يلتصق به ويوسخه صاح:

- أوه ليس هذا المساء!

ثم عاد إلى فندقه القديم شارع "**جاكوب**" حيث حجز له عمه "**فينان**" حجرة بالقرب من حجرته.

الفصل الثالث عشر

في اليوم التالي كان "**سيزار**" مكلفا بمهمة دقيقة بالذهاب إلى "**شافيل**" لاستعادة أمتعة وكتب ابن أخيه وإنهاء العلاقة عن طريق الانتقال من المسكن وعاد متأخرا جدا بينما بدأ "**جوسان**" يشعر بالتعب من وضع كل الافتراضات المجنونة والشنيعة وأخيرا عربة نقل محملة ومنتفخة دارت حول ناصية شارع "**جاكوب**" ومن بينها مرتبة ضخمة تعرف على أنها خاصة به وعاد العم غامضا وآسفا.

- لقد تأخرت في جمع كل شيء مرة واحدة وحتى لا أضطر للعودة إلى هناك ثانية.. في هذين الطردين اللذين وضعهما الصبيان في حجرتك يوجد البياضات والملابس وأشياء ما تخصك من أوراق وكتب ولا ينقص سوى خطاباتك التي تركتها حتى تعيد قراءتها وظننت أنها لا تشكل أي خطر.. إنها فتاة طيبة جدا..

أخذ يتنفس طويلا وهو جالس فوق المرتبة وجفف العرق من فوق جبينه بمنديله الحرير المطرز والكبير في حجم الفوطة.. لم يجرؤ "**جان**" على سؤاله عن التفاصيل وعن الحالة التي وجدها عليها، والآخر لم يشف فضوله خوفا من أن يتعسه. ملأ فراغ الصمت الصعب الضخم بأشياء لا معنى لها وبتعليقات حول تغيير الجو المفاجئ منذ الأمس وحول المظهر البائس لتلك الضاحية لباريس المهجورة والجرداء والمزروعة، طرقا إلى المصانع والمخازن والمطاحن وبعد فترة قال "**جان**" :

– ألم تعطك شيئا لي يا عمي؟

– لا.. يمكنك أن تهدأ.. إنها لن تزعجك لقد اتخذت نصيبها بكرامة وتصميم.

لماذا وجد "**جان**" في تلك الكلمات المقتضبة نوعا من اللوم وتأنيبا للضمير؟ قال العم:

– الأمر سيان فقد تلقيت مخالب "**مورنا**" تماما مثلما تلقيت يأس هذه التعسة.

– وهل بكت كثيرا؟

– آه.. يا صديقي! كثيرا ومن كل قلبها حتى إنني أنا نفسي أخذت أنشج في مواجهتها دون قدرة. علي.. حسنا ماذا تريد؟ إنها ليست غلطتك.. لا يمكنك أن تقضي كل حياتك هناك.. لقد تم إنهاء الأمور بطريقة لائقة جدا.. لقد تركت لها مالا

وأثاثا والآن لينتصر الحب. حاول أن تجعلنا نتم زواجك بكرامة.. وأشياء جادة جدا بالنسبة لي مثلا.. لابد من تدخل القنصل.. أنا متخصص في تصفية الأمور السيئة.

ثم نظر فجأة إلى السماء وسقوف البيوت اللامعة :

– الأمر عندي سيان.. لقد أصبح العالم كله حزينا وفي زمني كنا ننفصل بطريقة أسهل كثيرا.

رحل عمه "**فينان**" تتبعه ماكينة غرس الكروم وحرم "**جان**" من تلك الروح المتحركة الثرثارة. كان أمامه أسبوع كامل يقضيه وسط شعور بالفراغ والوحدة وكأنه أصبح أرملا. وفي مثل هذه الحالة وحتى مع الندم على عاطفة فإن المرء يبحث عن قرين يشاركه وجوده ونومه وتكوين علاقات غير منظورة ودقيقة.. وتلك السنوات الخمس مع "**صافو**" لم تستطع أن تجعله يمل تلك الحياة، ولكن جسده لايزال يحمل علامات السلسلة التي كان مقيدا بها. لدرجة أنه أحيانا كادت قدماه أن تقوده نحو "**شافيل**" وهو خارج من مكتبه بل حدث له في ذات صباح أن بحث بجواره على الوسادة عن الشعر الأسود والضفيرة الثقيلة. وبدت الأمسيات بالذات طويلة بلا نهاية في حجرة الفندق هذه تذكره بالأيام الأولى لعلاقتهما وفي وجود حبيبة جديدة ولذيذة ورقيقة. إذن سيتعرض للإنهاك وعليه أن يسير طويلا ويظل يحوم حول المسارح إلى أن يسمح له العجوز "**بوشيرو**" بقضاء ثلاث أمسيات مع خطيبته.

أخيرا تم التفاهم. "**ايرين**" تحبه والعم يريد ذلك تماما وأن يتم الزواج في أوائل شهر أبريل في نهاية الدراسة.. أمامهما ثلاثة أشهر من الشتاء يتقابلان فيها ويكونان فيها سحر الكلام العاطفي الذي يوطد العلاقة بين القلبين.

ومساء الاتفاق عند عودة "**جان**" إلى بيته لم يجد لديه أي رغبة في النوم، اجتاحته رغبة عارمة في ترتيب حجرته وكأنها وسيلة لترتيب أفكاره. رتب المائدة وكتبه التي لم يكن قد فك حزمها وكومها فوق أحد المقاعد، ومن بين صفحات القاموس التجاري المستخدم بكثرة خطاب بلا مظروف بخط عشيقته.

كانت "**فاني**" قد دسته في الخطاب لعدم اطمئنانها لمساعي "**سيزار**" أن يرقق قلبه وظنت هي أنها بهذه الطريقة تحقق الهدف. منع نفسه في البداية من أن يفتحه ولكنه استسلم للكلمات الأولى الرقيقة المعقولة ولم يحس بالاضطراب إلا في اهتزاز ريشة

الكتابة في يدها وعدم توازي السطور، إنها لا تطلب سوى الرحمة. طلبا واحدا وهو أن يعود إليها من حين لآخر. لم تقل شيئا ولم تلمه على شيء ولا على الزواج ولا على ذلك الانفصال الذي تعرف أنه نهائي ولكن مجرد أن تراه.

-فكر في أن ذلك بالنسبة لي ضربة كبرى ورهيبة وغير متوقعة ومفاجئة. أنا وكأني بعد الموت أو الحريق لا أعرف ماذا أفعل وما الذي تملكني، أنا أبكي وأنتظر وأنظر إلى مكان سعادتي وليس هناك سواك يستطيع أن يؤقلمني على هذه الحياة الجديدة.. إنه نوع من الرحمة.. تعال وشاهدني وحتى لا أحس بأنني وحيدة.. أنا خائفة من نفسي.

وكانت تلك الشكاوى والتضرعات والنداءات مستمرة من أول الخطاب حتى نهايته وتبدأ دائما بنفس الكلمة "تعال"! ظن أنه في الفسحة داخل الغابة مع "**فاني**" عند قدميه وتحت رماد المساء البنفسجي. وذلك الوجه البائس مرفوع نحوه وقد تغضن وتهدل من الدموع وذلك الفم المفتوح وقد امتلأ بظلال الصراخ. كان هذا ما طارده طوال الليل وهو ما أزعج نومه.. ليست النشوة هي التي جلبت عليه السهر وإنما ذلك الوجه العجوز المتهدل الذي عاد ورآه رغم كل جهوده أن يضع بينه وبينها وجه خطيبته ذا الملامح النقية.

كان قد مر على هذا الخطاب ثمانية أيام والمسكينة تنتظر كلمة أو زيارة أو تشجيعا على قرارها الذي اتخذته. ولكن لماذا لم تكتب ثانية من وقتها؟ ربما كانت مريضة وعادت إليه مخاوفه القديمة. وفكر في أن "**هيتيما**" يمكن أن يزوده بالأخبار. وهو واثق بانتظامه في عاداته، ذهب "**جان**" لينتظره أمام لجنة السلاح.

انتهت الدقة العاشرة للساعة في كنيسة "**سان توماس داكين**" عندما لف الرجل الضخم عند ناحية الميدان الصغير وقد رفع ياقة معطفه والغليون بين أسنانه. نظر إليه "**جان**" وهو آت عن بعد وهو منفعل جدا بكل الذكريات ولكن "**هيتيما**" استقبله بمزاج غاضب بعض الشيء:

- هأنت ذا! لست أدري إن كنا ملعونين هذا الأسبوع.. نحن الذين ذهبنا إلى الريف لنعيش في هدوء.

وعند الباب انتهى من تدخين غليونه وقص عليه أنه يوم الأحد الماضي وجها الدعوة لـ"**فاني**" للعشاء معهما ومع الطفل حيث كان هذا يوم الخروج. في الحقيقة تعشينا في

مرح وغنت لنا مقطوعة عند تناول الحلوى، ثم افترقنا في العاشرة واستعد الثنائي لدخول الفراش عندما طرق الباب فجأة وسمعنا صوت الصغير "**جوزيف**" ينادي في ذعر.

- تعال بسرعة.. أمي تريد أن تسمم نفسها وصل "**هيتيما**".. في الوقت المناسب وانتزع زجاجة السم بالقوة واضطر لمصارعتها وأن يحملها بكل جسدها حتى يحميها من أن تضرب رأسها في الجدار وقد طعنته بالمشط في وجهه ولاتزال آثاره واضحة. وأثناء العراك تحطمت قنينة السم انتشر "**اللاودانيوم**" في كل مكان ولم تخل أي قطعة ملابس من آثاره .

- ولكنك تفهم جيدا أن مشاهد مماثلة وكل تلك التمثيليات الدرامية لا تؤثر في الناس الهادئين، وهكذا انتهى كل شيء واستأذنت في الخروج. والشهر القادم سأعزل من المكان .

ألقى بغليونه في حقيبة أوراقه واختفى بعد وداع ثقيل تحت البواكي المنخفضة لفناء صغير تاركا "**جوسان**" مضطربا وحائرا جدا لما سمعه. تصور المشهد في تلك الحجرة التي كانت حجرتهما ورعب الصغير وهو ينادي مستنجدا والمعركة الوحشية بين المرأة والعملاق وأحس بالمرارة في فمه وكأنه ابتلع "**اللاودانيوم**". وظل الرعب يلازمه طوال النهار وزاد من فداحته شعوره بالوحدة التي تعيشها "**صافو**" وما سيحدث بعد رحيل الزوجين "**هيتيما**" اللذين يمكن أن يمسكا بيدها ويمنعاها من محاولة جديدة .

وصله خطاب طمأنه بعض الشيء. شكرته فيه "**فاني**" لأنه لم يكن قاسيا بالدرجة التي أراد أن يظهر بها مادام لايزال يهتم بالمهجورة المسكينة.

- لقد قالوا لك إنني أردت الانتحار.. أليس كذلك؟ لقد أردت أن أموت.. وذلك لشعوري بأنني شديدة الوحدة! لقد حاولت ولم أستطع لأنهم منعوني.. ربما كانت يدي ترتجف.. خوفا من العذاب وأن أصبح دميمة.. أوه تلك الصغيرة "**دوريه**"! كيف واتتها الشجاعة؟ بعد أول صدمة عار لأنني هُجرتُ. أصبح من سعادتي أن أفكر في أن بإمكاني الكتابة لك وأن أحبك عن بعد وأن أراك أيضا لأنني لم أفقد الأمل في أن تحضر ولو مرة واحدة كما يزورون صديقة تعسة في منزل حداد كنوع من الشفقة فقط.

من وقتها ويصل من "**شافيل**" كل يومين أو ثلاثة رسالة نزقة وطويلة أو قصيرة فيها وصف للآلام اليومية ولم يكن لديه الشجاعة أن يعيد الرسائل مما كبر في قلبه شفقة حية بلا حب، شفقة ليست لعشيقته فحسب وإنما للإنسانية كلها وللمخلوقة التي عذبها، وفي يوم كان رحيل جيرانه وشاهدا سعادته الماضية والذي أعاد إليه الكثير من الذكريات، والآن

لم يعد هناك ما تحدثه عنه تذكره بالأثاث والجدران لبيتهما الصغير والمرأة الخادمة الحيوانة المتوحشة المسكينة غير المهتمة إلا بالطعام والتي تقبع في حزن في ركن من مطبخها.

وفي يوم آخر اخترق شعاع الزجاج واستيقظت في منتهى السعادة ولديها قناعة أنه سيحضر اليوم لماذا؟ لا شيء.. مجرد فكرة.. وفي الحال بدأت في ترتيب البيت وتزينت زينة المرأة الغانية وارتدت ثوب الأحد والتسريحة التي يحبها ثم حتى المساء حتى آخر قطرة ضوء. كانت تعد القطارات من نافذة قاعة الطعام وتنصت على وصوله فوق الرصيف ومقصورة الحراسة. هل أصيبت بالجنون؟ وأحيانا ما كانت ترسل له سطرا واحدا:

– إنها تمطر والظلام دامس وأنا وحيدة أبكي، أو تكتفي بأن تضع داخل المظروف وردة جافة وكانت تعتبر أفضل من الكلمات عن الشكوى والوحدة والهجران، وكان يرى المكان من نهاية الممشى وامرأة ارتدت ثوبا مبتلا تذهب وتجيء في نزهة بمفردها.

وتلك الشفقة التي تجعل قلبه يحتضر تجعله لا يزال يعيش مع "**فاني**" رغم القطيعة. كان يفكر في ذلك ويتصورها في كل ساعة ولكن أحيانا ما كانت تخونه الذاكرة رغم أنه لم يمر سوى خمسة أو ستة أسابيع على فراقهما وإن ظل داخل مسكنهما واضحا في ذاكرته بكل تفاصيله كان يراها وقد كبرت في السن. ماذا يا ترى ستصبح تلك التي عاش معها طويلا؟ والمال الذي تركه لها نفد . وإلى أين ستذهب وإلى أي مستوى من الحضيض؟ وفجأة برز في ذاكرته اللقاء التعس في المساء في ملهى إنجليزي للفتاة العجفاء التي توشك أن تموت عطشا أمام شريحة سمك السومون المدخن. إن "**فاني**" ستصبح مثلها.. مثل تلك التي قبلت منه من قبل الشفقة رعايته الرقيقة وكأس الشراب الذي كانت تتلهف عليه. ومع ذلك ماذا يفعل؟ هل لأنه التقى بتلك المرأة التعسة وعاش معها بعض الوقت أن يحكم عليه بأن يحتفظ بها دوما وأن يضحي في سبيلها بسعادته؟ لماذا هو وليس الآخرين؟ باسم أي عدالة؟

بينما امتنع عن مقابلتها لم يكف عن الكتابة لها، وكانت كتاباته ورسوماته القاسية الجافة تكشف عن انفعاله تحت تأثير الحكمة والهدوء لقد شجعها على إخراج "**جوزيف**" من المدرسة الداخلية وأن تأخذه حتى تنشغل وتسري عن نفسها ولكن "**فاني**" رفضت. ما فائدة وضع ذلك الطفل أمام عذابها وانهزاميتها؟ ويكفي يوم الأحد حيث يتوه الطفل من مقعد إلى آخر ويتجول متسكعا في القاعة أو الحديقة ولا يجرؤ على السؤال عن بابا "**جان**". منذ أن قيل له وسط النحيب إنه رحل وأنه لن يعود.. ويقول.

- كل آبائي يرحلون إذن؟

وكانت هذه العبارة التي سقطت من أحد خطاباتها ظلت ثقيلة على قلبه. وكانت فكرة وجودها في "**شافيل**" تضطهده وكان يحثها أن تعود إلى "**باريس**" وأن ترى العالم. ونظرا لما لقيته "**فاني**" من محن مع الرجال فقد اعتبرت فكرته مجرد أنانية مطلقة ولرغبة في التخلص منها للأبد بإقامة إحدى تلك العلاقات. كتبت تقول:

ـ أنت تعرف ما الذي قلته لك سابقا.. سأظل زوجتك رغم كل شيء، امرأتك المحبة المخلصة. إن منزلنا الصغير يحيطني بك ولا أرغب أن اتركه مقابل العالم كله. ماذا أصنع في "**باريس**"؟ أنا أشعر بالتقزز من ماضي الذي أبعدك عني.. ثم فكر فيما سنتعرض له.. هل أنت مقتنع تماما بما تقول؟ تعال إذن أيها القاسي ولو مرة واحدة!

ولكنه لم يذهب. وفي أحد أيام الأحد بعد الظهر كان بمفرده يعمل، سمع طرقات صغيرة على الباب، ارتجف وتعرف على طريقتها الحية لإعلان وجودها وخوفا من وجود بواب أسفل العمارة فقد صعدت الدرج مرة واحدة وهي تلهث. اقترب وساقاه مغروستان في السجاد وسمع صوت لهاثها:

ـ "**جان**" هل أنت موجود؟

أوه يالهذا الصوت، الصوت المتواضع المتقطع، نادت مرة أخرى ثم زفرت شاكية ثم سمع صوت حفيف خطاب وصوت قبلة وداع ألقتها عن بعد. هبطت السلم درجة درجة ببطء وكأنها تنتظر أن يناديها. ولكن "**جان**" التقط الخطاب وفتحه.. لقد دفنوا هذا الصباح الصغيرة "**هوشكورن**" في ملجأ الأطفال المرضى. لقد حضرت مع الأب وبعض الأشخاص من "**شافيل**" ولم تستطع أن تمنع نفسها من الصعود لتراه أو تترك بضعة أسطر مكتوبة مسبقا:

ـ عندما قلتها لك.. لو سكنت "**باريس**" فلن يشاهد الناس سواي على سلم بيتك وداعا يا صديقي! سأعود إلى بيتنا.

بعد أن قرأ الخطاب والدموع تحجب الرؤية تذكر مشهد شارع "**أركاد**" وآلام الحبيب المهجور والخطاب الذي دسته تحت الباب والضحكة التي بلا قلب من "**فاني**". إنها تحبه إذن أكثر مما يحب هو "**ايرين**"! أم أن السبب أن الرجل دائما متورط في معارك الحياة مما يجعله لا يشعر بسيطرة الحب؟ كان هذا العذاب وهذا الألم الرحيم والقلق كله يترابط لا

يهبط إلا بالقرب من "**ايرين**" عندها فقط تهجره وتذوب تحت شعاع عينيها الدافئ الأزرق. ولا يبقى عنده سوى إرهاق شديد ورغبة في أن يضع رأسه على كتفها وأن يظل هكذا دون كلام ولا حركة في حمايتها. قالت له "**ايرين**":

-- ماذا بك؟ ألست سعيدا؟

بل هو سعيد جدا ولكن لماذا كل سعادته صنعت من كل هذا الحزن والدموع؟ وأحيانا هم بأن يحكي لها كل شيء كصديقة ذكية وطيبة دون أن يفكر المسكين في المتاعب التي يمكن أن تسببها مثل هذه الاعترافات في النفس النقية والجراح التي لا تندمل والتي تصيب العاطفة. آه لو استطاع أن يختطفها وينقلها إلى بيته.. إنه يحس أن ذلك سيكون نهاية أحزانه وعذاباته ولكن العجوز "**بوشيرو**" لا يريد أن يتراجع ساعة واحدة عن الموعد المحدد.

- أنا عجوز ومريض ولن أستطيع أن أرى ابنتي العزيزة بعد ذلك، فلا تحرمني في آخر أيامي وتحت مظهري القاسي، كان أحسن الرجال ذلك الرجل الضخم والعظيم. وكان محكوما عليه بمرض القلب الذي لا شفاء منه ويحس بمدى تقدمه وكان يتحدث عنه ببرودة أعصاب يحسد عليها ويستمر في إلقاء محاضراته وهو يكاد يختنق ويفحص المرضى الأقل منه إصابه. كان هناك نقطة ضعف وحيدة في روحه العالية وهي احترامه للألقاب النبيلة وذكرياته عن قصر "**كاستيليت**" وأراضيها والتي عرفت بعد ذلك بـ"**أرماندي**" وقد سهل ذلك على "**جان**" الحصول على موافقته للزواج من ابنة أخيه. وسيتم الزواج في القصر حتى لا يضطروا إلى نقل الأم المسكينة والتي كانت ترسل كل ثمانية أيام خطابا إلى زوجة ابنها القادمة شديدة الرقة تمليه على "**ديفون**" أو إحدى التوأمتين. وكان مما يسعده أن يتحدث مع "**ايرين**" عن عائلته وأن يرى كل قاطني "**كاستيليت**" ميدان "**فيندام**" يحيطون زوجة المستقبل بكل الحب والتقدير.

كان فقط يحس بالفزع من إحساسه بأنه عجوز ومرهق أمامها وأن تسعد بأشياء لا تسره ومباهج في الحياة مشتركة كان قد فاض قلبه منها. وكذلك قائمة بكل ما يجب أن ينقلاه معهما إلى القنصلية من أثاث وأقمشة.. قائمة تردد أمامها في يوم وتوقف القلم وهو يرتعب من عودته إلى مسكنه شارع "**امستردام**" وأن يعود إلى بعض المباهج والمتع التي سبق أن تمتع بها وانتهت بعد خمس سنوات بالقرب من امرأة عند انتقاله إلى الزواج وبيت الأسرة الشرعي.

الفصل الرابع عشر

نعم يا عزيزي. مات هذه الليلة بين ذراعي "**روزا**" وقمت بحمله إلى الحانوتي. كان "**جان**" قد التقى بالموسيقي "**دي بوتيه**" وهو يخرج من حانوت في شارع "**دي باك**" وقد تعلق به لحاجته للتفريج عن نفسه بطريقة لا تتماشى مع ملامح وجهه الخالية من التعبير لرجل الأعمال. وقص عليه استشهاد المسكين "**بيشيتو**" الذي قتله شتاء باريس وقد حطمه البرد رغم استخدام وسائل التدفئة. لم يستطع شيء أن يمنعه من الارتجاف، وليلة قبل الأمس بينما الجميع يحيطون به هزت آخر رجفة من رأسه لقدميه ومات كمسيحي صالح بفضل المياه المقدسة التي نثرت على جسده المجعد وأخذت الأم "**بيلار**" تدعو بالإسبانية: ليسامحه الرب!

لقد ضحكت ولكن القلب كان حزينا على أية حال خاصة عندما أفكر في أحزان مسكينتنا "**روزا**" التي تركتها والدموع على خديها ولحسن الحظ أن "**فاني**" كانت بجوارها.

- "**فاني**"؟

– نعم.. لقد مر وقت طويل لم نرها فيه. لقد وصلت هذا الصباح وسط المأساة وتعبت تلك الفتاة الطيبة تسري عن صديقتها. هل انتهى إذن الأمر بينكما؟ ألم تعودا معا؟ هل تتذكر حديثنا عند منتزه "**دانيان**"؟ على الأقل لقد استفدت من الدروس التي أعطيناها.

كان جبين "**جوسان**" مقطبا ويبدي عدم ارتياح حقيقي وهو يفكر في أن "**فاني**" عادت إلى باريس إلى بيت "**روزاريو**" ولكنه حنق على نفسه لهذا الضعف وهو يعلم أنه لم يعد له أي سلطة على وجودها وحياتها ولا أي مسؤولية نحوها وقف "**دي بوتيه**" أمام منزل في شارع "**دي بون**" الذي كان ارستقراطيا في يوم ما وكان يقيم هناك أو المفروض أن يقيم هناك من أجل المظهر والناس. تابع "**جان**" طريقه وهو يلوح وداعا ولكن الآخر أمسك بيده بين يديه الطويلتين الجافتين وقال:

– قدم لي خدمة إذن.. اصعد معي. لابد أن أتناول العشاء مع امرأتي هذا المساء ولكني لا أستطيع أن أترك مسكينتي "**روزا**" بمفردها وسط يأسها وسأستخدمك مبررا لخروجي وتجنبني تفسيرا مزعجا.

كانت مقصورة الموسيقار في شقة فاخرة وباردة وبورجوازية في الطابق الثاني تحس داخلها بالإهمال والهجران وأنها مكان غير مطروق، كان كل شيء فيها نظيفا ومرتبا ودون أي فوضى ولا يوجد ورقة أو كتاب على المائدة والتي عليها محبرة فاخرة ضخمة من البرنز جافة بلا حبر، ولا يوجد أي أوراق نوتات تدل على أعماله الأولى. ثم هناك تمثال نصفي لشابة من الرخام الأبيض ذات ملامح جميلة شاحبة تحت ضوء الغروب مما يزيد من البرودة خاصة وأنه موضوع فوق المدفأة الخالية من النيران وكانت الجدران محملة بالميداليات والتيجان الذهبية والأشرطة والأوسمة بطريقة تذكارية. ما إن دخلا حتى انفتح باب المقصورة مرة أخرى وظهرت السيدة "**دي بوتيه**".

- هل هنا أنت يا "**جوستاف**"؟

كانت تظن أنه بمفرده وتوقفت أمام الوجه غير المعروف لها وقد ظهر عليها القلق. كانت أنيقة وجميلة وبدت أرق من تمثالها النصفي كما بدت شجاعة وعصبية. أما الرأي العام فكان يعتبرها شخصية هادئة محبة لراحة بالها قبل كل شيء وتجد تسريتها في عدم إنجابها في مداعبة الأطفال وفي شهرة زوجها العظيم.

لكن بينما الموسيقار يقدم صديقه ويخترع أي أكذوبة ليتخلص من العشاء العائلي كان "**جان**" لا يفكر فيما يقال وإنما كان يستمع إلى عذاباته ولا يعني إلا بهذا المظهر الخارجي الاجتماعي ويحاول أن يدفن حزنه الحي. بدا أن الزوجة صدقت تلك الحكاية التي لم تكن تصدقها في الحقيقة وإنما اكتفت بأن قالت:

– إن "**ريموند**" سيبكي. لقد وعدته أن نتعشى بالقرب من سريره.

سألها "**دي بونيه**" وهو شارد نافد الصبر:

– كيف حاله؟

– أحسن ولكنه يسعل دائما. ألن نذهب لمشاهدته؟

تلعثم ببضع كلمات وسط شاربه وهو يتظاهر بالبحث داخل الحجرة وقال:

– ليس الآن فأنا في عجلة وموعدي في النادي في السادسة.

كان كل ما يبغيه ألا يبقى بمفرده معها. قالت المرأة الشابة فجأة وقد هدأت وملامحها كما هي مغلقة مثل الماء الساكن ثم حيت واختفت:

– إلى اللقاء إذن!

أحس "**دي بوتيه**" بالخلاص وسحب "**جوسان**" الذي شاهده يسرع بهبوط الدرج أمامه وتعجب من هذا المعتوه الذي فضل الذهاب بسرعة إلى عشيقته بدلا من أن يقبل ابنه المريض. قال الموسيقار وكأنه يرد على تساؤل صديقه الصامت:

– كل هذا يا عزيزي! غلطة هؤلاء الذين زوجوني. إنها خدمة حقيقية قدموها لي ولها وياله من جنون أن يرغبوا في أن يجعلوني زوجا وأبا. لقد كنت حبيب "**روزا**" ولازلت وساظل حتى الموت. إنها رذيلة تمكنت منا في لحظة سعادة.. هل يمكن أن نتخلص منها أبدا؟

نادى على عربة حنطور كانت مارة وصعدها:

– بالمناسبة هل تعرف الخبر الخاص بـ"**فاني**"؟ لقد خرج "**فلامان**" وكان صديق "**فاني**" من السجن وكوفئ عن طريق وصية "**ديشيليت**" مسكين "**ديشيليت**" إنه يصنع الخير حتى بعد موته.

وقف "**جان**" في مكانه بلا حركة ولديه رغبة مجنونة في الجري. استغرب "**جوسان**" من انفعاله الشديد.

– تم العفو عن "**فلامان**" وخرج من السجن!

كرر هذه الكلمات بصوت منخفض ووجد فيها مبررا لصمت "**فاني**" منذ أيام عن الولولة والشكوى لابد أنها وقعت تحت تدليل شخص يسري عنها لأن أول فكرة لذلك البائس بعد أن تحرر كانت في صالحها.

تذكر المراسلات العاطفية المؤرخة من السجن وعناد عشيقته في الدفاع عن ذلك الرجل فقط بينما كانت متساهلة مع الآخرين. وبدلا من أن يسعد بمغامرة تخلصه من كل قلق وتانيب ضمير إلا أن هواجس رهيبة تملكته بلا معنى ومحمومة لجزء طويل من الليل وظل ساهرا لماذا؟ إنه لم يعد يحبها ولكنه فقط يفكر في خطاباته التي لاتزال بين يدي تلك المرأة. والتي ربما قرأتها على الرجل الآخر ثم من يدري؟ ربما تحت تأثير شرير استغلت تلك الخطابات في يوم ما لتقلق راحته وسعادته وسواء كان الأمر حقيقة أم كذبا فإن عليه أن يخفي قلقا مشكوكا فيه. وأن انشغاله بتلك الخطابات دفعه إلى اتخاذ مسلك غير رشيد والزيارة إلى "**شافيل**" الذي صمم في عناد ألا يقوم بها ولكن لمن يوكل مهمة في مثل هذه الخصوصية والحساسية؟ وصباح أحد أيام فبراير استقل القطار الساعة العاشرة وهو هادئ

القلب والنفس ولا يخشى سوى أن يجد المنزل مغلقا والمـ ت وهي تتبع زعيم العصابة وعند منحنى الطريق كانت مصاريع النوافذ مفتوحة والستائر على النوافذ الأمر الذي طمأنه وتذكر انفعاله عندما وجد وراءه ظلا يهرب. إنه لم يعد نفس الرجل الذي يمر هناك وبالتأكيد لن يجد نفس المرأة هناك.. ومع ذلك لم يمر شهران من وقتها. والغابة التي بطول القطار لم تستعد بعد أوراقها الجديدة وتحتفظ بنفس الشكل العاري للأشجار منذ القطيعة.

نزل وحيدا إلى المحطة وبسبب ذلك الضباب البارد الثاقب فقد اتخذ الطريق الريفي وهو يتزحلق فوق الثلج المتجمد وقبو السكة الحديد ولم يلتق بأي شخص قبل حصن الحراس والذي عند ناحيته ظهر رجل وطفل يتبعهما موظف ممن يعملون في المحطة وهو يدفع عربته المحملة بالطرود.

كان وجه الطفل مغطى بطاقية ذات رقبة تخفي أنفه وأذنيه وقد كتم ضحكته وهو يمر بالقرب منه. قال في نفسه وهو مندهش وحزين من عقوق الصغير:

– ولكن هذا "**جوزيف**"؟

استدار والتقت عيناه بعيني الرجل المصاحب للطفل. ذلك الوجه الذكي الرقيق أصبح قاتما من الحبس في مكان مغلق وشحب وجهه وملابسه المشتراة من سوق الملابس المستعملة، وتلك اللحية الشقراء والتي لم تتح له فرصة حلقها منذ السجن. إنه "**فلامان باربليه**" و"**جوزيف**" هو ابنه.

كانت حقيقة انكشفت في لمح البصر. رجع وفهم كل شيء منذ خطاب علبة الحلي حيث منح النحات الحفار لعشيقته طفلا كان معه في الريف حتى الوصول الغامض للطفل ومظهر "**هيتيما**" المتضايق وهو يتحدث عن ذلك التبني ونظرات "**فاني**" لـ"**أوليمب هيتيما**" لأنهم جميعا اتفقوا على إطعام ابن المزور .

أه ياله من أحمق جميل! كم ضحكوا عليه! أحس بغثيان من ذلك الماضي غير المشرف ورغبة في الهروب لأقصى مكان. ولكن الأمور كانت تزعجه لدرجة أنه أراد أن يعرف. لقد رحل الرجل والطفل ولماذا لم ترحل هي؟ ثم تلك الخطابات.. إنه يلزمه الحصول على تلك الخطابات وألا يترك شيئا يخصه في ذلك المكان التعس:

– سيدتي؟ هذا هو السيد.

سأل صوت ساذج من أعماق الحجرة:

– نعم يا سيدي؟

– أنا..

سمع صوت قفز وجري ثم:

– انتظر سـأنهض.. إني قـادمـة.. إنها لاتزال في السرير ومنتصف النهار مر، شك "**جان**" في السبب.. إنه يعرف أسباب تلك الأيام التي تلي القطيعة. وبينما ينتظرها في البهو سمع صوت صفير القطار مع صوت مأماة ماعز في الحديقة الصغيرة المجاورة.

تناثرت أدوات المائدة فوقها وأعادته إلى الأيام الماضية والإفطار السريع قبل الرحيل .

دخلـت "**فـاني**" مندفعة نحوه ثم وقفت أمامه بسبب البرد وظلا لحظات مندهشين مترددين. قالت بصوت منخفض:

– يومك سعيد.

لقد وجدته تغير وسحب وجهه وهو مندهش من أن يراها شابة لهذه الدرجة وقد زادت بعض البدانة.. أضخم مما كان يتصورها ولكنها تعوم في ذلك البريق من السعادة. إذن لقد بقيت في الغابة في أعماق الخور المغطى بأوراق الأشجار الميتة.

اعتذرت وهي تبرر ذلك بأنها مصابة بصداع وأخذت مثله تستخدم الأسلوب الرسمي وهناك استجواب صامت حول المائدة التي كانت معدة للطعام ولم ترفع بعد تناوله. قالت:

– إنه الطفل.. لقد تناول غداءه هنا قبل رحيله.

– رحيله؟ ولكن إلى أين؟

تظاهر بعدم اكتراث كبير ولكن لمعان عينيه فضحه وقالت "**فاني**":

– لقد ظهر الأب مرة ثانية وأخذه.

– بعد خروجه من السجن.. أليس كذلك؟

ارتجفت ولكنها لم تحاول أن تكذب:

– إيـه.. حسنا.. نعـم.. لقد وعدت وأوفيت بوعدي. وكم من مرة أردت أن أعترف لك ولكني لم أجرؤ فقد خشيت أن تطرد الصغير المسكين. فقد كنت غيورا جدا.

ضحك في نفسه.. غيور هو! من ذلك المزيف للنقود. أحس بأن ثورته تتزايد فقطع في الحال وقال بحدة إن ما أتى به إلى هناك خطاباته.. لماذا لم تعطها لعمه "**سيزار**" وكان ذلك سيجنبهما لقاء مؤلما لكليهما قالت بكل رقة:

– هذا صحيح.. ولكني سأردها لك إنها هنا!

تبعها إلى حجرتها وجد السرير غير مرتب وشم رائحة السجائر المحترمة مختلطة بعطور المرأة التي تعرف عليها هي والخزانة الصغيرة المطعمة بالعاج والموضوعة على المائدة. قالت وهي تفتح الصندوق.

– إنها ليست ثقيلة.. ولن نخاطر لو ألقينا بها إلى النيران.

سكت مضطربا وقد جف حلقه وتردد في الاقتراب من ذلك السرير الذي أخذت أمامه تتصفح الخطابات لآخر مرة. وقد حنت رأسها وتصلب عنقها قالت:

– ها هي كلها..

أخذ الرزمة ووضعها فجأة في جيبه لأن اهتماماته تغيرت وسألها:

– إذن لقد اصطحب طفله؟ إلى أين سيذهبان؟ إلى "**مورفان**" في بلدته ليختبئ ويقوم بلوحات الحفر على النحاس ثم يرسلها إلى "**باريس**" تحت اسم مستعار.

- وأنت؟ هل تنوين البقاء هنا؟

أشاحت بعينيها هربا منه وتلعثمت، إن الأمر سيكون محزنا. وهي تفكر أيضا أن ترحل ربما قريبا.. في رحلة قصيرة. بالتأكيد ستكون الرحلة إلى "**مورفان**" كعائلة وانطلق غضبه وغيرته.

- قولي إذن في الحال أنك ستلحقين بلصك الذي سيضمك إلى بيته وهناك زمن طويل وأنت تتمنين ذلك هيا.. إن الطيور على أشكالها تقع! فتاة ليل ومزيف نقود يصلح كل منهما للآخر.. لقد كنت طيبا عندما أردت أن أنتزعك من الوحل، حافظت على صمتها وعدم حركتها وتسلل شعاع الانتصار من بين رموشها الطويلة ثم طرفت برموشها في سخرية متوحشة غاضبة ثم بدت أكثر كبرياء وحددت الرجفة في طرف فمها. الآن هو يتحدث عن سعادته هو، عن الحب الشريف الشاب.. الحب الوحيد. أوه! أوه.. يا للوسادة التي تنام عليها رأس امرأة شريفة! ثم فجأة انخفض الصوت وكأنه يشعر بالعار:

– لقد قابلت عشيقك "**فلامان**". هل قضى الليل هنا؟

– نعم لقد كان الوقت متأخرا وقد أعددت له سريرا فوق الأريكة.

- أنت تكذبين.. لقد نام هنا، ليس هناك أسهل من النظر إلى السرير ثم إليك..

– وماذا في ذلك؟

قربت وجهها من وجهه وعيناها الواسعتان الرماديتان تومضان وميضا فاجرا.

- هل كنت أعرف أنك ستأتي؟ وأنت ضعت مني وماذا يمكن أن يفعل لي كل الباقي؟ لقد كنت حزينة ووحيدة ومتقززة.

- ثم ماذا عن باقة الزهور البرية؟ منذ الوقت الذي عشت فيه مع رجل شريف هل بدا لك ذلك حسنا؟ هل غمرتيه بتدليلاتك ومداعباتك..؟ أيتها القذرة!

رأت الصفعة تأتيها دون أن تتحرك ثم زمجرت من الألم والفرحة والانتصار قفزت عليه وأحاطته بكلتا ذراعيها.

- يا صديقي! أنت لاتزال تحبني...

وتدحرجا سويا فوق السرير.

*****

أيقظهما مرور قطار الاكسبريس بفرقعة عالية ونهضا مسرعين حوالي المساء وقد فتحا عيونهما. ظل لحظات دون أن يدري وبمفرده فوق ذلك السرير الضخم وكانت كل عضلاته قد توقفت بعد مسيرة طويلة مرهقة وقد رجعت كل أعضاء جسده بجوار بعضها دون عضلات أو مفصلات، سقط الكثير من الثلج بعد الظهر وفي صمت الصحراء سمعا الثلج يذوب وينكسر فوق الجدران والزجاج ويتساقط خلال مزاريب السقوف أين هو؟ ماذا يفعل هنا؟ شيئا فشيئا بدت له الحجرة من خلال شرفة الحديقة بيضاء تماما مضاءة من أسفل، وصورة "**فاني**" الكبيرة معلقة في مواجهته ثم عادت له الذاكرة كالشلال ولكنه لم يدهش لأنه كان يعلم أنه فور دخوله إلى ذلك السرير فهو ضائع. إن أغطيته تجتذبه كالمغناطيس وقال في نفسه: لو سقطت فإن ذلك سيكون بلا رجعة وللأبد لقد تم الأمر وحدث وأمام تقززه من جبنه أحس بنوع من الخلاص لأنه لن يخرج من ذلك المستنقع ثانية، يا للرجل المسكين الذي يستحق الشفقة الذي جرح في استقراره وقد فقد دمه وهو يزحف بجرحه فوق ذله ونذالته ليموت بعد أن كَلَّ من المعارك والعذاب وقد تفتحت كل شرايينه ويغوص في تلذذ في الفراش الطري العفن.

ما تبقى عليه أن يفعله الآن رهيب ولكن بسيط. العودة إلى "**ايرين**" بعد تلك الخيانة وأن يغامر بإقامة بيت أسرة على غرار أسرة "**دي بوتيه**"! إنه سيكتب إلى "**بوشيرو**"..

إلى الطبيب البشري الشهير وأول من كتب ووصف الأمراض الخاصة بالإرادة وسيقدم له حالة رهيبة، تاريخ حياته منذ أول لقاء مع تلك المرأة عندما وضعت يدها على ذراعه إلى اليوم الذي اعتقد فيه أنه نجا وفي وسط السعادة والانتشاء عادت فأمسكت به ثانية بواسطة السحر، سحر ماضيه الرهيب حيث يحتل فيه الحب أكبر مساحة بفعل الاعتياد الجبان وتسلل الخطيئة في عظامه.

انفتح الباب ودخلت "**فاني**" في رقة إلى الحجرة حتى لا توقظه. راقبها من بين جفونه شبه المغلقة ورآها يقظة وقوية وقد تجدد شبابها وهي تجفف قدميها المبتلتين من الثلج في الحديقة. ومن حين لآخر تلتفت نحوه بتلك الابتسامة الصغيرة التي تعود عليها في الصباح بعد الشجار، ذهبت لتضع باقة زهور "**الماريلاند**" في مكانها المعتاد وأشعلت سيجارة ثم ذهبت ولكنه منعها:

– أنت إذن لم تنامي؟

– لا.. اجلس في مكانك ودعنا نتحدث. ظلت على حافة السرير وهي مندهشة قليلا من الجدية التي يتحدث بها.

- "**فاني**" إننا سنرحل.

ظنت في البداية أنه يمزح حتى يغيظها ولكن التفاصيل الدقيقة التي قدمها لها سرعان ما جعلتها تصدق. هناك وظيفة خالية خاصة في "**باريكا**" وسيطالب بها. إنها مسألة أسبوعين الوقت الكافي لحزم متاعها.

- وماذا عن زواجك؟

– ولا كلمة حوله. إن ما فعلته لا يمكن إصلاحه إنني أفهم جيدا أن الأمر انتهى.. إنني لم أعد قادرا على الفراق عنك.

قالت له في رقة حزينة وشبه احتقار :

– يا لطفلي المسكين.. هل هو بعيد البلد الذي تتحدث عنه؟

– "**أريكا**".. بعيد جدا في "**بيرو**" ولا يستطيع "**فلامان**" أن يصل إليك.

ظلت ساهمة تفكر في غموض وسط ضباب دخانها. وهو ممسك بيدها ويربت ذراعها العارية وهو يسمع خرير الماء الذي يحيط بكل المنزل الصغير، أغمض عينيه وغاص في الفراش بهدوء..

الفصل الخامس عشر

كان عصبيا ومتجهما تحت بخار الماء وقد رحل مثل كل هؤلاء الذين استعدوا للرحيل. كان "**جوسان**" من يومين في "**مارسيليا**" حيث من المفروض أن تلحق به "**فاني**" لترحل معه على الباخرة. كل شيء جاهز والأماكن محجوزة.. مقصورتان في الدرجة الأولى من أجل نائب قنصل "**أربكا**" المسافر مع زوجة أخيه وها هو يذرع البلاط الأحمر لحجرته في الفندق وهو ينتظر في نفاد صبر عشيقته ومتاعها، كان عليه أن يمشي ويتحرك في مكانه لأنه لا يجرؤ على الخروج. إن الشارع يضايقه وكأنه مجرم هارب وهو يخشى أن يظهر أبوه أو العجوز "**بوشيرو**" عند أي ناصية من الشارع.. أن يضع يده على كتفه ليستعيده.

أغلق على نفسه حيث يأكل في مكانه دون أن يهبط حتى لمائدة الطعام الخاصة بالفندق، ويقرأ دون تركيز وقت القيلولة خبر غرق السفينة "**لابيروز**" موت القبطان "**كوك**" وقد علق على الجدران مشدودا من شاربه وقد حط عليه الذباب والناموس.. وساعات طويلة مستندا على درابزين الشرفة الخشبية المتهالكة. في فندقه.. فندق "**الشاب الفوضوي**" الذي ربما جذبه اسمه للنزول فيه.

كان يسمع خليطا مزعجا من الشتائم المتبادلة المختلفة وصياح الحمالين وبائعي المحار، وصوت طرقات المطارق في حوض إصلاح السفن وأجراس الكنائس وصوت مضخات المياه الرتيب.. والبخار المتصاعد من المصانع يضاعف من ذلك ضجة المياه وأمواج الميناء الصاخبة.

والروائح أيضا تمثل البلاد البعيدة والأرصفة المشمسة بحرارة وأشجار الصندل والأوناش التي تفرغ حمولات الليمون والبرتقال والفستق والفول واللارنج..

جاء المساء وهدأت الضجة وخفت وطأة حرارة الجو وبينما كان "**جان**" مطمئنا في الظل عندما شق السكون صوت مجداف يضرب الماء ونباح بعيد لكلب فوق سطح السفينة وسط البحر.. كل شيء وسط البحر فنار "**بلانيه**" يلقي ضوءا أحمر دائري أو أبيض يمزق الظلام ويكشف أشباح الجزر والقلاع الحجرية وتلك العيون اللامعة ترشد آلاف الناس إلى الأفق.. لازال الترحال يدعوه وينادي وسط صوت الريح وصوت السفينة

البخارية وسط البحر التي تصدر صفيرا لايزال أمامه أربع وعشرون ساعة من الانتظار لا يجب أن تلحق به "**فاني**" إلا يوم الأحد والأيام الثلاثة قبل الرحيل كان لابد أن يقضيها بالقرب من أهله ويزور الأشخاص الذين أحبهم ولن يراهم لسنوات. والذين قد يقابل بعضهم بعد ذلك. ولكن ما إن حل المساء يوم وصوله إلى "**كاستيليت**" حتى علم والده أن الزواج لن يتم وأنه خمن الأسباب وقدم تفسيرا عنيفا ورهيبا. انتهى بأن قال الأب:

– دعنا لا نتحدث عن الأمر بعد ذلك أبدا ولم يتحدثا في الأمر قط، ولكنه سيتذكره طوال حياته، سيتذكر ذلك المشهد الرهيب على الشرفة في "**كاستيليت**" أمام الأفق الرائع الهادئ وأشجار الأرز والسرو والكافور المتلاصقة بلا حركة أمام لعنة الأب. سيظل يرى ذلك العجوز العظيم ذا الخدين المرتجفين المتحركين وهو يسير نحوه بفمه المليء بالكراهية وتلك النظرة الكريهة وهو يطلق الكلام الذي لا يغتفر وهو يطرده من البيت ومن الشرف. والصغيرتان التوأمتان تصرخان وتبكيان وهما تسمعان الأب يصيح:

– اغرب عن وجهي واهرب مع غانيتك فأنت ميت بالنسبة لنا. أخذت الصغيرتان تزحفان على ركبتيهما مطالبتين بالعفو عن شقيقهما الأكبر.. ثم هناك شحوب "**ديفون**" دون نظرة أو وداع بينما في الدور العلوي خلف زجاج النافذة كان الوجه الحلو الرقيق للأم المريضة يتساءل لماذا كل هذه الضجة وأن ابنها "**جان**" سيرحل بسرعة دن أن يقبلها!

جعلته فكرة أنه لم يقبل أمه يعود من منتصف طريق "**افينون**". ترك "**سيزار**" في السيارة في نهاية البلد واتخذ الطريق العكسي وعبر "**كاستيليت**" خفية كاللص فإن الليل دامس الظلام وكانت قدماه تتعثران في الأغصان الميتة للكروم، وانتهى به الأمر إلى عدم التأقلم على العتمة وأصبح مثل الغريب على داره. قاده بياض الجدران أخيرا إلى انعكاس ضوء مبهم، ولكن باب الفناء كان مغلقا والنوافذ مطفأة في كل مكان هل يرن الجرس أم ينادي؟ لم يجرؤ خوفا من أبيه. دار حول الدار مرتين أو ثلاث مرات وبعد أن ألقى نظرة طويلة على حجرة أمه والوداع لبيت طفولته الذي لفظه هرب يائسا ولديه شعور بالذنب لن يتركه أبدا.

عادة بالنسبة لحالات الغياب الطويلة رحلات عبور البحر المحفوفة بالمخاطر كان الآباء والأقارب والأصدقاء يطيلون في لحظات الوداع حتى رحيل الباخرة التهاني ويقضون

النهار الأخير معا ويزورون الباخرة والمقصورة. وأكثر من مرة شاهد "**جان**" أمام فندقه تلك المجموعات المتحابة بعضها كثيرة العدد وشديدة الضجيج ولكنه تأثر بوجه خاص بعائلة في الدور السفلي منه، رجل وامرأة عجوزان وأشخاص من الريف يرتدون ملابسهم الجوخ يساعدون المسافرين لحين رحيل سفينة الركاب.

تصورهم عائلته عند رحيله.. والده وأخته وقد استندت عليه في رقة وبيد مرتجفة تلك التي وافقت أن تغامر وتصحبه إلى بلاد بعيدة. ياله من ندم عقيم.. لقد تمت الجريمة وسار قدره في مساره وليس أمامه سوى أن يرحل وينسى. كم بدت الساعات بطيئة وقاسية في آخر ليلة. أخذ يدور ويلف حول نفسه! في سريره في الفندق وهو ينتظر النهار خلال زجاج النافذة من تحول سواد الليل إلى رمادي ثم إلى أبيض ثم ظهر الفجر ولمعان الشمس التي بدأت تشرق.

ومع ذلك تعشى واستيقظ فجأة بأشعة الشمس المبهرة داخل حجرته وصيحات الطيور مع الضجيج الأبدي لنهار "**مارسيليا**". لقد كانت الساعة العاشرة واكسبريس "**باريس**" يصل في الثانية عشرة. ارتدى ملابسه بسرعة ليذهب لمقابلة عشيقته وسيتناولان الغداء في مواجهة البحر ثم سيحملان أمتعتهما على سطح السفينة في الخامسة.

كان يوما رائعا والسماء عميقة حيث النورس يمر في مجموعات بيضاء والمياه شديدة الزرقة.. وكانت قيثارة تصدر ألحانا إيطالية في قاعة الفندق وإن كانت الألحان تثير التوتر.. إنها أحد تقاليد احتفالات الجنوب وتلك الوفرة من الحياة والحب لدرجة الدموع. وذكرى "**ايرين**" مرت خلال اللحن وهي تهتز وتبكي.. كم بدا الأمر بعيدا.. وياله من بلد ضائع وياله من ندم أبدي على أشياء تحطمت ولا يمكن إصلاحها.

- هيا بنا.

على العتبة عند الخروج قابل "**جان**" جارسونا:

- خطاب من أجلك يا سيدي القنصل. لقد وصل الخطاب هذا الصباح ولكن سيدي القنصل كنت تنام بعمق. إن المسافرين المرموقين نادرون في فندق "**الشاب الفوضوي**" ويحرص أهل "**مارسيليا**" على عدم إزعاج ضيوفهم.

من يمكن أن يكتب له؟ لا أحد يعرف عنوانه مالم تكن "**فاني**" هي.. وعندما فحص

المظروف مرة ثانية أصيب بالرعب وفهم:

– حسنا.. لا.. لن أرحل إنه جنون مطبق أحس بأنني غير قادرة عليه بالنسبة لمثل هذه الخبطات يا صديقي المسكين لابد من الشباب الذي لم أعد أعرفه أو عمى العاطفة المجنونة التي تنقصنا. لقد مرت خمس سنوات على الأيام الجميلة، وقتها إشارة منك كانت كفيلة بأن أتبعك إلى الجانب الآخر من العالم لأنك لم تكن تستطيع أن تنكر أنني أحببتك بعنف وعاطفة جياشة. لقد أعطيتك كل ما لدي وعندما اضطررت إلى أن ينتزعوك مني عانيت وتعذبت كما لم أتعذب مع أي رجل آخر. والآن لم أعد أتحمل لقد أعطيتني من الحياة أكثر من اللازم وكذلك الكثير من العذاب حتى فاض بي الكيل..

في مثل تلك الظروف فإن منظور تلك الرحلة الطويلة ونقل وجودي لمكان بعيد يجعلني أشعر بالخوف. أنا التي أحب جدا ألا أتحرك والتي لم تذهب قط أبعد من "**سان جيرمان**" ألا تظن ذلك؟ ثم إن النساء يصبن بالكبر والعجز أسرع تحت الشمس الحارقة وأنت لم تصل بعد إلى سن الثلاثين وأنا سيصفر لوني ويتجعد جلدي مثل الأم "**بيلار**"، إنها صدمة بالنسبة لك ولكن "**فاني**" هي التي ستعاني. اسمع: هناك بلد في الشرق. لقد قرأت ذلك في كتاب "**حول العالم**" حيث عندما تخون المرأة زوجها يخيطونها حية مع قطة بجلد حيوان طازج ثم يتركون الربطة على الشاطئ تصرخ وتقفز في عز الشمس والمرأة تموء والقطة تخمش وكل منهما تلتهم الأخرى بينما جلد الحيوان يضيق كلما زادت حرارة الشمس إلى آخر حركة من الطرد. هذا أقل عذاب ينتظرنا.

توقف دقيقة محطما أبله وعلى مدى البصر عند زرقة البحر كانت القيثارات تعزف لحن الوداع.. لقد تحطمت حياته وقد بدت أمامه كل الدموع التي سكبتها والخطط التي وضعاها بلا رجعة ودون أمل في العودة وكل ذلك من أجل امرأة هربت منه.

– كان من المفروض أن أقول لك كل هذا في وقت مبكر ولكني لم أجرؤ وأنا أراك عنيدا ومصمما.. إن حماسك تملكني ثم هناك غرور المرأة وطبعها وفخرها بأنها استطاعت أن تغزوك وتستعيدك بعد القطيعة. فقط في أعماق نفسي أعترف بأن كل شيء انتهى وتحطم. كيف تريد ذلك؟ بعد هزات مماثلة.. ألم تتصور أن كل ذلك كان من أجل المسكين "**فلامان**"؟ بالنسبة له كما هو بالنسبة لك وللآخرين، انتهى كل شيء

ومات قلبي ولكن يبقى ذلك الطفل الذي لم أعد أستطيع الاستغناء عنه والذي أعادني إلى الأب المسكين الذي ضاع بسبب الحب وعاد إلي بعد السجن بنفس اللهفة والحنان مثل لقاءاتنا الأولى تصور أننا عندما التقينا مرة ثانية قضى الليل بطوله يبكي على كتفي.

- لقد قلت له يا عزيزي إنني أحببت كثيرا وقد قطعت صلتي عمن أحب... والآن أنا في حاجة إلى من يحبني بدوري وأن يعجب بي ويدللني إنه سيركع عند قدمي ولن يراني أبدا وقد غطت التجاعيد وجهي ولن يرى شعري الأبيض وإذا ما تزوجني كما هي نيته أنا الذي قدمت له خدمة.. قارن.. خاصة لا داعي لأي حماقات مجنونة، لقد اتخذت احتياطاتي حتى لا يمكنك العثور علي. ومن المقهى الصغير أمام المحطة كتبت لك هذا الخطاب وأشاهد خلال الأشجار المنزل الذي قضينا فيه لحظات حلوة وقاسية واللافتة المتأرجحة على الباب في انتظار سكان جدد. هأنت أصبحت حرا ولن تسمع عني أبدا بعد ذلك.. وداعا وقبلة هي الأخيرة على عنقك يا صديقي..!

تمّت بعون الله